ذِي قِربتي

مقالات، وخواطر، وقصص من واقع الخدمة

د. محمد باباعمي

دار النيل

ذِي قِربتي

مقالات، وخواطر، وقصص من واقع الخدمة

Copyright © 2013 Dar al-Nile
Copyright © 2013 Işık Yayınları

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع : ISBN 978-975-315-529-8

DAR AL-NILE
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - **İstanbul / Türkiye**
Tel: +90 216 5221144
Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة، الحي السابع،
مدينة نصر-القاهرة/جمهورية مصر العربية

هاتف : ٠٠٢٠٢٢٦١٣٤٤٠٢-٥

المحمول : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com

ذِي قِـربتي

مقالات، وخواطر، وقصص من واقع الخدمة

د. محمد باباعمي

دار النيل

محمد باباعمي

من مواليد ١٩٦٧م، ببني يزجن / الجزائر.

ماجستير في العقيدة والفكر الإسلامي (سنة ١٩٩٧م)، جامعة الخروبة، بموضوع: مفهوم الزمن في القرآن الكريم. دكتوراه في العقيدة ومقارنة الأديان (سنة ٢٠٠٣م)، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، بموضوع: أصول البرمجة الزمنية في الفكر الإسلامي.

مدير معهد المناهج للدراسات العليا، الجزائر العاصمة. عضو باحث في مؤسسة أكاديميا، إسطنبول/تركيا.

من المؤلفات:

- من بنات الأسفار
- بورصة الصراحة
- مطارحة معرفية
- رواية بوبال
- البرديم كولن.. فتح الله كولن ومشروع الخدمة.
- أرباب المستوى.. حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن.
- ذي قربتي.. مقالات وخواطر وقصص من واقع الخدمة.
- الزمن والوقت.. نصوص ومفاهيم مؤسسة على الرؤية الكونية لفكر الأستاذ فتح الله كولن.

الإشكاليات الجاري البحث فيها: المنظومة المعرفية الرشيدة؛ تحويل المعرفة إلى سلوك؛ مناهج البحث في علوم العقيدة؛ تجارب حضارية معاصرة؛ النماذج المعرفية (البراديم)؛ البراديم كولن؛ نحو تفسير للقرآن الكريم بناء على نموذج الرشد.

الموقع: www.veecos.net البريد: rochd@veecos.org

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

مقدمة ١١

رسالة "ذي قربتي" إلى الأستاذ فتح الله كولن ١٥

القسم الأول
المقالة الفكرية-الأدبية

معلِّمتي، ورقة الخريف ٢١

أولى زخات الثلج، تعظني وتبكيني ٢٣

رسالة إلى الريح الصقيع ٢٧

حبيبتي، يا زهرة "اللاَّلَه"..! ٣١

في طريق الهجرة ٣٤

ويعود العيد ٣٨

ابتسامة الملائكة... همسة في أذن أختي المضيفة ٤١

إلى التي... ..... ٤٧

بخٍ بخٍ، هي ذي ريح الجنة تلوح في الأفق! ٤٩

حين يعمل الغافلون، ويكسل الراهبون ٥٤

نحو فجر جديد، على يد بشر ٥٩

أهو الحظ، أم التوفيق، أم العمل؟ ٦٣
الوحي، والمعلومة، والرؤية الكونية ٦٦
من التوتر إلى القضية.. كيف ولماذا؟ ٦٩
آلام التفكير ٧٤
بؤرة تفكيري، وخطي المنهجي ٧٧
العلم والجماعة العلمية ٨٠
رجل المرحلة ٨٧
الطيور الرشيدة ٩٣
أقزام البامبوطي، وجغرافية الإدراك ١٠٠
الطحالب الآلهة ١٠٥
فعَلَها الصِّغار! ١٠٨
فلسنا بطير مهيض الجناح ١١٣
النصرُ آت... النصرُ آت ١١٥
هل حان الأوان؟ ١١٨
من آخر الفرسان إلى عودة الفرسان ١٢٠
الإمام البوصيري يحتفي بحراء ١٢٥
وحيد الدين خان.. "ما هي الحكمة؟ إنه أكبر سؤال في حياتي" ١٢٨
موت العالِم، وشجرة التوت ١٣٣
تمنغست، قِبلة العارفين ١٣٦
نفحة من المغرب الحبيب ١٤٠

الاختبار العسير! على إثر تشويه صورة حبيبنا رسول الله ﷺ ١٤٤

القسم الثاني
القرآن شمولية تأبى القيد البشري

كتاب حقٍّ ١٥١
كتاب الغذاء الكامل ١٥٣
كتاب حياة ١٥٥
كتاب رشدٍ ١٥٧
"جوته" والقرآن ١٥٩
الكدح قدَرنا، والروح سِلاحنا ١٦٠
"الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى" ١٦١
"أتعبدون ما تنحتون" ١٦٣
الإنسان المتجدد، ومبدأ الأنتروبي ١٦٥
قرآننا الكريم، ونبيّنا الحكيم ١٦٧

القسم الثالث
نسمات البوسفور

مدارسنا كما أتخيَّلها ١٧١
الصلاة... الصلاة... ..... ١٧٢
الجيل الكونيُّ آت... ..... ١٧٣
وجهان... وقلبان! ١٧٤
ماذا... وماذا... ثم ماذا؟ ١٧٥

كيف... وكيف... ثم كيف؟ ١٧٦
فنُّ مقاومة الرياح العاتيات ١٧٧
روضة الورد ١٧٨
الإيمان بالآخرة ١٧٩
الحمد لا المدح ١٨٠
الرجل الجبل ١٨٢
أتخشى على بناتي الفقر؟! ١٨٤
بوبال... الرؤيا الصالحة ١٨٥
إلهي، حمدي لك يستوجب حمدًا ١٨٧
"بطن جائعٌ، ووجه مدهون" ١٨٨
نعم العدلان، ونعمت العلاوة ١٨٩
ميِّت بن نَوْمان! ١٩٠
ناغورنو كاراباخ ١٩١
سؤال الخلق، وسؤال الحقِّ ١٩٢
يا نفسُ، تسالبي! ١٩٤
إلهي، اجذبني جذبةً إليك ١٩٦
تعلَّم كيف تبيع نفْسَك! ١٩٨
ما بعد التشييئ والحوسلة ١٩٩
العنف الناعم، والعنف الخشن ٢٠١
كوني درَّة! ٢٠٣

الدودة الألفية، والذي تفلْسف... ٢٠٤
صوامع المرابطين ٢٠٥
أخي أنتظر منك الجواب! ٢٠٦
العمل والفكر ٢٠٧
إليك أيها الفطن! ٢٠٨
ظلُّ العمل، وعمل الظلِّ ٢٠٩
الفكرة الخاطئة، والفعل الخاطئ ٢١٠
المرجعية، والفهم العقلاني، ثم الانقياد ٢١١

القسم الرابع
مجانين أريد...!

قصص من واقع الخدمة تفوق الخيال، مقروءة ضمن نموذج الرشد

بين يدي القصص ٢١٥
يا علي، احترق تنطلق! ٢١٩
صاحبة الديْن ٢٢٣
عربة العمِّ رمضان ٢٢٧
شمسٌ تسطع من مغربها! ٢٣٠
المنديل المبارَك ٢٣٤
عقمٌ دون عقم ٢٣٦
فقط، عشرة آلاف دولار... ٢٤٠

مقدمة

لم أتردد في اختيار عنوان لمؤلَّف من المؤلَّفات السابقة مثل تردُّدي هذه المرَّة، ذلك أنَّ تنوُّع المادَّة وتلوُّن طبيعتها واختلاف الأزمنة التي حرِّرت فيها.. كلُّ ذلك فتح أمامي أفقًا رحيبًا من الحرية، ووضع قدَّامي جملة ثرية من العناوين جميعُها لائقٌ باعتبار غيرُ لائقٍ باعتبار آخَر، منها مثلاً: "وجدتُ الله" و"العصفور المبلَّل" و"مجانين أريد!" و"ذي قربتي"...

ثم إني لم أجد مثل الاستشارة ملاذًا ومفزعًا، ولا مثل رأي الجماعة مصدرًا وموردًا؛ فعرضتُ ما توفَّر لي من مادَّة خبرية، وما ألحقتُ بها من عناوين فنّية، وما اجتهدت فيه من تصنيف منهجيٍّ... عرضتُ ذلك على "فريق البحث" في "الأكاديميا"، ثم قرأوا ولاحظوا، وقدَّموا وأخَّروا، فأحسنوا واستحسنوا... ومع كلِّ لقاء أو حوار أو استشارة أقول:

"ليس الأهمُّ ما ينتهي إليه المؤلَّف، ولكنَّ الأهمَّ هو هذا الحراك العلميُّ الجماعيُّ المبارَك الذي يدفعنا دفعًا نحو السموق إلى مجرَّات "الجماعة العلمية" بلا خوف ولا تردُّد. ذلك أننا "إذا أصبحنا كيانًا متوحِّدًا وكُلاًّ متوافقًا، فسوف تتنزل علينا من الألطاف ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسوف نمتلك القدرة على رفع أحمالٍ أثقلَ

من جبل قاف"[1].

وانتهى بنا المطاف إلى أن قسَّمنا الكتاب إلى أربعة أقسام، لكلِّ قسم طبيعته ونكهته ومجاله.

أمَّا **القسم الأوَّل**، فخصِّص للمقالات الفكرية-الأدبية أو إن شئت فقلْ المقالات الفكرية المكتوبة بأسلوب أدبيٍّ، ذلك أنِّي لا أدَّعي امتلاك الموهبة ولا الخبرة ولا المعرفة بفنون الأدب وتلوُّناته... فذاك مطلب عزيزٌ "دونه خرق القتاد".

و**القسمين الثاني والثالث**، عبارة عن خواطر كتبتها من شُرفة مكتبي المطلِّ على البوسفور، ونشرتُها في موقع "فيكوس" على مدار العام كلَّ ليلة جمعة طلبًا للأجر عند الله واستدرارًا لبركات الجمعة ولساعة الاستجابة فيها، ثم توجيهًا وإرشادًا للقرَّاء الأوفياء المتتبعين لها بنهم وعناية، وقد بلغ عددهم الآلاف من مختلف بلاد العالم.. ولقد اكتشفتُ من خلالها -سواءً في ذلك "سلسلة شمولية القرآن" أو "سلسلة نسمات البوسفور"- أنَّ الكثير من الناس مِن مختلف الشرائح لا يتحمَّلون المقالات العميقة الطويلة ولا الكتب الدسمة الكبيرة الحجم، فيلوذون بمثل هذا النوع من الخواطر الخفيفة المباشرة التي تحمل رسالة واضحة بأسلوبٍ ميسَّر. ولقد تؤثِّر فيهم وتدفعهم إلى الفعل والحركية أكثر مما يتأتى من أيِّ باب آخر من أبواب التأليف الفكريِّ الحضاريِّ.

أمَّا القناعة الذهنية التي تتكرَّر دومًا على صيغة: "لستُ مروحة للكسالى" فهي وإن كانت صادقة في حالات لا يمكن أن تكون صادقة في

---

[1] فتح الله كولن، "نكران الذات والمدد الرباني"، مجلة حراء، العدد: ٢٤ (مايو-يونيو ٢٠١١).

جميع الحالات، ولنا في كلام الله تعالى قدوة وأسوة؛ فهو الذي صرَّف القول ونوَّع الخطاب وراعى كلَّ الملكات والمستويات، وهذا بعينه نوع من أنواع الإعجاز البياني البديع.

وجاء **القسم الرابع** من الكتاب على شاكلة فنٍّ جديد عليَّ، وهو فنُّ "القصَّة الصغيرة"، ولقد سبق أن كتبتُ رواية "بوبال" ثم رواية "ميمونة"، فوجدتُ أنَّ القصص بجميع أشكاله وأنواعه وسيلةٌ سحرية في تبليغ المعاني، وفي زرع الشوق والعشق في قلوب القرَّاء عموما والشباب بالخصوص.. ولقد جاءت هذه القصص التي استُلَّت من واقع الخدمة واستندت إلى فكر الأستاذ "فتح الله كولن" لتؤكِّد على العلاقة الحميمية بين فكر المرشد الملهم، وواقع المهاجرين من أبناء الخدمة الربانيين. وهذا وجه أساس من أوجه "نموذج الرشد" وركيزة حقيقة من ركائزه الثلاثة.

وأمَّا العنوان الذي كان محلَّ اختيار، فقد استقرَّ على صيغة "ذي قربتي"؛ وهي بعينها الصيغةُ التي عنْونتُ بها رسالة وجَّهتها للأستاذ المجدد فتح الله كولن، ثم جاء الجوابُ منه دليلَ حكمةٍ وحلم، بل عنوان إمامةٍ وقيادةٍ وريادةٍ، وهي وثيقة تاريخية حُبلى بكلِّ معاني سياقها وحيثياتها، ومما جاء في الرسالة: "مرَّة أخرى، أستحيي وأنا العييُّ في مخاطبتكم وحسبي أن أقول وقد جاءكم أهل "الخدمة" بدلائهم بل وأنهُرهم ووديانهم وبحورهم، وجئتكم أنا بقربة لعلَّها جفَّت منذ أمد... جئتكم باحثًا عن الحقيقة عاشقًا مصادرها وموارها، لأنشِد مع المنشد مخاطبًا أحبّتي في الأكاديميا، وقد قبلوني -بأمر منكم وفضل- تلميذًا في صفّهم وطالبًا مبتدئًا في صرحهم... أهمس في أذن كلِّ واحد منهم:

ذي قربتي يا أخي في الحبّ أرسِلْـها إلى الحبيب، فهل يُرضيه متَّسمي؟

وللقارئ العزيز أردِّد مقولتي: "ذي قربتي"، وأهديه هذا السفر الجديد بعنوان: "ذي قربتي"، فليقبل هديّتي بحسبان كرمه لا بحقيقة جفافها. إذ الضعف سمتي والنقص علامتي والمحاولة الدؤوب ديدني، ولا أعرف سبيلاً أرضي به خالقي وأنفع به أمَّتي، أمثلَ ولا أحسن من الاجتهاد الدائم، والصدق في كلِّ مرحلة، وعدم التوقُّف ولو لبرهة على قارعة الطريق، وهجران الالتفات إلى الوراء مهما بدا الوراء قاتمًا، بعقبان ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾(الحجر:٦٥)...

كلُّ ذلك مردُّه إلى حسن الظنّ بالله، والثقة الكاملة فيه، واعتقادِ أنَّ كلَّ شيء به ومنه وإليه... ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾(التوبة:١٢٩) ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود:٨٨)، سبحانك ربي، أردِّد مع كليمك الأواه ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾(طه:٨٤).

والحمد لله أولاً وآخرًا، والعاقبة للتقوى.

د. محمد باباعمي

الأكاديميا، صبيحة الأربعاء

٢٤ ذو القعدة ١٤٣٣هـ / ١٠ أكتوبر ٢٠١٢م

رسالة "ذي قربتي" إلى الأستاذ فتح الله كولن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الصلاةُ والسلام على "**شجرة الوجود، والعلَّةِ الغائية لكتاب الكائنات، وأقوى صوت للدعوة إلى الحقِّ سبحانه**".

التحيةُ والإكرام لسيِّدي وحبيبي، ونور قلبي، "**صرحِ الإيمان والحركية**"، محمدٍ بن عبد الله ﷺ، في ذكرى مولده... صلَّت عليه الخلائق شوقًا، وتشوَّفت إلى جماله القلوب عِشقًا.

وبعدُ، فلقد حملتُ منذ أمدٍ سؤالاً صغيرًا كبيرًا، أحسب أنَّ المسلمين في كلِّ العصور حين يسقطون في امتحان التمكين والاستخلاف، إنما يُخفقون في الإجابة على هذا السؤال الخطير الجدير، وهو: **كيف نحوِّل الفكر إلى فعل، وكيف نصل العلمَ بالعمل؟!**

ولقد سافرتُ به، وسافرت معه، فقطعت مسافات زمنية مديدية، وعبرت مساحات مكانية عديدة... بحثًا، وحفرًا، وتنقيبًا... وكلِّي يقينٌ أنَّ حقيقة القرآن وحقيقة الإيمان، ثم على إثرهما الحقيقةُ الأحمدية والحقيقةُ الراشدية... إنما تدعو إلى "**القرَان بين الإيمان والحركية قِرانًا لازمًا متوازنًا، فريدًا من نوعه**"، وذلك ما لم يحقِّقه على إطلاقه "**إلاَّ حضرةُ النبيِّ محمد عليه أكمل التحايا**" (ونحن نبني حضارتنا).

ولقد قلت في نفسي، ولنفسي، يومها: "لو ألفيتُ مفكّرًا، أو مجدِّدًا، أو مشروعًا، أو حركة... استطاع أن يصل ما أمر الله به أن يوصل، فلم يقطِّع أرحام الإيمان والفكر والحركية، ولم يبدِّد -في تصوراته وتصرفاته- جمالَ "شمولية" النور السرمديّ وجلاله... ولم يظلم كماله البديعَ، واكتمالَه"... قلتُ: "لو اهتديتُ إلى ذلكم المرتقى الراقي، وإلى ذلكم الركن الركين، فسأعقِد النية -بجول الله- أن أتّخذه إمامًا، وأسوةً، وقدوةً... ولا أبالي".

ولقد كتبتُ يومها عهدًا بيني وبين خالقي ومُرشدي ومدبِّر أمري، سبحانه... فعقدتُ العزم، وشمرت عن ساعد الجدِّ، حسبَ طاقتي وعجزي وقلَّة حيلتي... ثم انطلقت...

إلى أن فتح الله تعالى عليَّ بـ"فتح الله"، فانكببتُ على ما تُرجم من مقالاته وكتبه، ألتهمها التهامًا، وأهتبِل الفرصةَ في العبِّ من معينها اهتبالاً؛ ويشاء المولى الكريم -بعد ذلك- أن أزورَ بعضًا من آثار ذلكم الميراث الزكيّ، وألتقي بشباب "الخدمة" الذكيّ، وهم شموس في سماء الأفق الرحيب، وهم ثمرةٌ لشجرة الملَّة المحمَّدية المعطاء: دماثةَ خلقٍ، وسعة أفقٍ، وصفاء طويةٍ، وحضور بديهة، وعلو همَّة...

هنا، ومن هنا، وهكذا، وبهذا، ولهذا، وفي هذا، وعند هذا... اكتشفتُ ما أحسب أنه أعظم من اكتشاف "كريستوف كولومب" لأمركيا الجديدة.. اكتشفتُ "**البراديم كولن**"، أي "**الجوابَ على سؤال الانفصام بين الفكر والفعل في واقع الأمَّة اليومَ**".. ولم يكن الجواب "نظريًّا تنظيريًّا"، وما ينبغي له أن يكون... كذلك لم يكن "عمليًّا صرفًا، وميدانيًّا خالصًا"، ولا يليق به أن يكون... وإنما كان خيطًا من ذهب، يصِل الفكر بالفعل، ويربط العلم بالعمل... فالتقى السالب الإيماني -الخلقي بالموجِب الجهادي-

الحركي، فسطع على الكون ضوءُ الإيمان، وغمر الوجودَ ضياء القرآن...

أستاذي، معذرةً، لقد جاوزت حدّي، فأطلت في شرح همّي، وأضعت من "**شريحتكم الذهبية**" وقتًا غاليًا عزيزًا، في مثله تزيدون البشرية رواءًا وسقيًا؛ لكن حسبي أن أقطع رسالتي، بأن أقول لكم: "**أحبكم في الله، ولله، ومن الله، وعلى الله، وبالله**"... ثم إني أعتقد فيكم "**الإمامَة**"، لي ولكلِّ باحث عن الحقِّ في أمَّة المصطفى ﷺ، وملَّة المجتبى... دع عنك الفروقَ الوهمية التي لا نملك اختيارًا فيها: من جغرافيةٍ، وعرقيةٍ، واعتباريةٍ، بل وحتى مذهبية... حين يتحوَّل المذهب -خطأً وانحرافًا وسقمًا في الفهوم- إلى جزيرةٍ نائية، وسجنٍ مميت...

معلِّمي، لم أجلس يومًا إليكم، وإنما جلست طويلاً إلى فكركم وتلامذتكم، وتأمَّلت عميقا -ولا أزال- آثارَكم وإنجازاتكم... ومن سوء حظِّي، وإن كنتُ أرضى بالقدر، أن لا أنال هذه الحظوة؛ ولذا تجدني أغبط مَن كان سببًا وواسطة بيني وبينكم، وأعلِّل النفس أني تابعيٌّ لأصحابٍ، أعني بهم أساتذة أفذاذًا، وهبوا نفوسهم للحق، ثم رابطوا مؤمنين موقنين على حصون نفع الخلق.

إمامي ومعلِّمي، كلَّما فكَّرت في حال أمَّتي "**العربية بالخصوص**"، وجدتُ أنها عطشى إلى "**الخدمة**"، جوعى إلى "**فكر فتح الله**"، مؤمِّلة النجاة -بحول الله- في مرشد ودليلٍ خرِّيت، هو شخصكم الكريم.. ولقد -واللهِ- حُظيتم "**بالخرِّيتية**" التي تفتقدُها أوطاننا وبلادنا في كثيرٍ من روَّادها وقوادها... اليومَ.

هي صفة وسمة فيكم تمثَّلت؛ ولذا فكلُّنا أملٌ ورجاء، وطلبٌ وإلحاح... أن توجِّهوا جيشًا من الطلبة والباحثين لترجمة جميعِ مؤلَّفاتكم

وأعمالكم، القلمية والصوتية، إلى اللغة العربية، لغةِ القرآن، ولسان سيد الأنام... إذ كلُّ حرفٍ وكلمة، وكلُّ جملة ومقالة، وكلُّ فكر وفكرة... هو غيثٌ هامر، ونهرٌ هادر، يسقي أراضينا القحلة المحلة، ويشفي قلوبنا المَشوفة المَشوقة...

مرَّة أخرى، أستحيي، وأنا العييُّ، في مخاطبتكم، وحسبي أن أقول، وقد جاءكم أهلُ "**الخدمة**" بدلائهم، بل وأنهُرهم ووديانهم وبحورهم، وجئتكم أنا بقربةٍ، لعلَّها جفَّت منذ أمد... جئتكم باحثًا عن الحقيقةِ، عاشقًا مصادرَها وموارِدَها... لأنشِد مع المنشد، مخاطبًا أحبّتي في الأكاديميا، وقد قبلوني بأمرٍ منكم وفضل، تلميذًا في صفِّهم، وطالبًا مبتدئًا في صرحهم... أهمس في أذن كلِّ واحد منهم صادحًا مغرِّدًا:

ذي قربتي يا أخي في الحبِّ أرسِلُها إلى الحبيب، فهل يُرضيه متَّسمي؟

أرجو أن تصلك تحيتي، **يا حبيب**... وآمل أن يصلك معها سلامي، **يا طبيب**... مِن ابنك، ومحبّك، والحامدِ اللهَ أن هداه إلى اكتشاف رحابك وسفوح ربيعك، والمردِّد مع أرباب المعنى مقولتهم البديعة: "**أجل! السلطنة تليق بالسلاطين، والتسوُّل يليق بالمتسوِّلين**".

والسلام...

محمد باباعمي

صبيحة السبت، ١٢ ربيع الأول،

١٤٣٣هـ، - ٠٤ فبراير، ٢٠١٢م

القسم الأول

المقالة الفكرية-الأدبية

معلِّمتي، ورقةُ الخريف[1]

عفوًا آنستي، داستْكِ قدمي فجرًا، في ساحةِ المسجد المجاور، كما الأيامُ الأُخر بلا وعيٍ في حقِّك، ولا تفكُّر في حقيقتك.

أمَّا صباح هذا اليوم البلَّوري المبارَك، فقد استفاق الإدراك فيّ وجهتَك، واستيقظ الاعتبار من كنانة قلبي... وكم مِن عِبر تمرُّ عليَّ ولا أبالي؟! فقليلاً ما تذكَّرت، وركَّزت، ونظرتُ... يا ويح قلبي الفاتر، ويا حسرتا على عقلي الصامت.

آنستي، لا يغرَّنَّك ازورارُ الناس عنك، جهلاً أو تجاهلاً، ظلمًا أو كبرياءَ؛ ذلك أنَّ نضارة الربيع تغريهم، وأنَّ زهو الخضرة يسبيهم، فيكشحون وجوهَهم عن الجلال منشغلين بزهرة الجمال، ويرمون المعنى في قعر دهليز الزمان، مبهورين بالشكل والمظهر والفاني من فتات المكان.

التقطتكِ يدي برفق، مخافة كسركِ؛ فأنت الرقيقةُ قلبًا، الخفيفةُ ذنبًا؛ لا، بل لا ذنب يُثقلك ويخلد بكِ إلى الأرض؛ وأنت المرهَفة حسًّا؛ بينما الناس في الجفاء والجفوة مذاهب وفنون؛ وأنتِ -آنستي- شكلكِ شكلُ راحة يدي؛ بذلك التقت اليد، التي هي بعضٌ منّي، باليد التي هي كلُّك؛

---

[1] الأكاديميا، شرفة البوسفور، صبيحة يوم الثلاثاء، ١ نوفمبر ٢٠١١. نشرت في مواقع منها: "فيبكوس"، مجلة "حراء"...

وإن أكُ سخيًّا ومعطاءً ببعضي، فأنتِ جميعك سخاءٌ وسحاءٌ.

نعم، تجاعيد جسمك المخمليّ الزهريّ، عنوان الفناء في الخدمة؛ فربيعًا كنتِ تعملين، والناس حينها يلهون ويلعبون؛ واليومَ، لم تحتكري عرش الشهرة، ولم تبالي بكرسيّ النياشين مثل الكثيرين من بني البشر.. فأنت -آنستي- قد مددتِ يد العون لمن يأتي بعدك، وسافرت إلى عالم الجزاء، هنيَّة البال، طاهرة الفؤاد، مطمئنَّة الباطن.

آهٍ آنستي، لو البشر من معناك يرتشفون، ولحقيقتك يدركون.. إذن لما كانت حروب، ولا قتل، ولا انقلابات، ولا حقد... فكلُّ واحدة من بني جلدتِك آنستي في مكانها اللائق بها، تمامًا، لا ترتفع عنه ولا تنخفض، ولا تقتل الوقت في زحزحة أخواتها أو إخوانها من منازلهم، وكلُّ واحدة موقنة أنَّ رزقها بيد من لا ينسى، ولا يغفل، ولا يضيّع... وأنَّ مصيرها، وحظَّها، موثوق بحبل من الإيمان متين... هي هكذا، موحِّدة بالفطرة، لا تكلُّفًا، ولذلك كان تسبيحها أثيريَّ النفحات، كونيَّ اللفحات... ينشر عبيره عند آخِر نقطة في الكون، ويسمعه الجن والإنس وكلُّ الخلائق، بلا خرخشة، لو أرهفوا أذنهم، ولو غسلوا قلوبهم بماء الورد.

هكذا، آنستي، كوني لنا مدرّسة، نكن لك تلامذة.. وعلِّمينا فنَّ التفكُّر والاعتبار، واحملينا على التسبيح النورانيّ السرمدّي... علِّمينا أن نقول، ونعي ما نقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۞ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾(الزخرف:١٣-١٤).. لا عند امتطاء المراكب فقط، لكن -كذلك- عندما نعتلي صهوة المعنى والفهم، ونعلو ذروة العلم والعمل...

شكرًا، سيدتي... الجميلة الجليلة... شكرًا.

أولى زخات الثلج، تعظني وتبكيني[٢]

في مكتبي، أعالي جبال "شمليشا" عبر نافذتي... من بعيد يغمز لي "البوسفور" بعيون لازردية، ومن فوقه جسر العبور من أوروبا إلى آسيا، يرسم أمل مستقبل للعالم جديدٍ؛ يتزحزح فيه المحور من الغرب إلى الشرق، وفوق الجسر ناسٌ، بل بشرٌ مِن كلِّ جنس ولون، يحملون آمالهم وآلامهم، أحلامهم وأفكارهم، ولا يرى بعضهم من بعض سوى المظاهر والأشكال، أما "السرائر" فتبقى غامضة إلا على من ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(غافر:١٩).

فجأة ودون سابق إنذار، يكسر المشهدَ البعيدَ مشهدٌ قريب، وكم من بعيد أخفى على العبد نعمة القريب؛ إنها زخات ثلج ناعم هفهاف تتنزَّل في صمت من السماء، فتلامس أغصان الشجر، وتدغدغ أنوف البشر، وتحكي قصة "البياض الذي يقهر السواد"، وهي في ذلك لا تفرق بين سعيد وشقي ولا بين فقير وغني... لكن كل واحد من هؤلاء على اختلاف مصدره وموردِه، يستقبلها حسب سعة قلبه ووفق انتشاره وقبضه، فكم من مترف نظر إليها نظرة شزراء بلهاء حانقة، وكم من معدم بسط كفيه إلى السماء والتقط واحدة من "حبات الخير"، فأودعها فاه راضيًا مرضيًّا، حامدًا شاكرًا، سعيدًا منعمًا... «كأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(رواه البخاري).

زخات الثلج تقول: "أخي، أختي... الدنيا هي قلبُك، وقلبُك هو الدنيا،

---

[٢] الأكاديميا، صبيحة الخميس، ٢٩ محرم ١٤٢٣هـ / ٢٤ ديسمبر ٢٠١١م. نشرت في مجلة حراء، العدد: ٣٢ (سبتمبر-أكتوبر ٢٠١٢). وفي مواقع إلكترونية: "فيبكوس"، مجلة "حراء"، "المنارة".

فإن يك واسعًا رحبًا صفق الكون مرحًا ورحابة، وإن يك هذا القلب -وا حسرتاه- ضيقًا حرجًا، عبس الوجود وقطب حاجبيه حسرة وأسفًا... فانظر ماذا ترى، وارسم على لوحة الزمن أي شكل تريد وأي لون تشاء.

بعض الناس ما أشقاهم؛ يضمخون العالم بالأحمر الفاقع، وآخرون يسودونه عنوة ويحاربون البياض بشراسة، وآخرون لا يرون لما حولهم لونًا ولا طعمًا، فهم أحلاف "اللالون" وأحلاس "اللامعنى"، وآخرون.. وآخرون...

أما بعض من عباد الله، فتجدهم يفرشون القفر وردًا وزهرًا، ويعبقون الدنيا عطرًا وعنبرًا، وتأبى شفاههم وصف شيء بالسلب، إذ كل شيء -سوى الشر- في مذهبهم قابل للقبول، وكل أمر سوى الفساد والقبح أهل لأن يلتفت إليه... إنَّ هؤلاء هم رسل السماء وخلائف الأنبياء ورواد الأصفياء... فهم الثلج الذي تتناثر حباته النورانية من السماء... رحمة من رب الثلج ورب السماء.

آه... ما إن انتهيت من خط أولى كلماتي المرتعشة في وصف أولى الزخات المتساقطة، حتى افترشت الأرض بياضًا ناصعًا، وها هي ذي النباتات والحيوانات والحشرات تهلل وتستبشر، فتعلنه حفل زفاف لهذا العام السعيد، تعلنه بالحمد والشكر والاعتراف بالنعمة للمنعم الحميد؛ أما الكثرة من البشر -المستعدون لحفل الكريسماس- فهم غافلون سادرون عن المنعم، عائمون غرقون في محيطات النعم وبحارها ووديانها، ولسان حالهم يردد: هي هكذا جاءت، وهي من هبة الطبيعة المعطاء، أو هي شراكة بين الأب والابن وروح القدس، أو هي الصدفة آثرتنا على العالمين... بل هو التطور، وسلسلة الأسباب المادية، والفهم العلمي...

كل أولئك أنعم علينا هذا الخير العميم... فلِمَ الحاجة إذن للإيمان برب واحد أحد فرد صمد لا نراه ولا نعرفه؟

فتحتُ النافذة والتقطت بيدي اليمنى زخة واحدة لا أكثر، ثم عجَّلتُ في إغلاقها حتى لا أزكم... والتفت إلى الضيفة، وسألتها بصوت هادئ رفيق: مَن ربك، من خالقك، من ذا الذي ألقاك من السماء، ومن الذي اعتنى بك فهبطت من المسافات الشامخة دون أن تتهشم عظامك، ومن أمرك بسقي نبتة، أو دودة، أو طفلة... أو حتى ملحد جاحد كفارا!؟

سكتتْ برهة، وأزاحت النقاب عن وجهها الصبوح، وما درت أنها قتلتني بعينيها الحوراوين الكحلاوين النجلاوين، وبخدها المبلل بدمع سخين، والمجمَّل بخان وحنين، قالت: أهذا سؤال يسأله عاقل؟

قلت: أنا من أبي إبراهيم عليه السلام تعلمت السؤال، ألم يسأل ربه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾(البقرة:٢٦٠)، أفلم يجبه ﷻ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾(البقرة:٢٦٠)، ألم يقل بعد ذلك: ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(البقرة:٢٦٠).

كذلك أنا "ليطمئنّ قلبي"... "ليطمئنّ قلبي"... "ليطمئنّ قلبي".

تنهدت وسبّحت واستغفرت ثم قالت: نعم صدقت، إنه الله ربي وربك ورب كل شيء، فسبحانه وهو القائل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيد ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾(ق:٩-١١).

قلت بأعلى صوتي: "سبحان الله"، ثم التفتت إلى يدي فألفيتها مبللة وقد ذابت الثلجة المعلِّمة، ولكنها تركت كلمة محفورة على راحة يدي، فقرأتها مشفقًا منها، باكيًا:

أخي، لا تقف في ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾(ق:١١)، ولكن واصل واتل قول الحقِّ

مؤمنًا موقنًا: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾(ق:١١).

اللهم نجنا يوم الحشر، ويوم البعث، ويوم الخروج... آمين.

رسالة إلى الريح الصقيع[٣]

ليلاً نزلتَ...

عند اشتداد الظلمة حللتَ...

مع عواء الذئاب سريتَ...

وفي جحور الخفافيش انتشيت...

حملتُ ريشتي لأكتب لك "احتجاجًا"، أو بالأحرى لأخطَّ عنك "مرافعةً"... فتصلَّبت أصابعي بسببك...

أصلاً، كلُّ شيء يتصلَّب في حضرتك...

ألستَ الذي تهجم على الأكواخ والبيوت والقصور، فتملأها حقدًا وحنقًا: تغير قلب الزوج على زوجته، وتنفِّر الابن عن والده؟!

ألستَ الذي تيتِّم الأيتام مرَّتين، وترمِّل الأرامل فتْرَتين... فتزيد على حرمانهما حرمانًا أشدَّ، ولا تبالي؟!

ألستَ مَن حوَّلتَ وطننا "دشرةً"[٤] للمتصيِّدين والعملاء، فأغريت البعض منَّا على البعض الآخر، وسكبت روح الانتقام على القلوب، حتى بات الإخوة يكيدون لإخوتهم... بلا حنوٍّ ولا رحمة؟!

لا تغترَّ، أيها الريح الصقيع، فعُمرك قصير وحُلمك حقير، وظهرك قصيم وغدك جحيم.

مِن هنالك...

---

[٣] الأكاديميا، شامليشا / إسطنبول، صباح الاثنين ١٦ يناير ٢٠١٢.

[٤] الدشرة: دارجة جزائرية، ومعناها "القرية الصغيرة"، أو مجموعة من الأكواخ، لا تبلغ حجم القرية.

من فوق هضبة بلدتي...

من شامخ القمم...

من غَوَر القلب الرحيم...

من جذور الفكر الحكيم...

مِن هنالك... يلُوح لي شعاعٌ من النور، ويلوِّح لي طيف من الجنة، معلنا بأوضح عبارة:

"نعم، أحلكُ وقت للظلام هو في الوقت نفسه بشائرُ أنوار الفجر. والليل يحمل جنين نور النهار، ويحمل بردُ الشتاء وثلجُه جنين الربيع"...

غدًا، ستشرق الشمسُ يا ولدي...

غدًا، سيعمُّ الدفءُ يا بلدي...

غدًا... هو لنا.. هو خالصٌ للقلوب المؤمنة الضارعة، وهو رهنُ إشارة الأفئدة المفعمة بالحبِّ والصدق والصفاء.. إنه مِلك "العقل والمعقولية" بلا منازع.

غدًا... هو حاضنٌ للقرآن، معانقٌ للإيمان، ملازمٌ للبيان.

آه لو تعرفون... آه لو تصبرون... بضعَ ساعات فقط، لا أكثرَ... سيحلُّ الفجر... أجل، سيسُود الفجر... وإن يك فجرًا كاذبًا، فالفجر الصادق يعقبه... لكنَّه لن يجيء أبدًا إذا أنتم استعجلتم وتهالكتم، لن يأتي أبدًا إذا أنتم تقاعستم وتكاسلتهم.

أمَّا إذا تشرنقتم وتمزَّقتم، فسيعود الزمنُ إلى الوراء، وسيسير القهقرى؛ ويقينًا سيطول ليلكم، بل ليلُنا... وليلُ البشرية بقدِّها وقديدها.

يا بطلَ الحقيقة، يا جيل الأمل، يا أحبَّتي... يا شباب العشرة والعشرين حولاً... باختصارٍ، أنتم طيفُ الأمل، مِن مُهجكم سيغدو الليل قصيًّا،

وسيكون النهار دنيًّا.

بكم فقط، لا بغيركم... فلا تبدِّدوا لحظة واحدة في التفاهات والسخافات والحماقات.

صِلوا الثانية بالثانية، والثالثة بالثالثة... في نسج خيوط المستقبل.. بلا توانٍ ولا تلكئٍ.

ثقوا في أنفسكم، فنحن جميعنا ثقة فيكم.

لا تُصغوا لمن سوَّد خاطركم، ولا تكترثوا بمن وضع أمامكم علامة السلب "ناقص"، فلم ير فيكم سوى الخراب والسراب.

لا تبدِّدوا... صِلوا وثِقوا... لا تُصغوا ولا تكترثوا... لكن، ارحموا، ووقِّروا، واحترموا؛ فكلُّ من عاش قبلكم أحبَّكم، حتى الذي سبَّكم -يومًا- إنما فعل ذلك حبًّا لكم، غير أنه لم يدرك ولم يع كيف يعبِّر عن كوامنه... أمِن العقل أن تُردَّ هديته على وجهه، حتى وإن جاءت نتنة منتنة.

أيُّها الريح الصقيع... خطابي لك كلماتٌ وعباراتٌ، وخطاب جيل البطولة سيكون بالعمل وبالحركة وبالإبداع وبالتفاني... سيكون كلامهم فعلاً، وفعلهم فعلاً... ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾(الشعراء:٢٢٧)... بل سيقال لهم رغم أنوفهم: ﴿انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾(الأنعام:١٥٨).

أيها الريح الصقيع! لا تنتظر مني رسالة، ولا احتجاجًا، ولا مرافعة... فقد ولَّى "زمن التنديد"، ولن يعود... بحول الله لن يعود... ذلك أنَّ الفعل غدَا هو الجواب، وشبابنا اليومَ هم فصل الخطاب.

أمَّا أنا، فحسبي أني قرأت -ساجدا - فجر هذا اليوم قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾(المزمل:٩) فجفَّ حلقي،

وهطل كالشلاَّل عرَقي... وقلت: "إذن، اللهُ تعالى، ينتظر مني اللحظة، أن أتخذه، وأقبَله، وأجعله وكيلاً لي؟! لكن، ما بالي تردَّدتُ، وما دهاني فسوَّفت؟!".

وحينها تجمَّلت، وتشجَّعت، فقلت: "يا ربِّ، وكَّلتك... أنت وحدَك وكيلي... أنت سبحانك حسبي... اللهمَّ اهزم بقدرتك الصقيع الذي أطال ليل أمَّتي... وابعث من جيل الأمل خالدًا، وصلاح الدين، والفاتح... آمين... آمين... آمين...".

فاستغرقتُ في البكاء... حتى غرقتُ في محيطات دمعي... أملاً مشرقًا، وفجرًا جديدًا.

حبيبتي، يا زهرة "اللاَّلَه"[٥]"..!"[٦]

أنا لا أعرف حقيقتكِ، ولا أدرك كنهكِ، فلقد كنتِ ولمَّا أكن، وستبقين بعد رحيلي.

في رقَّتك -يا عزيزتي- معاني الفتوَّة، وفي ألوانك دلائل الأخوَّة؛ فيك التحَم الجمال بالخيال، وفي توجُّهك أمارات القرب من خالقكِ، والسؤال.

ومن عجبٍ أنَّ عيد ميلادك هو ذات عيد ميلادي، لكن شتان بين عيد وعيد؛ إذ بينما أنتِ تشبهين العمامة على رأس الأمراء والعلماء، أنا لا أشبه إلاَّ نفسي، ولا أتمرَّغ إلاَّ في ضحضاحي؛ فلا كنتُ من صنف الأمراء، ولا انتظمت بين سلك العلماء.. أنت -يا حبيبتي- أميرةٌ على الأمراء، وأنتِ تفوقين في الشأو كثيرًا من العلماء.

أنت يدٌ مبسوطة نحو السماء، تستمطرين البهاء؛ فتنالين منه الحظَّ الأوفر... وتستسقين الوصال؛ فتحظيْن منه بالمكان الأخطر.

أنتِ كأس شاي منعنع، أو فنجان قهوة رقراقة، تُكرمين جميع الناظرين إليك، المتملِّين بهاءكِ؛ بلا تمييز ولا إقصاء، لا تبغين الأجرة ولا

---

[٥] زهرة التوليب، بالتركية "اللاَّله": نبات من الفصيلة الزنبقية موطنها الأصلي تركيا يطلقون عليها اسم زهرة العمامة؛ لأنها تتكون من عدة طبقات من البتلات الملونة تشبه العمامة التي يلفها الرجال في تركيا حول رؤوسهم. ولقد انتقلت إلى أوروبا منذ ٤٠٠ سنة وانتشرت بها، فوجدت عناية خاصة بزراعتها في هولندا، التي أصبحت رمزًا لها ومصدر دخل كبير. وتركيا تحتفل هذا العام بالعيد العاشر للتوليب.

[٦] إسطنبول، يوم ١٨ أبريل ٢٠١٢. نشرت في موقع مجلة حراء، وفي مواقع إلكترونية عديدة.

الأجر، إلاَّ ممن يعطي ويجزل العطاء.

أنت جرس مقلوب، توقظين فينا القلوب؛ فتغدو ذواتُنا ضارعة هفهافة رفرافة.. كلُّ جرس دونكِ هو مجرَّد نسخةٍ طبق الأصل، وهو مجافٍ في حقيقته لمقاصد الوصل.

يا زهرة التوليب، يا حمراء، يا صفراء، يا بيضاء، يا زاهية الألوان... علِّمينا أن نكون؛ وإذا كنَّا، علِّمينا أن نحسن كيف نكون؛ وإذا أحسننا، علِّمينا كيف بعد أمدٍ أن لا نخون.

علِّمينا -كما أنتِ- أن تكون لنا حياتان: حياةٌ لما فوق الأرض، وحياةٌ لما تحت الأرض..[٧] حياةٌ للآني والزماني والحضاريّ وللعنفوان، وحياةٌ للماورائي والإيماني والربّاني[٨]، أي للرضوان.. لكن -يا حبيبتي- علِّمينا كيف لا نفصم بين هذا وذاك، وكيف نجمع بين هذه وتلك... في سلاسة وانسياب... بلا جدل ولا ارتياب.

فأنت أنتِ، دومًا محمَّلة بالصدق والصفاء والوفاء، للخالق المبدع الملهم، بلا جفاء... أمَّا نحن، ففينا ومنَّا؛ وكلُّ واحدٍ منَّا، له وعليه؛ ساعةً وساعة؛ فساعةً نسْمو وأخرى نخبو، وساعة نقترب وساعة نضطرب... لا نعرف الاستقرار على حال، ولا نصبر على الحادثات وعسر المآل.

يا زهرةً مِعطاء، ويا ربيبة الكُرماء؛ يا من أدمتِ السجود والقعود والقيام؛ بك الدنيا تشبَّهت، ومثلُك الأعمار قصُرت.. فيك نتلو قول الجليل لنبيّه

---

[٧] لزهرة التوليب حياتان : حياة فوق الأرض، تنتهي بالأزهار ذات الألوان الجميلة الحمراء والصفراء والوردية. وحياة أُخرى تنتهي بتكوين الأبصال الجديدة، تحت الأرض. وهولندا تصدِّر منها سنويًّا بليوني بصلة.

[٨] "لاله" (Lâle) أو التوليب هي رمز الحب الإلهي، لأنَّ حروفها هي نفس حروف اسم الجلالة "الله".

الفضيل: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:١٣١).

فما عابكِ الله سبحانه، ولا شانك؛ لكنه -تعالى شأنه- جعلكِ أمارة لنا، فأدَّيتِ ما عليكِ خير الأداء؛ إذ كلَّما جفَت قلوبُنا، وطغت ذواتُنا، وطفت أنانيتُنا.. وكلَّما أمَّلْنا في الدنيا، واطمأننا إلى الفانيات، وظننا أنَّا سنخلد أبدًا.. كلَّما ظلمنا وتجبَّرنا، وغفلنا ونسينا، وجحدنا وكفرنا.. كلَّما كان منا ذلك، أو بعضٌ من ذلك؛ وقفتِ لنا بالمرصاد، في لطفٍ تذكِّرين وتهدِّدين:

"يا هذا، انظر إليَّ، وتملَّ جمالي؛ فهل تدَّعي أنك بلغته، وهل تقدر أن تنافسني فيه.

ثم انظر إلى قصَر عمري، وإلى هرولة أيامي وِجهة الامِّحاء... تذكَّرْ واعتبر، واعمل وجاهد، ثم اصبر وثابر.. وبهذا أكون لك دليلاً، لتكون أنتَ أوَّاها منيبًا، فتتخذني لأجْل ذلك خليلا... تبدأُ معي ساعات عمرك، لتختم بجواري ثمالة أنفاسك.

وهنالك، في الجِنان، سنلتقي، بإذن الله سنلتقي.. حينها، سترى أني خالدة بجمالي وبهائي؛ رشيقةَ القدِّ، حوراء نجلاء... حينها، ستعلم علم اليقين، أنك خالد بقرْبك من الواهب الكريم، ذي الجلال الحليم... فكِلانا يومها، في المقام والحسن سواء، يا جميل".

ألا ما أروعكِ يا زهرة "اللاله".. ليت القلوب القحطة تدركُ وتستدركُ؛ فتناجيك كلَّ فجر، وتناغيك كلَّ غروب... مثلي تماما؛ فهل أنتِ تسمعين، وهل أنتِ تدركين؟!

سلامًا، يا حبيبتي... إلى يوم الدين!

في طريق الهجرة[٩]

في طريق الهجرة يولد الرشد، وتُدفَن السفاهة، فينشُر الإسلام عبيره... في طريق الهجرة يلين القلب، ويسمو العقل، فتنشط الجوارح من عقالها...

شاء الله تعالى أن أتلو في طريق الهجرة سورتي الرعد وإبراهيم، وأن أتوقَّف طويلاً عند دعاء أبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(إبراهيم:٣٧).

كلُّ حاجٍّ وكلُّ مُعتمر إلى يوم القيامة، هو مِن ذرية إبراهيم عليه السلام، وهو في وادٍ غيرِ ذي زرع... إذن هو في حاجةٍ إلى مسبِّب الأسباب، وفي احتياج إلى الصلاة والضراعة لربِّ الأرباب..

الجميعُ ثمرة ونفحة من دعاء إبراهيم عليه السلام، والكلُّ استجابة لندائه وأذانه... فنحن اليوم بإذن الله تعالى كذلكَ، ونرجو أن ننال أجر ذلك.

أرسلتُ خاطري يستبق الخطوَ، ويلاحق الزمن، ويزوِّدني بالأخبار من سالف الأزمان... وبخاصَّة يومَ خطت الرِّجلُ الكريمة للنّبي الكريم محمَّد ﷺ هذه المسافات: أمامَه أمَل ورجاء لا حدَّ لهما، ووراءه مشركون متنطِّعون يلاحقونه بسيوفهم وأحقادهم، علَّهم يظفرون به ويطفئون نوره إلى أبد الآبدين... ساعتها نزلَ مما نزل: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

[٩] طريق الهجرة، بين مكة المكرمة والمدينة المنوَّرة، عمرة شعبان ١٤٣١هـ.

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٤٠). فنجا الصاحبان، وظهرت كلمة الدين، ثم نجت على إثرهما البشريةُ قاطبةً إلى يوم الدين.

وبعد بضعٍ من السنين، عاد ﷺ إلى مسقط الرأس، وآب ﷺ إلى مثابةِ الناس مكَّة المكرَّمة، لكنَّ حماقات الكفَّار ورعوناتهم منعتْه الوصول، ووقفت حاجزًا جلفًا في طريقه، فكان صُلح الحديبية وهو يومٌ للمسلمين مشهود، وفتحٌ للنبي ومن معه من المؤمنين معهود، يكفيه فخرًا أنْ نزل فيه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾(الفتح:١).

ثم جاء يوم الفتح المبين؛ فتحِ مكَّة وانتشار نور الإسلام في الآفاق جميعها.. يومها هلَّلت الملائكة واستبشر الثقلان، وفرحت السماوات والأرضون.. وها نحن اليوم نتفيأ ظلال هذا الخير العميم إلى يوم النشور، ونشهد ارتفاع راية الإسلام واضمحلال ملَّة الأصنام: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾(النصر:١).

ثم بعد حجَّة الوداع، عاد ﷺ من هذه الطريق؛ طريقِ الهجرة... ولكنَّه عاد هذه المرَّة لِيَلقى الحبيبَ... يلقاهُ بقلبٍ موقِن في رحمته، ملتاع لجواره وحسنِ مقامه، وكان المقصد أن يفصل الحكيم العليم بين "الربِّ الذي يُعبد" و"الرسولِ البشر الذي هو عبد لا يُعبد"، وأن يصدق فيه ﷺ: "من كان يعبد محمَّدًا، فإنَّ محمَّدًا قد مات؛ ومن كان يعبد الله، فإنَّ الله حي لا يموت".

ويموت المصطفى، ويولد على إثره الملايير من البشر من كلِّ جنس ولغة ولون... كلُّهم أهلاً وسهلاً في ضيافة الرسول الكريم ﷺ.. لا يَردُّ ﷺ أحدًا ولا يغضُّ الطرف عن أحدٍ... كلُّهم من أمَّته وكلُّهم محلُّ عنايته وهو

يدعو: "يا ربِّ أمَّتي أمَّتي!".

لا تقصرُ شفاعته وخيره ﷺ على مذهب دون مذهب، ولا على جنس دون جنس... وها اليومَ الهنودُ والصّينيون، والترك والعرب، والسود والبيض... وجميع العالَمين بلا اسثناء... ها هم واقفون وراء إمامهم وأسوتهم وشفيعهم، قد يخطئون التقدير والعمل، ولكنهم لا يخطئون داعي الحبِّ والشوق والأمل، إلاَّ قليلاً.

في طريق الهجرة يحلو الدعاء، ويجمل النداء، ويعلو صوت الأرض نحو السماء.

في طريق الهجرة نبتهل... ونُعيد:

"اللهم اجعل كلَّ وادٍ، وكلَّ سهل، وكلَّ جبل، وكلَّ حجر، وكلَّ شجر، وكلَّ دابة، وكلَّ أفق، وكلَّ نسمة، وكلَّ شعاع، وكلَّ ذرَّة... مما نعلَم ومما لا نعلم... كلَّ شيء شهِد هجرة المصطفى ﷺ، وحنَّ له، وسبَّح على إثره وهلَّل... كلَّ شيء مما لحقه هذا الخير وهذا الأثر إلى يوم الدين...

اللهم اجعل كلَّ شيء من هذا أو ذاك سببًا لمرضاتك عنا، ورضاك عن أمَّتنا، واجعلني اللهم شريكًا لكل ذلك في ذكره، وفي تسبيحه، وفي تهليله، وفي تحميده، وفي تكبيره... إنك تعلم ولا أعلم، أنت علاَّم الغيوب... اللهم أسألك بحقِّ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(الإسراء:٤٤) أن تجيب دعائي ولا تردَّني خائبًا.

اللهم، باسمِ مَقام ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾(القصص:٦٨)، أدعوك يا ربِّ، أن تحشرني مع مَن اخترتَ ومع من اصطفيتَ.. فأنا عبدٌ من عبادك الذين خلقتَ، وللإسلام هديت..

اللهم إنَّ من حُرم الاختيار شقا في غياهب الاحتيار، ومن وُهب

الاختيار نجا مِن فتنة الاختبار.

اللهم، هذه مرتبةُ الصمت والسكوت، ومرحلة زوال الأحرف عن الألسن والأفكار والأذهان، لتتركَ المجال والساحة خالصةً للذكر الجبريِّ الدائم...

اللهمَّ اقرِن بين ذكري الجبريِّ وذكري الاختياري، واجعل ذكري دائمًا دوام النور والهواء والماء، واجعله متّصلاً اتصال الأحوال والأزمان والأمكان، ولا تكتب لي يا رحيم ثانيةً واحدة، ولا قدرَ مِفحص قطاة... بلا ذكر ولا فكر، ولا علم ولا عمل... يا أحكم الحاكمين."

في طريق الهجرة يحلو النداء الأزلي:

"لبَّيك اللهمَّ لبيك... لبيك لا شريك لك لبيك... إنَّ الحمد، والنعمة، لك والملك... لا شريك لك...".

ردِّد معي أخي، وردِّدي أختي، بصوت عال هذا النداء، وادعُ الله أن يرزقك حَجَّات وعُمرات، ورضا وقبولاً، ومقامًا محمودًا... إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

ويعود العيد[١٠]

ويعود العيد، ليلقي بظلاله على العالَم أجمع، مسْلمِه وكافرِه، مؤمنِه وفاجرِه، إنسيِّه وجنيِّه... ولينشر شذاه وعبيره عبر الأثير، فيحتفي مَن اهتدى، ويحار مَن أعرض عن طريق الهدى.

ويعود العيد، وقد سقطت عروشٌ ودُكَّت جيوش، وعزَّ قوم وذلَّ آخرون، وفقرت عوالم وفُتنت أخرى، ومات بعضٌ منَّا وأهلَّت عيونُ بعضٍ... الشمسُ لا تزال هي ذات الشمس، والقمر هو نفس القمر؛ ولا شيء تغيّر إلاَّ عند بني البشر.

ويعود العيد، ومِن الناس مَن آمن وعمِل صالحًا، ورضيَ بما قدَّر الله له واجتهد فيما قدَر، وأخلص النيَّة لوجهه الكريم وصبر، وجدَّ في المسير وما ضجَر... ومنهم -والأسف ملءُ الجوانح- مَن أعرض واستكبر، وجاهر بالمعصية فلم يستحي مِن خالق ولا مخلوق، ولم تنفعه العبر، ولم يثنه عن غيِّه مرض ولا موت ولا فتن.

ويعود العيد، لنقول للجميع: "عيدكم مبارك، وكلُّ عام وأنتم والأمَّة الإسلامية، والبشريةُ جمعاء، بخير"؛ ذلك أنَّ العيد يدفعنا إلى قصد الخير وفعلِه، ويرفعنا بالروح الإيجابية وإحسان الظنِّ بأهله، ويعلّمنا أن نكره الكره، ونبغض البغضاء، ونفتح خندقا بيننا وبين الشحناء والرعناء.

ويعود العيد، لينحني الولدُ أمام أمِّه يرسمُ قُبلة على جبينها البلَّوري، ويُلقي التحية على والده يقبّل كلتا يديه الماسِّيتين، ويأوي الزوجُ إلى سِربه

[١٠] عيد الأضحى المبارك، إسطنبول، ١٤٣٢هـ / ٦ نوفمبر ٢٠١١م.

بعد طول غياب، ويسافر الحبيب إلى حبيبه بأغلى التضحيات والأثمان... إنه عنوان الألفة بين القلوب، ودليل الرحمة المهداة من ربِّ القلوب.

ويعود العيد، ثم يُطوَى مِن الأفق كلُّ شيء، في أقربَ من لمح البصر: التعبُ والإنفاق، اللباسُ واللحم، السرورُ والتواصل، الابتسامةُ والكلمة، البشر والأضاحي... كلُّ شيء يختفي، فلا يبقى سوى "الأجرُ"، و"المثوبةُ"، و"القبولُ" عند الكريم المنَّان القائل: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾(الحج:٣٧)، والقائل بيانا لهذا: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾(الكهف:٤٦).

ويعود العيد، وما لنا وللمتنبي، فحال عيدِنا هنا كحاله هنالك، والعيد عيدٌ في مكَّة أو في دار السلام، في "مالْبُورن" أو في "سانْدياغو"، في الجزائر أو في مدينة الإسلام... إذِ التكبير تكبيرٌ، والمساجد مساجد، والمآذن مآذن، والصلوات صلوات، والحبور حبور... كلُّ ذلك عند الله سواء، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٢٧).

نعَمْ، بميزان الأرض تختلف العوالم والمعايير والاعتبارات، لكن بميزان السماء لا فرق ولا فضل، إلاَّ بمقدار القَبول والرضا؛ فالمتَّقي هنا مَرْضِيٌّ، والفاجر مطرود؛ وهنالك لا يشفع شافعٌ لعاصٍ، ولا يجحف مجحف حقَّ مُطيع... فهل نحن واعون، معتبِرون، عالمون، عاملون؟!.

ويعود العيد، وقد عاد... وسيعود... وشريط البشر يمرُّ كطابور طويلٍ، يشرع فيه المولود وهو الأخير في الصفِّ، ثم -بعد أمدٍ- يختفي إذا جاء أجلُه وحلَّ يومُه، بموت عاجل أو آجل... كيفما كان السبب، وأينما كان المكان، وحيثما حلَّ الزمان.

طابور طويل.. طويل... طويل... غير أنَّ بعضًا من الناس، سيكونون

يومها سُعداء بالقرب من الخلاَّق ومِن رحمته؛ فلا يشعرون إلاَّ وقد غُمروا بريحان الجنان، وهم يتمرَّغون في سفوحها، يطعَمون أشهى ثمراتِها، ويسمُرون مع أطيب خِلاَّنها.

أمَّا الآخرون.... آهٍ من الآخِرين... فحالهم أبلغ من كلماتي، ومآلهم أسوأ من أن تدرِكه أوصافي...

ويعود العيد، ونحن -فرادى، ومِن معهدنا، ومن أكاديميتنا، ومن أوطاننا، ومن عالمنا- نحيِّي كلَّ أخ، وصديق، ورفيق، وعالم، وعامل، ومخلِص، وصادِق، ومجتهد، ومجاهد، وصابر، ومثابر... في أيِّ مصر كان من العالم، وفي أيِّ عصر وجِد في الوجود... ونقول للجميع: "جمعَنا الله في رحمته، وأظلَّنا بظله... بعد أن يُرينا نصرًا ونصرة للمؤمنين، وفجرًا وميلادًا جديدًا للمتَّقين، ويومًا ومصيرًا حقيقًا لديننا الحبيب الإسلام"...

ويومَها نقول جميعًا، ونردِّد:

عيدكم مبارك... مبارك... مبارك.

ابتسامة الملائكة... همسة في أذن أختي المضيفة[11]

على متن طائرة، عائدًا من إسطنبول، وقد انتهت ورشة العمل الدولية، التي عقدناها تحت مظلة مجلة "حراء"، كتبت هذه الخاطرةَ على الورق، ولم أشأ أن أخرِج جهاز الكمبيوتر المحمول، الذي نافس هذه المرَّة دفتري الورقي في خطِّ مذكِّرات الرحلة؛ وكانت العصارة ما يلي:

مِن عجبٍ أنَّ مقعدي كان رقم "j23" . أثناء وقت الإقلاع، كان أمامي مباشرة مقعدُ المضيفةِ، تجلس عليه كما هو المعمول به دائمًا؛ أمَّا أنا فكان المصحف على يديَّ، أتلو منه سورة الأنبياء، أتفكرَّ في معانيها، وأتدبَّر في أعماقها، وأحمي بذات المصحف عينيَّ مما حرَّم الله؛ وقد دمعتْ تلكم العينان، إذ رأيتُ فيما يرى الرائي، وتخيَّلت فيما يتخيَّل الحالِم، ملائكةً تبتسم مما أنا عليه الآن:

فمِن جهة تجلس امرأةٌ سافرةٌ، ساقاها مكشوفتان، ومِن جهة يجلس عبدٌ لله يتلو كتابَ الله، لا يدري هل تقبَّل الله منه أم لم يتقبَّل! وهذا المسكينُ لم يجد سبيلاً لغضِّ البصر، ولا وسيلة لملازمة الصبر، إلاَّ في القرآن الكريم معنًى وقلبًا وإيمانًا، وفي المصحف الشريف شكلاً وحسًّا وسببًا.

ولقد -والله- تذكَّرت مَوقفًا عجيبًا، لنبي الله عظيم هو سليمان عليه السلام، يوم جاءته بلقيس ملكة سبأ، فقيل لها في حضرته: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾(النمل:٤٤)؛ وتبسَّم ضاحكًا من

[11] على متن طائرة من الخطوط الجوية التركية، صائفة ٢٠١١.

فعلها، وقال: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾(النمل:٤٤)، وكان ذلك بفضل الله، سببًا لإدراكها ضَعْفها، ولاعترافها بجهلها.. ولما كانت المرأة الكريمة يقظةَ القلب، ذكيةَ الفكر، قالت على إثر ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(النمل:٤٤).

وكنتُ أقول في نفسي وما أنا بسليمان، وما هي ببلقيس، الأحشاء مني تتفطَّر من قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾(الأنبياء:١)، ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾(الأنبياء:٣)، كنت أقول: "مَن يدري، لعلَّ تلاوتي لكتاب الله تحرّك بعضًا من كوامن الخيرات في قلب هذه المضيفة، ويكون لها أثرًا وأيَّ أثر، فينفعها الله بها، وأنال بذلك أجرًا مضاعَفًا، وما ذلك على الله بعزيز".

المهمُّ أنني لا أملك هذه اللحظة إلا أمرين اثنين لا ثالث لهما: الإشفاق عليها، والدعاء لها.

أمَّا الإشفاق؛ فلأنَّها صارت -بفِعل المدنيَّة المغلوطة- شيئًا من الأشياء، وصار جسدُها بضاعةً في سوق البضائع؛ ولذا فهي لا تملك أن تعمل مضيفة في وكالة للطيران، وتمتنعَ من عرض مفاتنها... ألا ما أقسى "المادية الحلولية الواحدية الصارمة"؛ إنَّ هذه اليتيمةَ ضحيةٌ من ضحاياها.

وأمَّا الدعاء لها لا عليها؛ فلأنَّ القلوب بيد مقلِّب القلوب، الرحيمِ بعباده، الغيورِ على خلقه وعبيده وإمائه؛ وقلبُ هذه السيدة بين إصبعين من أصابعه سبحانه، فهو القادر على أن يبعث لها سببا تؤوب به إلى باريها، وتتحصَّن به في بيتها، أو معملها، أو متجرها، أو مكتبها... عاملةً، نعَمْ، لكن محصَّنة طاهرة عفيفة.

لكن، هنيهة، لماذا أنتَ تحار من هذه، ولا تغار من العشرات من بنات

وطنك المسلمِ أصلا، ممن مُسخن كليَّة، وارتضين العُريَ مذهبًا، فبِعنَ بعضا من قيمهنَّ ومبادئهنَّ بل وعاداتهنَّ بأبخس الأثمان، وصِرن بذلك معذَّبات معذِّبات. ولمثل هؤلاء النسوة، كذلك، أكنُّ الكثير من الشفقة والرحمة، وألهج للحكيم الجليل، أن يهديَهنَّ سواء السبيل.

مهلاً، مِن المفارقات أنَّ إحداهنَّ، وهي سافرةٌ، تحمِل بين يديها كتاب "حصن المسلم من الذكر والدعاء"، وتقرأ منه، فهي بذلك داعية معي، لعلَّ الله ينظر إلى قلبها، ويغفر لها ولي، ويغفر لجميع المذنبين والمستغفرين على متن الطائرة.

ولقد -واللهِ- حمدتُ الله على نعمة الصبر، وشكرتُه على نعمة إجهاد النفس في غضِّ البصر، ولعلَّ المناسبة بين "الصبر" و"البصر" -في تقديم حرْفٍ وتأخير آخرَ- هي أنَّ مِن أشدِّ أنواع الصبر وعورةً، ومِن أكثرها ثقلا على العبد، الصبرُ عن إطلاق البصر، والصبر في غضِّ البصر، ومَن يدري؟!

وحمدتُ الله، -ثانية- لعَفاف وحجاب وحشمة زوجاتنا، فهنَّ بذلك قد وقفن طودًا شامخا أمامَ محاولات المسخ، وتحدَّيْن كلَّ الداعين إلى ابتذال المرأة، وإلى فتح الأبواب والنوافذ على مصارعها، حتى يتنفس النساءُ روح العصر.

إن هؤلاء، لا يعُونَ أنَّ ذلك أحرى به أن يكون "عصرًا للروح" لا "روحًا للعصر"، وأولى به أن يسمَّى "اغتيالاً للضمير"، و"تبليدًا للوجدان"، و"زرعا للقلق"، و"حصادا للشقاء والفتن"... إنَّ هذا الانفتاح المزعومَ إشارةٌ للوقوع في الهاوية، ودليلٌ على فسادٍ في الأرض كبير، لا يعلم مداه إلا الله.

أختي السافرة، شفقةً ورحمةً، دعاءً وتضرُّعًا، أرجوكِ أن تتفكري،

وتتذكري، وتُعملي عقلكِ وقلبكِ وضميركِ، وتنظري فيما حولك، وفيمن حولك، عيونًا للذئاب ناهشةً مِن عرضك، ورؤوسًا للأفاعي راميةً لدْغكِ..

أختي الكريمة، لا شكَّ أنَّ فيكِ الخيرُ الكثير، وعلى إثرك بِرٌّ كثير، تُوبي إلى الله، وثقي أنَّ رحمتَه واسعة، ومغفرته قريبة.

أختي المتحجِّبة، لا تعتقدي -بما أنت فيه- أنَّك في مأمنٍ، فلا تزال الشياطين تتربَّص بك الدوائرَ، ولا يزال مَن في قلبه مرضٌ يستدرجك بكلِّ الوسائل، ويعمل على مسخك بما أوتي من قوَّة الإعلام، والقانون، والتخطيط، والسياسة، والمال... فكوني لهم صخرةً ترتطم عليها إرادتهم وبرامجهم، فتتفتَّت شذر مذر.. وكوني -أختي- لزوجِك حِصنا منيعا؛ فأنت -بما أنت عليه- حجابٌ عن الغريب، وحجابٌ للحبيب؛ وأنت بذلك تجاهِدين الجهادَ الأكبر، بل تقودين بجدارةٍ إحدى أعتى حروب العصر.

أختي، أخي، سويا لنقرأ قوله تعالى، مِن ذات سورة الأنبياء، على لسان نبي الله ذي النون: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء:٨٧)؛ ولا ريب أنَّ تمام الآية، لو صدَقْنا وأخلصْنا، سيكون جزاءً لنا وهدية: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنبياء:٨٨).

ولعلِّي لن أخطئ التقدير إذا اخترت لكِ -أختي العزيزة- قصيدة من روائع الشعر لأحد أبلغ الشعراء -هو غازي القصيبي- عنوانها: "حواء العظيمة"، كتبها قبل ثلاثين عامًا، وقال فيها، لا فضَّ فوه:

أنت السعادة والكآبه،

والوجدُ حبك والصبابه..

أنت الحياة تفيض بالخصب
المعطَّر كالسحابه..
منكِ الوجود يعُبُّ
فرحتَه ويستدني شبابه..
وعلى عيونك تنثر
الأحلام أنجمها المذابه..
وعلى شفاهك يكشف الفجر
الجميل لنا نقابه..
* * *
ضلَّ الأُلى حسَبوكِ
جسمًا لا يملُّون اغتصابه..
وضجيعةً مسلوبةَ الإحساس
طيّعة الإجابه..
وذبيحة نُحرِت ليأتي
الذئب منها ما استطابه..
وبضاعةً في السوق باعتها
العصابة للعصابة..
تبقَيْن أنت فقهقهي
مما يدور ببال غابه..
تبقين أنتِ ويذهبون إذا
الصباح جلا ضبابه..
تبقين أنت ويذهبون

ذبابةً تتلو ذبابه...

جميلٌ أن تحفظي أختي الكريمة هذه الأبيات، بعد حفظ تلكم الآيات؛ لاهجةً للعليّ القدير أن يغفر الله لي، ولكِ، ولنا، ولهم، ولهنَّ.. جميعًا... إنَّه هو الغفور الرحيم.

إلى التي...[١٢]

- إلى التي أذابت عصارة عمرها في تربيتي، لأحيَى سعيدًا مكرَّمًا.
- إلى التي مِن قبس النبوة استقت، فكان حالها يردد دومًا: ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾(الأنعام:٩٠).
- إلى التي في يقينٍ وثباتٍ، أعلنت شعارها الخالد: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾(يونس:٧٢).
- إلى امرأةٍ أعطت كلَّ ما عندها، لا ليقول الناسُ، لكن ليرضى عنها مالك الناس.
- إلى امرأةٍ دأب الناس على نسيانها والتنكُّر لفضلها، كأنها خلقت للظل، إلى يوم يُظلُّها الله بظلِّه الأبدي.
- إلى امرأةٍ بخس الناس كلَّ أشياءها، وبجرَّة قلَم لطَّخوا مُحياها -ظلمًا وجورًا- بعبارة: "بلا عمل"[١٣].
- إلى أمَةٍ لله، لم تأبه لهذه السخافات، فراحت تناضل وتجاهد وتهاجر... رغم كلِّ العقبات.
- إلى أمَةٍ لله، لم أقدّرها حقَّ قدرها، حتى غادرَت المكان، وتركتني يتيمًا رغم كبر سني.
- إلى أمَةٍ لله، ودَّعتني إلى الأبد، ولمَّا يكتمل المشوار، فخلَّفت بين أحشائي فلذات زغب، يصرخون بصوت أجشَّ حان: أمي، أمي...
- إليك أمِّي.. يا أعذب لفظ عرفته، بعد ذكر ربي، والصلاة على نبيئي.

---

[١٢] الجزائر، شهر رمضان المبارك ١٤٣٠هـ.

[١٣] يكتب في الوثائق الرسمية عموما في وصف مهنة المرأة ربة البيت عبارة: "بلا عمل"!

- إليك زوجي.. يا أعظم إنسان، رغم كيد الأعادي، وشحِّ الأيادي...
- إليك أختي.. إليك بنيتي.. كيفما كان اسمك، عائشة، نانة، باية، لالة، نصيرة، سليمة، فتيحة أو حليمة... لا يهم. المهمُّ أنك ممن يصدق فيه وصف الجليل في النساء الطاهرات: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾(التَّحْرِيم:٥).

مهما كان اسمك، أمي، زوجي، أختي، ابنتي... فإنَّ سيدي وحبيبي وقرَّة عيني محمدًا ﷺ، قد أوصاني بك: فقال: «استوصوا بالنساء خيرًا» (رواه البخاري).

إليكِ يا من تسمعينني أو تقرئين ما أكتب..

أهدي -بالنيابة عن ابنك، وزوجك، وأخيك، وأبيك- هديةً، وتحيةَ وفاء وإجلال..

أهدي إليك دعاء صادقًا من القلب:

"اللهم احفظ نساءنا، وأبعد عنهن قالة السوء، وارض عنهنَّ، وارزقهنَّ الجنة بجوار مريم وخديجة وفاطمة... وبجوار سيد الخلق محمد ﷺ... رضي الله عنهم أجمعين... آمين".

إليكم جميعًا، رجالاً ونساء -ولا غرو فالنساء شقائق الرجال- أتبرَّع بهذه الكلمات، في هذه النفحة الرمضانية، سائلاً من المولى القبول.

بخٍ بخٍ، هي ذي ريح الجنة تلوح في الأفق![14]

طرقتُ بابه، ففتح لي بلا تردُّد.

ولجتُ رحابه، فاستقبلني بوجه طلق، وكلام طيب، وروح فياض.

قال لي: مرحبًا بك مرَّة أخرى، ها قد عدتَ لزيارتي. لكن، أين صديقك فلان، وجارك فلان، وتِربك فلان؟!. لا أراهم..

قلت: كلُّهم قد لقي حتفه، ووافته المنية، وعادوا خبرًا بعد أثر، وذِكرًا بعد عيان.

قال: رحمهم الله جميعًا، وهداك وهدى العقلاء الأحياء أمثالك أن يتيقنوا أنهم ليسوا للقاعدة ولا لسنن الكون استثناءً.

قلت: آمين.

قال، وهو يصوِّب عينيه إلى عينيَّ: ضيفي العزيز، لكَ أن تصول وتجول بين جنبات قصري، كما تشاء؛ ومن واجبك أن تزوره غرفة غرفة، فتنعَم بالخيرات، وتطعم الثمرات، وتتنشق الزهرات، وتنال النفحات... بلا قيد ولا شرط.

قلت: ما هذا الكرم؟! لم يسبق لي يوما أن دخلتُ بيتَ أحد، ففتح لي جميع أركان بيته، وألزمَني بالتمتع بجميع الموجودات فيه. بل، أنا -كذلك- لم أفعل ذلك يومًا، مع أيِّ ضيف من ضيوفي.

قال، مبتسمًا والنور يرشح من محيَّاه: هذا طبعي، وهذه صفتي، وهذه خلقتي، ولهذا سُخِّرتُ؛ فأنا الكريم، أفرح وأسر، وأجذل وأبهج، لجميع

---

[14] الجزائر، ١ أغسطس ٢٠١١م.

من يزورني، ولا أسأل عن شأنه وشأوه، ولا عن غناه وفقره، ولا عن صحَّته ومرضه، ولا عن عزِّه بين قومه أو ذلِّه... فكلٌّ من لاذ بحصني كان فيه أهلاً وسهلاً، واستوى مع غيره من الضيوف في الحقوق والواجبات والمكرُمات.

قلت: وهذه عجيبة أخرى! فمِن عادتنا، نحن البشر، أن نفرِّق بين ضيوفنا، فليس الرئيس والوزير والغني وصاحب الفضل، كالعاميِّ والبسيط والفقير ومَن لا فضل له علينا!.

قال: حكمكم خلاف حكمي، فاعتبروا.

قلت: وماذا عمَّن يعمد إلى إفساد جمالك، فيجرح زخارف بيتك، ويكسر الزجاج، ويلقي بالقمامات على الفرش الأنيقة والسجاد الوثير؟

قال: حتى هؤلاء أستقبلهم وأحتضنهم، على أملٍ أن يتوبوا ويؤوبوا إلى رشدهم، فإن لم يكن ذلك عند أوَّل غرفة مِن غرفي، فعند آخرها، وإن لم يكن عند هذه الزيارة، ففي التي تليها إذا عادوا... ومن يدري؟

قلت: وما بال من يمرُّون أمام بابك، فيديرون ظهورهم، وهم يسمعون خدَمَك، مبثوثين في الشوارع، ينادون الناس إلى قصرك؛ ثم هُم يجعلون أصابعهم في آذانهم، كي لا يسمعوا صوت المُضيف والخدم؛ ثم هم بعد ذلك، يدفعون أموالاً طائلة في كراء بيوت من القصدير، وينفقون ما لديهم للسكن في خيم وسخة مهترئة، كل ما فيها تمجُّه القلوب والعيون والأسماع والأبصار؟

قال: هؤلاء -من كرمي- أَبكيهم؛ وأدعو الله -إذ هم لم يشاءوا سماع صوتي- أن يرشدهم؛ حتى يميِّزوا بين الخير والشر، بين السعادة والشقاء، بين الدنيا والعقبى.

قلت: وماذا عني أنا؟ هل يا ترى أحسنتُ آداب الضيافة في الزيارات الخوالي؟ وهل كنت عند حسن ظنّك بي؟

قال: ليس تقدير ذلك بيدي... إنه بيدك أنت، وهو قبل ذلك في دهاليز قلبك وضميرك وعقلك؛ أنت وحدَك تعرف ذلك، ولا أحد سواك... ومِن حكمةٍ أنَّ الله تعالى، العليم بخفايا النفوس، أَوْكل إليك ملائكةً كرامًا كاتبين، يسجّلون ما يفور داخلك، وما يثور على جوارحك، صفتهم الأولى أنهم ثقات أُمناءُ كرام.

قلت مهللاً: فهمتُ؛ وبم تنصحني إذن؟

قال:

- اصدُق نفسك ولا تكذبها.. هذه واحدة.
- جاهد نفسك، وصابر واصطبر.. وهذه الثانية.
- واعمل على أن تكون زيارتك هذه أفضل من التي خلتْ.. وهذه الثالثة.
- أمَّا الرابعة؛ فهي أن لا تنسى أنك مهما هنئتَ بين جنباتي، ستخرج يومًا ما مِن قصري، وأنك قد لا تعود أبد الأمد، فذلك أجلُك، وأنَّ هنالك قصرًا لو قِسْت كرَمي إلى كرمه، لكان بمثابة الصفر إلى اللانهاية، وبمثابة اللاشيء إلى كلِّ شيء؛ إنه رحاب الله، ورضاه، وجنَّته... فهذا القصر لو حظيت به -ويا سعد من تكحَّلت عينه به- فلن تخرج منه أبدًا، وهذه هي المنعة العظمى.. وإن حُرمته -لا قدَّر الله- فلن تجد ريحه أبدا، وهذه هي المحنة الكبرى.

قلت: إذن، سأنظر بشوق تلك الساعة، وأنتظر بأمل ذاك الحظ العظيم.

قال: -والصرامة تجلل جبينه- مهلاً، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾(فصلت:٣٥) ابتداء، ثم ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت:٣٥) تباعًا.. ولذا أنصحك أن لا تنتظر، بل اعمل وجاهد واجتهد، فهذا السبيل الوحيد إلى ذلكم المقام المحمود.. ألم يقل العزيز الجليل لنبيّه الكريم ﷺ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾(الإسراء:٧٩)؟!

قلت: نعم، هي هكذا في كتابنا الكريم.

قال: لكن، لا تفصِلوا الآية عن سياقها، وإنما هذه نتيجة لأمر هو: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً﴾(الإسراء:٧٩)، هذا عنوان الطاعة، ودليل العبادة، وصورة العمل، ومنهج الصدق؛ هي قاعدة ذهبية واحدة: "رحمة الله واسعة، ووعده صادق، ومغفرته شاملة؛ لكن هي كذلك ﴿لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾(طه:٨٢)".

* * *

اِلتفَّ به الصمت والوجوم، فقلتُ في نفسي لنفسي:

هو موسم الحصاد فاحصدي، هو موسم الجهاد فجاهدي، هو موسم الاجتهاد فاجتهدي، هو موسم الربح فاربحي.. يا نفسُ لا تكسلي، ولا تغفلي، ولا تظلمي، ولا تخنسي...

وفجأة، تخيَّلت رسول الرحمة ﷺ يقول لي ما قاله لعمير ﷺ بن الحمام عليه شآبيب الرحمة: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صبارًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

وردَّدتُ، مع الصحابي الجليل مقالته الجليلة، وفي يده تمرات يأكلهن: "بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء.. ثم

قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل".

وما الفرق بيني وبين عميرٍ ﷺ، إلاَّ أنَّ أعدائي اليوم شتى، وأنواعٌ، وصورٌ، وأشكالٌ... كلُّهم يصوِّبون رماحهم وجهتي، ليُردُوني قتيلاً: الإعلام الفاسد، والتعليم الجاهل، والسياسة الفاجرة، والاقتصاد المرابي، وأعداء الإسلام الذين أخرجونا من ديارنا، وقاتلونا، وظاهروا على قتالنا... وغير ذلك كثير.

والفرق الآخر بيني وبينه، هو أنه صحابيٌّ، تربَّى وترعرع ونشأ بين أحضان أعظم معلِّم ﷺ، وأكمل خلق الله، وأصفاهم؛ أمَّا أنا، فطالبُ علم، لا أزال أدبُّ دبيبًا، وأبحث عن المعنى... في عالم غاب فيه المعنى، ومات فيه المعلِّم، وتمرَّد فيه المتعلِّم؛ إلاَّ ما رحم ربي.

لأجل كل ذلك سأعمل جاهدًا، وأقاتل النفس الجموح حتى تلين، وما التوفيق والنصرة إلاَّ من عند الله، فالحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلاَّ على الظالمين.

* * *

سلامًا يا سيدي، يا رمضان، يا أبرَّ من برَّ، ويا أكرم من أكرم.

حين يعمل الغافلون، ويكسل الراهبون[١٥]

هما عالَمان متكاملان: عالَم الغايات والمِنن، وعالَم الأسباب والسنن؛ وعندما ينفصم عالَم عن عالَم يدبُّ الخراب في الوجود، وتشهد البشرية أسوأ أيامها وأحلك لياليها، فيأتيها الشؤم متبخترًا، وتنكسر شوكتها عند باب الروح والطمأنينة، أو على ركن العمران والتمكين.

فحين يعمل الغافلون، تنمو مظاهر الحياة، وتعمُر أسواق المادَّة، وتزّيَّن الأرض بالمنجزات المدنية: مِن عمارات وناطحات، ومن آلات وتقنيات، ومن مصانع و"مُولات"[١٦]... ذلك أنَّ هؤلاء الغافلين العاملين اتخذوا الأسباب، وحرثوا الدنيا بالأفعال، وتفنَّنوا، واجتهدوا... والقاعدةُ التي لا تخطئ أبدًا في شأنهم، هي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾(الشورى:٢٠)؛ فلم يقل جلَّ من قائل: "لا نؤته منها"، وذلك مصداقًا لقوله في آية أخرى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:٢٠).

أمَّا حين يكسل الراهبون، ويتعلَّقون بأستار الكعبة، ويلازمون مساجدهم، ويطيلون الركوع والسجود، ويُغرقون في تلاوة القرآن بلا تمثُّل لأوامره، ويمارسون الذكْر اللساني المتواصل... دون أن يعملوا ويعلِّموا، ويجاهدوا ويجتهدوا، ويبنوا ويعمِّروا، ويتدافعوا ويدافعوا... فإنَّ دنياهم تتحول إلى عوالم روحانية لا حضارة فيها، وتؤول أمورُهم إلى

---

[١٥] الجزائر، ١٧ مايو ٢٠١٠م.

[١٦] المساحات التجارية الكبرى، وقد تحولت على ضوء النموذج المادي إلى معابد، يقصدها العباد كلَّ يوم أحد، أو يوم جمعة، لا للتسوُّق فقط، لكن لإشباع الفراغ الكونيّ الذي ينخر في الأعماق.

أيدي أعدائهم، ويغمر الفقر أوصالهم، ثم يقصم الذلُّ ظهورهم وظهور أقوامهم وأهليهم.

وما أروع مقولة النابغة الأديب، البشير الإبراهيمي: "أيها المسلمون: عيدكم مبارك إذا أردتم، سعيد إذا استعددتم، لا تظنُّوا أنَّ الدعاء وحده يردُّ الاعتداء، إنَّ مادة "دعا-يدعو" لا تنسخ مادة "عدا-يعدو"، وإنما ينسخها "أعدَّ-يعدُّ" و"استعدَّ-يستعدُّ". فأعدِّوا واستعدُّوا، تزدهر أعيادكم، وتظهر أمجادكم".

بين جلَد الفاجر وعجز الثقة

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ورضي عنه، فهو بنور الله يبصر، وهو الذي تألم من كلا الحالين، بل إنه استعاذ من اجتماع النقيضين، فدعا الله قائلاً: "اللهمَّ إني أعوذ بك من جلَد الفاجر، ومن عجز الثقة"، ذلك أنَّه ﷺ لم يكن مجرَّد مؤسِّس لأركان أعظم دولة في العالم، ولا مجرَّد متفرِّغ للنسك والتعبد؛ وإنما كان "عابدًا عاملاً، وعاملاً عابدًا"... يستمطر الرحمات وعناية السماء، باتباعه الأسبابَ ظاهرها وباطنها، وبإدراكه الغايات قريبها وبعيدها؛ فصدق فيه أنَّه "أعظم شخصية عرفها التاريخ، بعد شخصية النبيين والمرسلين".

مَن للأمة الإسلامية اليوم مِن رجل في قامة عمر ﷺ؟

يقول شاعر، واصفًا حال انفصام المسلمين، ومستوحيًا المعنى من الجامعة العمرية:

تبلَّد في الناس حسن الكفاح ومالوا لعيش وكسب رتيب
يكاد يزعزع مِن همّتي سُدور الأمين، وعزم المُريب

المفارقة الكبرى

إنَّ قلبي ليتفطَّر، وإنَّ عقلي ليتفجَّر، وأنا أعاين -في أسفاري، وحين مطالعاتي- نشاطَ أهلِ الضعة والفساد، واجتهاد أهل الشرك والإلحاد، وحرصهم على العمل، وصبرهم في التحصيل، وتفانيهم في تشييد أسس النظام والحياة، ووصلهم الليلَ بالنهار أمام الكتب والبحوث، وداخل المخابر والمراكز: يتعلَّمون ويعلِّمون، ويعملون ويتقنون، ويزرعون ويصنعون، ويُتاجرون ويغزُون، وفي كلِّ ذلك يبدعون ويحسنون... بجدٍّ ما بعده جدٌّ، وبتفانٍ ما وراءه تفان؛ كلُّ ذلك وقلوبهم قفرة فارغة، ونفوسهم مضطربة قلقة، وعقولهم حيرانة سكرانة.

ثمَّ إنني -والأسف ملء الجوانح- أجدُ الكثير من الراهبين من أهل الدين والإسلام، ومن المنتسبين إلى المصطفى ﷺ والقرآن... أجدهم في كسلٍ عن العمل، وخمول عن الأسباب، وقلَّةٍ في ذات اليد، وتهاونٍ في الوظيف، وبُعدٍ عن النظام... ومن ثمَّ، ونتيجة لذلك، ترى الواحد منهم عالة على العالمين، يصدق فيه قول الرحمن أنه: ﴿أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾(النحل:٧٦)... وإذا شئت التثبت في شأنهم، فما عليك سوى البحث عن علامات مارْكات مآكلهم وملابسهم، ومساكنهم ومراكبهم، وأثاثهم وأجهزتهم... فستجدها -يقينًا- مصنوعة بأيدٍ غيرِ متوضِّئة: صينيةٍ أو يابانيةٍ، أوربيةٍ أو أمريكيةٍ.

خلاص العالَم

لن يكون خلاص العالَم من المحن والإحن التي يرزح اليوم تحت وطأتها، إلاَّ بارتفاع هذا الانفصام المشؤوم، ولن يتحقَّق ذلك إلاَّ على يد قوم ربّانيين حقيقيين، من مدرسة القرآن الكريم، ومن أتباع المصطفى الأمين ﷺ... قومٍ يقتفون أثر الراشدين، ويسيرون على خطى الفاتحين، ويعيدون للدنيا ذكرى الفاتح وصلاح الدين... واللهِ لن يشفع لنا اليوم أننا نلوّح بأعلام النصر كلَّما هزَّت الغربَ أزمةٌ، مِن مثل الأزمة المالية؛ أو اعتراه سقم، من مثل أنفلونزا الخنازير؛ ذلك أنَّ هذا النصر هو نصر للإسلام، وتصديق لما جاء به، لا ناقةَ للمسلمين فيه -اليومَ- ولا جمل...

والواجب علينا اليوم أن نقدِّم البدائل، وأن نهزم أعداء الله "بأيدينا"، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾(التوبة:١٤-١٥)؛ ومن عجبٍ، وما أبلغ كلام الله تعالى، أنَّ هذه الآية -وغيرها- لا تُقرأ مبتورة عن سياقها، ولا تُفهم حقَّ الفهم إلاَّ بسباقها ولِحاقها، ففي تمامها يقول جل من قائل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(التوبة:١٦).

النصرُ إذن حليفُ الجهاد والعمل، ومعيةُ الله رهينة بالتقوى والإيمان وابتغاء مرضاته، وصلاحُ الدنيا والفوزُ في الآخرة مشروطان بالرشد والرشاد، وباتباع الأسباب، مع الاعتقاد الجازم أنَّها من الله، ولله، وفي الله.

فهل مشاريعنا وإنجازاتنا ومدارسنا ومعاهدنا... بلغت هذا المقام العليَّ؟!

هذا هو الرهان اليوم وغدًا، وإنَّي أرى نصر الله تعالى قاب قوسين أو أدنى، وعلى مرمى البصر، ذلك أننا أصبحنا -بحمد الله- نشهد في العالم الإسلامي الفسيح بوادر لجيل التمكين، لا تكذبها العين، ولا تخطئها الأذن.. نعم هي بوادر جاءت من غير بلادنا القريبة، لكن ليس للإسلام جغرافية ولا حميَّة، وإنما الإسلام صفة لمن استوفى شروطه من العالمين.

هؤلاء العاملون العابدون الراشدون هم قدوتنا، وأمَلنا، وحزبنا... أمَّا غيرهم من أهل الانفصام فليسوا منا، ولسنا منهم في شيء، وإنا لنسأل الله لهم الهداية، داعين بدعاء الرسول الكريم ﷺ يوم الطائف، ويوم أحدٍ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»(رواه البيهقي).

نحو فجر جديد، على يد بشر[١٧]

إذا كان الكون نظاما كلّه، وإذا كانت الفوضى عارضًا زائلاً، وإذا كانت الاحتمالات مجرَّد وهمٍ؛ فإنَّ الإنسان لا يملك إلاَّ أن يحفر بحثًا عن "قانون النظام"، ويُجهد نفسه في فهم "سلسلة الأسباب"، ثم يصل الصباح بالليل عاملاً، لتوقُّع "النتائج بناء على تلكم الأسباب".

ومِن تمام حكمة الله تعالى أنه لم يسطِّر لنا مجريات الأحداث "مِن الألف إلى الياء"، وإنما بيَّن لنا "القواعد" و"المنطلقات" و"الثوابت"؛ ثم أمرنا بإطلاق العنان للعقل، حتى ننفذ من أقطار السموات والأرض، إن استطعنا ذلك.

كانت الحياة، مع "الرسول الأكمل" محمَّد ﷺ، حياةً لا تتَّسم بالرفاه؛ لكنها تتميز بـ"المعقولية"، فتفوَّق عصرُه على جميع العصور بتلاقي العالمين وتناغمهما: عالم القواعد والمنطلقات والثوابت، وعالم العقل والفكر والاجتهاد..

أمَّا العالَم الأوَّل، فيغرس فتيله في اللامتناهي، ويمتدُّ بسبب إلى الأزل من جهة، كما يلقي بصنارته[١٨] نحو الأبد من جهة ثانية؛ فتزول في معناه كلُّ الحواجز، بما فيها حواجز الزمان والمكان، لتترك مكانها "للقدرة المطلقة، وللتقدير الكامل، وللإرادة اللامحدودة".

---

[١٧] إسطنبول، ٦ فبراير ٢٠١٢.

[١٨] **الصَّنارة**: كما في لسان العرب، هي "الحديدة الدقيقة المعقَّفة التي في رأس المغزل"؛ ويقصد بها في العامية: الحديدة الصغيرة المعقفة التي يلقيها الصياد في البحر، ويضع فيها الطُّعم ليصطاد بها السمك.

وأمَّا العالَم الثاني، فيرتبط ابتداءً بالأسباب المباشِرة، ويتعلَّق "بسلسلة السبب والنتيجة"، إلى أن تنتهي إلى مسبِّب الأسباب، ومبتدَئ الوجود، وحقيقة الحقائق؛ ولا شكَّ أنَّ "فهم حركية الأسباب" القريبة، والعمل وفقها، أمرٌ شرعي، وشرط في التمكين والنماء والإبداع.

لأسباب تاريخية عدَّة، على رأسها الانفصامُ البيِّن بين "الديني والدنيوي"، بين "الفقهي والسياسي"، بين "العلمي والعسكري"؛ تراكمت جزرٌ منفصلٌ بعضها عن بعض، في تراثنا القريب بالخصوص، وهي ولا شكَّ غير طبيعية، وغير متلائمة مع طبيعة الفكر الإسلامي الفطري. فصِرنا نسمع عن "عالِم الدين" و"عالِم الدنيا"، وعن "علوم مادية"، و"أخرى روحية"... فتنامت الثنائيات بسرعة الضوء، حتى غطّت جميع مناحي حياتنا... ولا تزال.

هنا -فقط- استطاع الغرب، الذي أتقن جانبا، وأهمل جانبا آخر، أن ينتصر علينا، نحن الذين أهملنا العالَمين والجانبين معًا: عالَم المادة وعالم الروح، جانب العلم وجانب الإيمان؛ ولا شكَّ أنَّ مَن يملك شيئًا خيرٌ من صِفر اليدين.

وجاء المبشِّرون -منَّا- من أدنى المدينة، لِيُعلنوا أنَّ تقليدنا للغرب على علاته، كما هو، في كلِّ شيء، حتى في تنكُّره للمعقولية وللمعنى، كلّ ذلك سيجعلنا نلحق به، وقد نتفوَّق عليه؛ فآمن الناسُ برسل جُددٍ، هم في الحقِّ أنصاف بشر، وأرباع عقلاء، لا يعُون من الكون إلاَّ جانبه المظلم؛ وهم في الأساس جانبه المظلم.

اليوم، وقد سقطت الأقانيم، وماتت الآلهة، وظهر بهتان المتنبئين، وتيقَّن العالَم أنَّ كلَّ ما كان عِلما، هو علم وكفى، وأنه صالح للعالَم

المادي، الحركي، الحضاري، لا شكَّ في ذلك؛ أمَّا ما يخصُّ العالَم الأعلى والأسمى، أي عالَم الغايات والنهايات والمعاني، فالبشرية تقف عاجزة، وتلقي المنشفة البيضاء فوق الحلبة؛ ولقد تعدَّدت مظاهر ذلك؛ ابتداءً من سقوط "العلموية"، وانتهاء بفشل "نظرية كلِّ شيء"، ولعلَّ مقولة آنشتين القلقة هي عنوان ذلك: "ليتني كنت إسكافيًّا قبل أن أعرف الفيزياء".

فهل سيعرف العالم حقبةً من الفوضى، أم أنه سيبقى عالم احتمالات؟ أم أنَّ ثمة جوابًا حقيقًا، يختفي وراء الصمت، وينتظر الفرصة السانحة؟

لا ريب أنَّ هذا الجواب، إن وجِد، فسيكون على يد بشر، ولن يحتاج الناس إلى نبيٍّ جديد يحمل إليهم الصواب؛ ذلك أنَّ النبوَّة، ومهمَّة النبوة، قد اكتملتا مع نزول القرآن، مع آخر الأنبياء على الإطلاق، إلى يوم الدين.

إذن، الجواب، والصواب، سيهلِّ بحول الله على يد بشر... فالفوضى لا تبني الطمأنينة، ولا تريح الإنسان، ولا تجيب عن أسئلته الحائرة، ولا تملأ فراغه الكوني... ولذا، فإنها وإذ جاءت، فنرجو أن لا تبيت في الربوع -ضيفًا ثقيلاً- لمدَّة طويلة؛ مِن هنا كانت الاحتمالات في العالم المادي ممكنة، مفيدة، نافعة؛ أمَّا في العالم الأكبر، فلا معنى لها، ولا نفع، ولا استقرار.

"على يد بشر"

مَن يكون هؤلاء البشر المرتقَبون؟ هل هم اليوم يعمَلون؟ وهل وعوا مهمَّتهم؟ وهل ثمة حراك فكريٌّ سيولِّد الحقيقة من "التوربينات" التي يشعلونها؟ متى ذلك؟ وكيف ذلك؟ وما هي العوائق، حتى تزال؟ وما هي القوى الحابكة، حتى تصفَّر؟

الجواب، يكون بحول الله، على لسانِ وبيدِ "المجدِّدين"، أصحاب

"الدهاء الجمعيّ"، من أمثال الأفعاني، والنورسي، والسالمي... في الأوَّلين؛ ومن أمثال: ابن نبي، وفتح الله كولن، والمسيري... في اللاحقين؛ إذا لم نكن نحن أحفادا وأبناء لهؤلاء، وإذا لم نحمل المشعل لنريحهم ولنحقق آمالهم فينا... وإذا لم نحاول، على الأقلّ... وإذا تماطلنا، ثم سافرنا إلى الأخرى بلا جهدٍ يُذكر... فما هو الخير المأمول فينا؟!

لهذا، يحترق وقود المادة الرمادية فينا، ويَذهب القلب كلَّ مذهب، ثم يغمرنا القلق الولود، ونلوذ بالصبر الفعال، "صبر الطائر الحضون"، فتكثر الدعوات والنداءات، وقد تقترن أحيانا باللوم، أو التلاوم...

المهمّ أن نتحرَّك، وكفى...

على كلٍّ، "الجماعة العلمية"، و"مراكز التفكير والأفكار"، و"حلقات الحوار العلمي" الساخن، والحوار الجادُّ المثمر... كلُّ ذلك هدفنا، ومقصدنا، ورسالتنا... سواءً حقّقناه، أم هلكنا دونه، فبروح الهجرة نعتقد ذلك، ونروم من ورائه الخير العميم، ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء:١٠٠).

سيولد بحول الله الفجر الجديد، من رحم الخير والجمال المطلق، بعنوان: "الجمال خير، والخير جمال"... وهل ثمة مصدر للجمال وللخير غيرُ الوحي الربّاني، وغير الجميل الماورائي... ربِّ العلم وربِّ العالم، وربنا وربّ كلِّ شيء؟!

أهو الحظ، أم التوفيق، أم العمل؟[١٩]

كثيرٌ من الناس يعتمد على الحظّ، ويأمل فيه، كي يحقِّق شيئًا ذا بال في حياته؛ وكثيرٌ من الناس لا يؤمن البتَّة بالحظ، ويعتقد أنَّ العمل والعمل وحدَه هو السبيل للوصول إلى المبتغَى؛ وكثرة أخرى من الناس تجعل التوفيقَ الربَّاني هو السرُّ الوحيد لبلوغ المراد.

فأيُّ مِن هذه الفرق أهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً؟

بدايةً، يجب أن نفُكَّ التعارضَ الموهومَ بين هذه الأسباب الثلاثة؛ فليست الواحدة منها بالضرورة بديلةً عن الأخرى؛ ومن ذلك أنَّ توفيق الله للعبد ميسِّر لسبلِ العمل، وهدايةٌ إلى العمل الصالح المتقبَّل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(محمد:١٧)، كما أنَّ العمل الصالح مِدعاة للتوفيق ومقدِّمة له. فالتوفيق إذن لا يلغي العمل، والعمل بالتَّبع لا ينفي التوفيق.

ومِن جهة أخرى، ثمة علاقة عضوية بين الحظِّ والعمل؛ يقول ستيفن ليكُوك: "أنا مؤمن جدًّا بالحظ، وكلَّما زاد كدِّي في عملي زاد حظِّي". فهو بهذا يجمع بين الحظِّ والعمل، ويعتبرهما متلازمين ومقترنين، فلا عمل بلا حظٍّ، ولا حظَّ بلا عمل. بينهما علاقة اطراد وتلازم.

ويعجبني في هذا المقام عالِم لا يُعرف كثيرًا، رغم أنه حقَّق الكثير في تاريخ علم الفلك، وهو مكتشف الكوكب السابع في النظام الشمسيّ، أي الكوكب المسمَّى بأورانيوس، وذلك سنة ١٧٨١ للميلاد؛ ولكه مع ذلك

---

[١٩] الجزائر، ٢٥ يوليو ٢٠١١.

العديد من الاختراعات في مجال صناعة المقاريب، والصناعات الفلكية، وفي الموسيقى... وغير ذلك.

إنه "ويليام هيرشل"، الألمانيُّ الأصل، مِن مدينة هانوفر؛ الذي تدرَّب على الرؤية كما تدَّرب مِن قبل على السماع، فكان إضافة إلى الموسيقى فنَّانًا في ترقُّب السماوات؛ وهو القائل في ذلك: "الرؤية هي -بوجه من الوجوه- فنٌّ يجب تعلُّمه. لقد قضيتُ الليالِيَ الطوال في التمرُّن على الرؤية، وسيكون من الغريب أن لا أكتسب حذقًا وبراعة نتيجة هذا التمرُّن المستمر".. وهو بهذا يجعل العمل والتمرُّن والمجاهدة مفتاحًا للتفوُّق والإبداع والابتكار، بل هما متلازمان تلازمًا تامًّا؛ فلا عمل بلا ثمرة، ولا ثمرة بلا عمل.

ويوم اكتشف أورانيوس، وسجَّل اسمه بماء الذهب في تاريخ العلم عمومًا، وعلْم الفلك بالخصوص، انقسم العالَم إلى معجَب وحاسدٍ، وكثر القيل والقال عن هذه الثورة العلمية العجيبة؛ يومَها أصدر مقولة لا تقلُّ أهمية عن اكتشافه الفلكي، جاء فيها: "لقد افتُرض عمومًا أنَّ الحظَّ السعيد هو الذي جلب هذا النجم إلى ساحة رؤيتي؛ هذا خطأ واضح. كنتُ أقومُ بانتظام بفحص كلِّ نجم في السماء، ولم أكن أقتصر على تلك النجوم التي لها هذا القدر من السطوع، بل كنتُ أتعدَّاها إلى النجوم التي أقدارها أصغر بكثير. في تلك الليلة جاء دوره ليُكتشف. كنتُ أتصفَّح تدريجيًّا المجلَّد العظيم الذي ألَّفه خالق الطبيعة، ووصلتُ الآن إلى الصفحة التي كانت تحوي الكوكب السابع. ولو حال انشغالي في تلك الليلة دون العثور عليه، لعثرتُ عليه في الليلة التي تليها".

لاحِظ معي، أنّ العمل مجلَبة للتوفيق، وأنَّ التوفيق كان فتحًا للحظ،

وأنَّ الحظ حليف العامل المثابر، وأنّ التوفيق هدية لا تخطىء العامل الصابر؛ فالذي نعدمه اليومَ ليس هو اكتشاف نجمٍ أو كوكب أو أي شيء آخر؛ وإنما هو العمل الدؤوب المنظَّم الذي لا ينقطع؛ أمَّا النتيجة والثمرة فهما متلازمتان تلازم السبب للمسبب؛ ولعلَّ هذا يفسِّره قول الله جل وعلا، عن ذي القرنين، الذي ما دخل بلدا إلا وأحاله إلى حضارة وحركية، وما ذلك إلاَّ أنَّ الله تعالى آتاه من كلِّ شيء سببًا ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾(الكهف:٨٥)، أو ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾؛ ثم لم يخرق منظومة الأسباب، ولم يحلم بالثمرة دون شجرة، ولا بالشجرة دون جذور، ولا بالجذور دون تربة وماء وهواء...

إنها، -إذن- حكمة الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة:١٢٠)، وهو الذي لا يُضِيع عمل عامل منَّا مهما كان انتماؤه وعصره ومصره ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:٢٠).

هل أنت أخي من العاملين؟

إن لم تكن، فلا تحلم بتوفيقٍ ولا حظ؛ وإن كنته فتيقَّن أنَّ توفيق الله سيكون حليفك، وأنَّ الحظَّ السعيد سيفتح أبواب الخيرات أمام ناظريك... فأبشر، وزغرد، وانتظر.... فما أحلى كلَّ ذلك بعد العمل، والجهاد، والهجرة.

الكلام لكَ، واسمعي يا جارة.

الوحي، والمعلومة، والرؤية الكونية[٢٠]

تعني "الرؤيةُ الكونية" "تأسيسَ تصوُّرٍ، وإعطاء حُكمٍ، وتبنِّي موقفٍ، من العوالم الثلاثة: "الله، الإنسان، الكون"؛ وإنَّ بناء الرؤية الكونية متحقِّق، وواضح المعالم، في "النموذج التوحيديّ"؛ لأنَّ "الصورة والحكم والموقف" منطلقها جميعًا الوحيُ والعلم المطلق، الذي لا يعتريه نقصٌ، ولا تبدو له البدوات: ﴿عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(فاطر:٣٨)، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(الحديد:٣)؛ وكلُّ ذلك يدركه العقل عبر مصدرٍ للعلم، يعتمد السنَنية، ويعترف بالنظام، ولا يتأثر بالمتغيرات، وهو مع ذلك يقرُّ بوجودها؛ ومن ثم إذا حدث تشوُّش فإنما يحدث في مرحلة التطبيق، فقط.

أمَّا الذي ينكر الوحي "مصدرًا للمعرفة"، فإنَّه يبني رؤيته الكونية على "الحس" و/أو "العقل"، ومن ثمَّ تصبح "المعلومة" لديه ذات أهمية بالغةٍ، لا يمكن القفز عليها في تأسيس رؤيته الكونية؛ وهنا يصدق فيه قول "إدغار موران"، في مقاله "نحو براديغم جديد": "إنَّ المشكل بالنسبة للإنسان المواطن، هو: في كيفية الحصول على المعلومات حول العالَم، وكيفية اكتساب كفاءة تقطيعها وتنظيمها"... ومن ثم يدافع موران عن "فكر التعقيد".

بشيء من "التحليل العلميّ الوسط"، المتسم "بالصدق"؛ يمكن أن نقرِّر أنَّ الرؤية الكونية لا تتأسَّس على "المعلومات" المتغيرة، وإنما على

---

[٢٠] إسطنبول، ٨ أيريل ٢٠١٢.

"المعرفة" الثابتة، وعلى "اليقين"، وهذا لا يعني بالطبع، التنكُّرَ للمعلومة، وإنما هو وضع لها في نصابها؛ فأنت لا تبني "تصوُّرك، وحكمَك، وموقفك" عن "الله" سبحانه، على أحداثٍ عن البورصة المالية، أو على أخبار عن الأزمات السياسية، أو حتى عن اكتشاف علميٍّ معين... إنك لا تنشئ أسس وجودك على الرمال المتحرِّكة، ولا فوق الأمواج المائرة.

وإذا كان ذلك -فيما يبدو- بديهيا في حقِّ الله تعالى، فإنَّ العقول "المنطقية - البراغمتية"، قد لا تراه كذلك في شأن "الإنسان، والكون"؛ ذلك أنَّ الصورة، والحكم، ومن ثمَّ الموقفَ، كلُّ أولئك يتغير تبعًا "للمنطق الآني"، وبناء على "المنفعة والمصلحة" المحسوبة المحدودة؛ أمَّا لو أعدنا الأمور إلى نصابها، ولم نلْغ "المعقولية، ولا المعيارية، ولا القيمية"، فإنَّنا نعترف أنَّ "الإنسان" يستمد حقيقة وجوده (نظرية الوجود)، وحقيقة معرفته (نظرية المعرفة)، من "الثابت المتعالي"، لا من "المتغير" المخلد إلى الأرض، ولا يندُّ "الكون" عن هذا التقرير، قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾(الكهف:٥١).

وبلغة القرآن الكريم، والتراث الإسلامي، بل والدينيّ عمومًا، نقول: إنَّ الرؤية الكونية هي التوحيد، وهي الإيمان، وهي العقيدة؛ وإنَّ ما سواها من العلم، والمعلومة، والخبر، والحدث، والآنيّ، والظرفيّ... كلُّ ذلك هامٌّ، وضروريٌّ، وهو تطبيق، ودليل، وطريق... إلى الرؤية الكونية، وليس هو الرؤية الكونية بذاتها، ولا يليق أن يكون أساسا لها.

فكلُّ حادثة، مهما بدت صغيرة، أو عفوية، إنما هي دليل على الله تعالى، وعنوان على حقيقة الإنسان والكون؛ فسيِّدنا سليمان عليه السلام، من حديث نملةٍ

واحدة، تأثَّر، وخشع، واستذكر حقيقته، وحقيقةَ الربِّ المنعم التواب، ومن ثم رسم لنا صورة "رؤيته الكونية التوحيدية"، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ۞ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(النمل:١٨-١٩).

فلنعالج إيماننا ورؤانا الكونية، ثم لِنعالج على إثر ذلك عِلمنا ومعلوماتنا، ولنحرص على أن تكون الثمرة عملاً صالحًا يرضاه مولانا وخالقنا؛ ولندْعُ في كلِّ زمن وآن: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(النمل:١٩).

وليكن دعاؤنا بنفَس حضاريٍ عالميّ، لا بنفْسٍ خائرة حائرة، فشتّان بين أن ندعو كما دعا عقبة بن نافع ﷺ، وهو يودّع أبناءه الوداع الأخير، متوجّها لفتح شمال إفريقيا: "اللهمَّ تقبلْ عملي، واجعلني في عبادك الصالحين"، وأن ندعوَ، ونحن هائمون في وادٍ، منغمسون في جدل، قابعون في ركن؛ لا تصدر منَّا سوى الكلماتُ والألفاظ، لا القلب يحترق، ولا العقل يفور، ولا الجوارح تتوفز؟!

من التوتر إلى القضية.. كيف ولماذا؟[٢١]

كلُّ مجتمع في مرحلة "الحضارة"، وفي نقطة البدء بالخصوص، يكون مشحونًا بتوتُّر كاملٍ، يميّزه عن حالة مجتمع آخر في مرحلة "ما قبل الحضارة"، أو مجتمع يعيش "ما بعد الحضارة".

لكنَّ السؤال المحوري، في هذا السياق، هو: ما الذي يؤسِّس للتوتر؟ أهو الدين؟ أم هو العلم؟ أم هي الأحداث التاريخية؟ أم هي الزعامات والشخصيات الكاريزماتية؟

لقد أكَّد مالك بن نبي "أنَّ التوتُّر فكرة دافعة، لا يمكن بثُّها عبر نظريةٍ، أو بأيِّ إرشاد تعليميٍّ"، أمَّا المؤرِّخ توينْبي، فيذكر أنَّ الظرف المفضَّل لظهورالتوتُّر يكون عندما "تضطرُّ جماعة بشرية للردِّ على تحدٍّ ما، بعمل منظَّم".

إلاَّ أنَّ التفسيرين غير مقنعين منفردَيْن، وذلك لوجود حالات وأمثلة في التاريخ من كلِّ نوع:

ففي غار حراء -مثلاً- ولدت أعظم حالة توتُّر عرفتها البشرية، من خلال الوحي، أو على صورة "دين".

كما أنَّ الثورة العلمية في أوروبا كانت وراء التوتُّر الذي غمر القارة الباردة بحراك مادّيٍّ وأدبيٍّ شديد، دفعَها في كثير من الأحيان إلى السطو على الشعوب الأخرى، واكتشاف قارَّة جديدة -فعليًّا- بعد الاكتشاف الجغرافي.

---

[٢١] ١٩ فبراير ٢٠١١.

ولقد كانت أحداثُ ما بعد الحرب العالمية الثانية شعلةً لبعض الشعوب المستعمَرة، ولَّدت لديها توتُّرًا، ودافعية للاستقلال لا تقاوَم، رغم افتقادها لكلِّ الوسائل والمعدَّات الحربية اللازمة، وما الجزائر إلاَّ مثالٌ حيٌّ، من خلال فكرة "الاستقلال" و"الثورة".

كما أنَّ بعض الزعامات التاريخية دفعت شعوبها نحو توتُّر إيجابي أحيانًا، وسلبي في أحايين كثيرة، يمثَّل للنوع الأوَّل بابن باديس، وبديع الزمان النورسي، وعلي عزّت بيجوفيتش؛ كما يمثَّل للحال الثانية بنابليون، وهتلر، وجمال عبد الناصر.

هذا التوتر يسمّيه فتح الله كولن "الهمَّ"، ويقول في شأنه مخاطبا شباب الخدمة: "إني أحمل همًّا كبيرًا، لكنَّني وجدتُكم تضحكون وتمرَحون، وتستسيغون النوم، فكأنَّ شيئًا لم يقع، وكأنَّ أمَّة المصطفى ﷺ اليومَ بخير وعافية... والحقُّ أني أريدكم حاملي همّ... فوالله لو أنَّ الله تعالى أقدَرَني لنثرتُ على قلوبكم شرارات من الهمِّ، إذًا لجفاكم النوم إلى الأبد"... وفي وقت آخر يقول: "ما تمكّنَّا من تحويل إيماننا إلى همّ ومكابدة لكي نحترق فننطلق"..

كما أنَّ مالك بن نبي يسمي هذا التوتر في بعض كتبه بـ"مبرِّر الوجود"، أو "دَور المسلم"، أو "رسالة المسلم"، ويقول: "يجب أن يفكِّر المسلم كيف يسير في اتجاه التاريخ، كيف يستغلُّ الظروف السانحة التي تتهيأ له على المحورَين: المحور الذي فقد المبرِّرات التقليدية: الغرب؛ والذي ينتظر مبرِّرات جديدة: الشرق".

ولقد يطلق على التوتُّر الحضاري أحيانًا مصطلح "القضية"، وهي في عمومها "رسالة المجتمع"، إذ لا يقال "قضية فلان أو الفئة الفلانية" إلاَّ

مجازا، وإنما رسالة فلان، وقضية الأمَّة الفلانية. والقضية هي القطب لجميع رسائل أفراد المجموع.

ويبقى السؤال عميقًا: لو حاولنا اليوم أن ننفخ الروح في المجتمعات الإسلامية، ونزرع فيها "التوتّر"، و"الهمَّ"، و"الدور"، و"المبرر"، و"القضية"... أي كلَّ ما من شأنه أن يُلهب الحماس المنظَّم، والفعل المخطَّط، وإرادة الوجود، واليقين في النصر، والعمل الدؤوب... كيف لنا ذلك؟ ومن أين نبدأ؟

إنَّ الذي دفعني إلى البحث في هذه المعضلة الحضارية هو جملة من الملاحظات التي تنطلق من الواقع -كما هو- لا كما ينبغي أن يكون، بقصد تجميعها في نسق شمولي، باعتماد التحليل المركَّب، بعيدا عن الاختزال:

الحادثة الأولى: في سفر لي إلى مدينة من المدن الجامعية في الجزائر، التقيتُ بالعديد من أساتذة الجامعة، وحاورتُهم في شتى الميادين العلمية، وحاولت الاستماع إلى اهتماماتهم، فوجدت أغلبها -للأسف- تدور حول "اللقمة"، و"المنزل"، و"المنحة"، وهي "هموم" مبنية على "قلق منغلق"، لا يورِّث تفكيرا، ولا يولِّد عملا؛ أي أنه لم يتجاوز عالَمَيْ "الأشياء" و"الأشخاص" إلى "عالم الأفكار"، بله أن يتحول إلى رشدٍ، أي إلى "حركية" وإنجاز حضاري يحسب له حساب في "عالم الأفعال!".

الحادثة الثانية: لا أحد يجهل أحداث كرة القدم قُبيل كأس العالم الصارمة، وبخاصة بين الجزائر ومصر.. ففي غياب "التوتر الحضاري" تمكَّنت وسائل الإعلام، وجهات سياسية مغرضة، أن توهم الملايين من الناس في البلدين أنَّ "قضيّتهم" و"حقيقة وجودهم"، و"معنى حياتهم"

متعلّق بفوز فريقهم وانهزام "فريق العدوّ!"... فكان ما كان من سخافات وتفاهات؛ ولا تزال بعض الجرائد والقنوات تتَّخذ من العداوة المستحكمة بين البلدين، بسبب المباريات، حِصان طروادة، ووسيلة خسيسة لزيادة المبيعات، واستقطاب العقول الساذجة.

الحادثة الثالثة: في مشاريع تربوية أساهم في الإشراف على تكوين إطاراتها فكريًّا وحضاريًّا، أجد أحيانًا بعض الأطراف الفاعلة تفتقد "الحرارة" و"التوتر" اللازم للتحدي، وتقتل -بسبب ذلك- روحَ المشروع وجدواه؛ وبالمقابل هنالك من له "دافعية" و"روح قتالية" -بلغة الرياضة- غير أنَّ هذا وذاك على السواء يسألان عن "القضية"، وعن "مبرر الوجود"، ذلك أنَّ "الرؤيا المستقبلية"، و"رسالة المؤسَّسة" لا تكفيان لوحدهما لتحريك كلِّ الجهات المرتبطة بالمشاريع.

من هنا جاء السؤال مرَّة أخرى: كيف لنا أن نولِّد قضية وقطبًا جامعًا لأبناء الوطن -على الأقل- وأبناء الأمة الإسلامية في النهاية... ثم، مِن أين نبدأ؟

بدايةً أقترح أن تكون القضية من منطلق قرآني، معتبِرة بأحداث السيرة النبوية، وبوقائع نزول الوحي؛ فتكون القضية هي: ﴿اقْرَأْ﴾، ولعلَّ هذه الصيغة المختزلة تدفعنا لإتمام الآية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(العلق:١). وقد يعبَّر عن هذا المعنى بعبارة أخرى، شارحة ومبينة، وهي: أن تكون قضية الأمة اليوم "أن أنفي الجهل عني وعن أمَّتي".

ويلاحظ أنَّ هذه القضية لا تخصّ طلبةَ العلم وحدهم، ولا العلماء بمفردهم؛ ذلك أنَّ كلَّ تخلُّف في كلِّ مجال مؤدَّاه "الجهل"، ولا يمكننا اليوم أن نقوّي تجارتنا، أو زراعتنا، أو عسكرنا، أو صناعتنا... أو أيَّ

مجال، من أيِّ نوع كان... إلاَّ "بالعلم"، وبـ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وبـ"نفي الجهل عن الذات" أولاً، ثم عن "الأمة" بالتبع.

ولعلَّ ما يرشِّح -مبدئيًا- صيغة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، هو أنها جامعة لـ"الدين" و"العلم" معًا، فلا هي "علموية-علمانية-وضعية"، على النسق الغربي؛ ولا هي "دوغماتية-لاهوتية-تصوفية" -بمعناه السلبي طبعًا- بالشكل الذي يسِم العالم الإسلامي في مراحل تخلفه، أو في مرحلة "ما بعد الموحدين" باصطلاح مالك بن نبي.

وتبقى هذه القضية، إذا ما اقتصرت على جملة من المشاريع، أو على ثلة من الناس، مجرَّد رسالة، لا تملك صفات "الشدِّ"، و"الدافعية"، و"الحرارة"... ولذا، وجب على الجميع، أن يشارك في صياغتها النهائية، حتى إذا ما اتفقنا عليها، وجب علينا نشرُها، وزرعها، والعمل بها، والدعوة إليها، وإيجاد آليات لإنزالها إلى أرض الواقع.

ولقد يعترض معترض فيجعل السلطة السياسية شرطًا أساسيًّا للقضية، توجد بوجودها، وتعدم بعدمها؛ غير أني أرى أنَّ السياسة نتيجة وليست مقدِّمة، هي بمثابة الثمرة لا الشجرة، تساعد ولا تقرِّر؛ وتضْييع الوقت في انتظار تحرُّكها، وإشغال النفس بترقب ما يصدر عن الساسة، هو نوع من العبث في ظروفنا الراهنة، أو هو من قبيل سؤال التعجيز: "أيهما أسبق: البيضة أم الدجاجة". أقول، وأفتح المجال للحوار: لا البيضة ولا الدجاجة، لا القاعدة ولا القمة؛ وإنما هي القضية والتوتر ومبرر الوجود... فالقضية تصنع البيضة والدجاجة على السواء، بفكر وفعل، وبإيمان وعلم وعمل، تحت صيغة أولية مقترحة، هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

فهل نحن فاعلون؟!

آلام التفكير[٢٢]

ما أثقل تلكم الساعات التي تدُكُّ فيها الأفكارُ عقول البشر، ومن لم يذق آلام التفكير ساعةً لم يعرف للألم سبيلاً؛ فالآلام التي تعرض للإنسان جمَّةٌ ومختلفة الأسباب؛ منها: آلام الجسم، وآلام النفس.. ومنها: آلام الفراغ، وآلام الخيبة... وغيرها كثير؛ لكنَّ من أشدِّ هذه الآلام قساوة، ومن أكثرها ندرة: آلام التفكير.

فالناس يلامسون عادة ثمرات الفكر، ويتمتَّعون غالبًا بنتاج العقل، غير أنهم قلَّ ما يدركون أنَّ صاحب هذا الفكر قد عانى الأمرَّين، وتجرَّع المِحْنتين؛ وأنه قبل أن يضع فكرته كاملة كمال الوليد يوم يهلُّ، قد لاقى آلام المخاض أضعاف ما لاقت الحامل، فإن يكن في أحشائها وليدٌ واحدٌ، فإنَّ في جوف المفكِّر آلاف الأجنَّة، أنّى له أن يختار أيهما يضع وأيهما يلغي، وأيهما يقبل وأيهما يرفض؟

أمَّا من ينقل ما قاله الآخرون، ويروي ما يبدعه المبدعون، فإنه قد يتوَّهم التفكير، وقد يقول: "أنا أفكِّر، وأنا لا أتألّم!"... ومن ثمَّ وجب علينا أن نعذره؛ لأنه حامل علم وليس عالمًا، ولأنه حامل فكر وليس مفكرًا... فقد صدق والله، فلا مخاض ولا معاناة؛ وإنما متعة آنية لا أصل لها ولا فصل.

دعوتُ إلى بيتي -هذه الأيام- مالك بن نبي، فخصَّصت له كلَّ وقتي، وقلّبت آراءه وأفكاره مرَّات ومرَّات... فكانت النتيجة أن انتقلتْ معاناتُه

---

[٢٢] الجزائر، ٨ أبريل ٢٠٠٩.

إليَّ، وأُصِبت بعدوى التفكير مثلما أصيب؛ ولم أتذكَّر يوما عشتُ فيه نفس الإحساس، إلاَّ يوم قرأت للمسيري رحلته الفكرية، وإبداعاته حول القضية الصهيونية.

كان مالك بن نبي فكرا يمشي على رجلين، ولقد حمل هموم أمَّته عبر القرون، فلم تشغله المحلّية عن الوطنية، ولا الوطنية عن العالَمية... إنه بحقٍّ رائد التفكير المنظَّم المبدع في عصور "ما بعد الاستقلال"، بل إنه كان مخضْرما، عرف الاستعمار وخبره في شكله المباشر، وعاين الاستعمار وشخَّصه في صورته الملتوية الجديدة... فلم تفته حيله وألاعيبه في هذه الحقبة ولا في تلك.

وأنا أقرأ "شروط النهضة"، أو "وجهة العالم الإسلامي"، أو أي كتاب آخر من كتبه، أجد أنَّ شيئا لم يتغير فوق ظهر الأرض، وإن تبدَّلت الأزمان والتفاصيل والأسماء والمظاهر، أمَّا الحقائق والأسباب والإشكالات فهي هي، ذلك أنَّ "الإنسان" و"الأفكار" في العالم الإسلامي لم تشهد نقلة ولا نهضة معتبرة، باستثناء بعض المبادرات المشكورة، والجهود المعتبرة، ومثل هذه النماذج وإن كانت بواكير أو شواذ، فإنَّ الباكورة قد تزهو وتنضج يوما، وإنَّ الشاذَّ قد يعمُّ ويقاس عليه، ولو بعد حين.

لكن، فيما عدا ذلك، وفي جزائرنا بالخصوص، لم تزدد الأوضاع إلاَّ تدهورًا وتقهقرًا؛ فلقد مات الأمل في كل ما هو إسلامي: "الأحزاب الإسلامية"، و"الجمعيات الإسلامية"، و"الشخصيات الإسلامية"، ذلك أنَّ أغلبها فضَّل "البولتيك" على "الثقافة"، وآثر "المصلحة" على "المبدأ"، وتغنى بلغة "الحقوق" متجاهلا منطق "الواجبات"... فسبح الجميع مع التيار، تاركًا المبادرة للواقع، يصنع آلهة من الحلوى وعجولا من الفضة،

فيدفع الناس لعبادتها والسجود لها.

أمَّا الحركات الوطنية، والأحزاب الوطنية، والجمعيات الوطنية، والشخصيات الوطنية... فإنها لعبت على وتر الشرعية التاريخية، ويبدو أنها ماهرة في هذه اللعبة منذ فجر الاستقلال؛ فدبّرت أمورها بليل، وتلاعبت بالمفاهيم والمحتويات، حتى بدا وكأنَّ شيئا لم يتغيّر، فالوطنية هي الوطنية، والديمقراطية هي الديمقراطية... لكن المحتوى قد أفرغ من محتواه تمامًا، فحوَّلت لغة "البولتيك" البلاد قاعًا صفصفًا، لا زرع فيه ولا ضرع.

ويؤسفني أنَّ الفكر نفسه ترهَّل وعجز، فلا نعرف اليوم "كاتبًا" أو "مفكرًا"، أو "ناقدًا"، يحلل هذا المركَّب بعناية، وليس أمام أعيننا مثيلاً لابن نبي، ذلك أنَّ "الحَرفية" -بفتح الحاء- و"السطحية" قد استشْرَت في مقالات الجرائد، وفي صفحات الكتب، فبات الهمُّ منحصرا في "الجمع والرص" عوض "التحليل والإبداع".

وإني لأهيب بالقارئ أن يذكر عنوانًا واحدًا، صدر في هذه السنوات العجاف، يضع الإصبع على الجرح، ويصف الدواء للداء، وصف خبير بصير.

ولعل أفضل منهج، وأمثل طريق، نقترحه اليوم هو "الجهد"، و"الاجتهاد"، و"الجهاد"، و"المعاناة الفكرية"، و"تحمُّل آلام المخاض"، و"الصبر الجميل"... لعلنا ندرك المطلوب، ونعلن ساعة الخلاص لأمَّتنا، بعيدًا عن الخطابة والادعاء... فالحضارة وليدة صمت وعمل، وليست بنت هرج ومرج.

بؤرة تفكيري، وخطي المنهجي[٢٣]

صفة العلم: هو النظر.. ووظيفته: التفسير والتنبُّؤ.. وخاصيته: الضبط والوضوح.. وغايته: تحقيق سعادة الإنسان.. وآلته: العقل.. ومادته: الوجود.. ودليله: القرآن.. ومحطَّته: الزمان والمكان... ومثاله المطلقُ سيد الخلق محمَّد ﷺ.

العلم شرفٌ كلُّه، والعالِم كريم بذاته، والمتعلِّم سعيد بفعله متفائل بمستقبله، والجاهل شقيٌّ بتضييعه للفرص وملاحقته للسراب.

كيف نبدأ من حيث ينتهي العلم؟

وكيف نحوِّل مادة العلم إلى واقع؟

وكيف نركِّز تنظير العالم ليتحوَّل إلى طاقة فاعلة؟

كيف نجعل كلَّ الكتب، والمقالات، والمحاضرات، والمواعظ، والمقولات، والنظريات... تنتهي إلى آليات للتفعيل والفعالية، لا إلى توصيات ونصائح لا تمتُّ إلى الواقع بصلة؟

ما بعدَ العلم، وما بعد الفكرة، وما بعد النظر... حلقة فارغة في الفكر الإسلاميِّ اليوم، عمومًا.

تختمر الفكرة في ذهني، ويستحكم الإشكال، وتتوالى الافتراضات، فتتهجَّم عليَّ الاختبارات والاختيارات... وأستجمع ملكات الذهن، فأجمِّع الأفكار، وأكتب ما أظنُّ -أو أعتقد- في تلك اللحظة أنه الحلُّ الأخير، والجواب النهائيُّ، والدواء الأكيد لهذا المرض العضال.. ثم

[٢٣] المسودة: سبتمبر ٢٠٠٨؛ الضبط والنشر: ديسمبر ٢٠١٠.

أنتهي بصياغة رأي أو نموذج أو نظرية متكاملة المعالم.. ثم ألوذ إلى تأليف مقال، أو تنضيد كتاب، أو إلقاء محاضرة، أو إعداد دورة تكوينية... ويكون آخر العنقود فكرة ناضجةٌ مستساغة طيبة طاهرة حلال، تُسبي الناظرين، وتريح المنتظرين.

في هذه النقطة بالذات، أتحوَّل إلى "راصدٍ" لِما كتبتُ فيه، وما نظرَّت له، وما حلَّلت به... أي أنتقل إلى "المستوى الثاني" من النظر، وإلى "السلَّم" الأعلى من الإدراك، وهو مستوى "ما حول"، وسلَّم "الميتا" (Meta) كما يسمَّى.

بهذه الرؤية الجديدة أجدُ أنَّني تحولت إلى مقترِح، وواعظ، وناصح... أدفع القارئ بالكلمات إلى تنفيذ ما كتبتُ فيه، وأحثُّ المستمع بالكلمات إلى تمثُّل ما ألقيت عليه.

ولكن هيهات، ثم هيهات...

وأعود إلى البحث عن "ميلاد فكرة" جديدة، فأعيد نفس المراحل مرحلة مرحلة، بلا كلل ولا ملل... وهكذا، إلى ما شاء الله تعالى.

متى العمل؟ وكيف العمل؟

لولا المشاريع الأرضية، الواقعية، العملية، التربوية، والفكرية... التي تشغلني وأشغلها، والتي تغمرني وأغمرها، لكنتُ في قلق مميت، ولعشت في دوَّامة قاتلة؛ لكن -ولله الحمد- فإنَّ الانتقال من فعل إلى فكر ومن فكر إلى فعل جعلني أؤمن بهذا السبيل، ولا أجد له بديلاً.

هذه "بؤرة تفكيري"، وهذا "خطِّي المنهجي"، وهذا محطُّ جهدي، ومحلُّ جهادي، منذ أمد، وإلى حين، بإذن الله تعالى.

التفعيل، الفعالية، الإنجاز، العلم النافع، الواقعية... تعدَّدت الصفات، والمؤدَّى واحد... إنه: "الرشد" بكلّ أبعاده، وبجميع مواصفاته.

قد يطول الوقت -بل سيطول يقينًا- لإيجاد الجواب المريح نسبيًّا، لكنَّ الانكباب والبحث والتنفيذ، بعقلية العابد، وروح المجاهد، وأداء القائد، وخلُق الصادق... كلُّ أولئك ضرورة ولا ريب، وواجب شرعيٌّ ولا شك... فالجديد النافع دائما يولد من رحم المعاناة.

هل أنا في حاجة إلى مزيد من القراءة؟

أم إلى مزيد من الكتابة؟

أم إلى مزيد من التأمُّل؟

أم إلى مزيد من الإنجاز؟

أنا، وأنت، وهو، وهم، ونحن... جميعًا، في حاجة ماسَّة إلى كلِّ ذلك، وإلى أكثر من ذلك... في حاجة أوَّلاً أن ندرك هذا البعد الحضاريَّ الدقيق، وأن نتحرَّك على أساسه.

وقبل ذلك وبعده، نحن في حاجة ملحَّة وأكيدة إلى توفيق من الله تعالى، القائل في محكم التنزيل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا عمل، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وهذا علْم؛ والقائل في آية أخرى ﴿وَاعْلَمُوا﴾ وهذا علم، ﴿أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(البقرة:٢٣٣) وهذا عمل.

عمل يسنده علم، وعلم يرفعه عمل، ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(فَاطِر:١٠).

والله الموفق للصواب.

العلم والجماعة العلمية[٢٤]

من تمام الرشد المعرفيّ التفكيرُ في "العلم"، والبحث في "آثار العلم"، وفي "صورة العلم"، و"أنواعه"، وفي "أسبابه"، و"غاياته"، و"يقينيته"...

وفيما يخصُّ "أثر العلم في المجتمع البشري"، يقول "براتراند" راسل في كتاب له بهذا العنوان: "إنَّ الذي يهمُّ الإنسانَ هو ما يستطيع إنجازه في هذا العالمَ، والإنسان المشتغل بالعلم في هذا العالم يستطيع إنجاز قدر أكبر بكثير من غيره".

ورغم أنَّ هذه المقولة وردت في سياق إلحاديٍّ، يدَّعي أنَّ القوَّة ليست كلَّها للآلهة، بل للإنسان، وبالأخصِّ العالِم الذي يملك قدرًا وافرًا من القوَّة... إلاَّ أنَّ هذا الانحراف في التوجيه لا يعني الخطأ في الحكم كلية.. فالعلم يضاعف الإرادة والقدرة والقوة والإنجاز عند الإنسان؛ وذلك وفقًا لسنَّة كونية وقانون رباني لا يخطئ أحدًا أبدًا. وهو ما سماه القرآن الكريم بـ"السلطان"، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾(الرحمن:٣٣).

فأي شيء نفعله بعلم، خيرٌ من الشيء نفسِه لو حقَّقناه بغير علم؛ والعلم دائمًا وفي كلِّ شيء أولى وأفضل من الجهل، والذي يعلم حجّة على الذي لا يعلم؛ ذلك أنَّ العلم يهب أعمالنا صفة الشمولية والصدق والقدرة على التكرار، ويحوّل أفعالنا إلى مهارة لا إلى مجرَّد ضربة لازب،

---

[٢٤] الجزائر ٢٤ ذو الحجة ١٤٣١هـ / ٣٠ نوفمبر ٢٠١٠م.

قد تصيب مرَّة، ولكنها تخطئ مرات!

والحقُّ أننا لو تحرَّرنا من سجن العلم الوضعيِّ المظلم، إلى أفق العلوم الكونية المنيرة، لوجدنا أنَّ العلم الحقَّ يرادف الإيمان الحقَّ، وأنَّ سعادة الدنيا والآخرة منوطة بهذا العلم المبارك الجليل الأثر، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾(مُحَمَّد:١٩).

ثم إنَّ الخشية من الله سبحانه غايةٌ كبرى، خُلق الإنسان لبلوغها، فالأقدر على تحصيل هذه الخشية هو العالِم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨).

وفي الجنة أعدَّ الله تعالى للسعداء درجاتٍ، أعلاها، بعد درجة النبيين والمرسلين، هي من حظِّ العلماء العاملين المتقين المحسنين، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(المجادلة:١١).

فبالعلم -إذن- ينجز المرء الحدَّ الأرفع من أسبابه ومقاصده وغاياته: المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية، الفردية والجماعية... وهذا مدلول الأثر المرويِّ عن الإمام علي كرَّم الله وجهه: "من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم".

ومِن مظاهر العجز والانحراف، التي هي من موانع الرشد والرشاد، الإعراضُ عن العلم، والتنقيصُ من قدره، والعمل والسعي بلا علم... فممَّا يميِّز بعض المجتمعات الإسلامية اليوم، في مراحل تخلُّفها وعيشها في الضحضاح، أنَّ الإنسان والجمعية والمؤسَّسة والمشروع والوزارة... كلُّ أولئك يضع العلم في مقام الذيل، ثم يحقره ويزدريه، ويبحث عن النجاح خارج إطاره؛ فتكثر -لأجل ذلك- الجعجعةُ بلا طحين، والادعاء بلا أثر مُبين.. ثم يحيق الفشل بالجميع، فيلوذون إلى التفسيرات الخرافية،

اللاسببية، أو التي تستند إلى أسباب وهْمية بعيدة، غافلةً عن الأسباب الحقيقية القريبة.

واعجَبْ من بعض الناس الذين يحاربون العلمَ باسم العلم، ويشيّدون نواد للحطِّ من قيمته وقدره، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(الْكَهْف:١٠٤)؛ والحاصل أنهم أصغر من أن يتصدَّروا الأمَّة، وأعجز من أن يقودوها إلى برّ الأمان.

ولكنَّ الخطر الذي يتهدَّد الأمَّة كذلك، ويمنعها من تحويل مخزونها الثقافي الإسلاميّ إلى واقع حضاريّ عالميّ، يكمن في التنافر الذي بين عالِم وعالم، ومؤسَّسة للعلم وأخرى للعلم، وفقيه وفقيه، ومجمَع ومجمع، وتخصُّص وتخصُّص... بينما المطلوب هو بناء "مجتمعات علميَّة راقية، من خلال جماعات علمية متماسكة"؛ فعصر العالِم الواحد، والجهد الواحد، والفكر الواحد، والفعل الواحد...قد ولَّى إلى الأبد، وحلَّ محلَّه التناسق والتناغم والتفاعل والتكامل، بناء على منهج ﴿وَاعْتَصِمُوا﴾، ومنطق ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا﴾، وحقيقة "البركة في الجماعة"...

نماذج من الجماعات العلمية العالمية

• في مقدمة كتاب "الكون الأنيق: الأوتار الفائقة، والأبعاد الدفينة، والبحث عن النظرية النهائية" للفزيائي برايان غرين، الذي صدر بالعربية ضمن سلسلة "المنظمة العربية للترجمة"، نقرأ هذه العبارة الدالة على مدى العمل العلمي المؤسَّسي في المحيط الغربي، يقول: "إنني أقرُّ بكلِّ امتنان بالدعم الكريم لأبحاثي في الفزياء النظرية على مدى أكثر من عقد ونصف من السنين، بواسطة المؤسسة القومية للعلوم، ومؤسسة "ألفريد

ب. سلون" (Alfred P. Sloan Foundation)، وقسم الطاقة بالولايات المتحدة. وربما ليس غريبًا أن تكون أبحاثي قد تركَّزت على تأثير نظرية الأوتار الفائقة على مفهومنا عن الزمان والمكان؛ وفي الفصلين الأخيرين قمت بشرح بعض الاكتشافات التي كان لي حظ المشاركة في إنجازها. ومع أنني آمل أن يستمتع القارئ بالأمور الداخلية، فإنني أدرك أن ذلك قد يترك انطباعا مبالغا فيه على الدور الذي لعبته في تطوير نظرية الأوتار الفائقة. ولذلك أنتهز الفرصة لأقرَّ بفضل أكثر من ألف فزيائي من جميع أنحاء العالم، ساهموا وكرَّسوا حياتهم لجهود تحديث النظرية النهائية للكون. وإنني أعتذر لكل الذين لم يتضمَّن الكتاب أبحاثهم، ولا يعكس ذلك إلاَّ وجهة النظر التي اخترتها، وتحديد حجم الكتاب".

وفي سياق آخر، وردت إليَّ رسالة من صديقي الباحث في علم الأعصاب (Neuroscience)، جاء فيها بالحرف الواحد: "صديقي، يسعدني أن أبلِّغك تهنئة كبيرة بعيد الأضحى المبارك، من هنا، في سان دييغو، كاليفورنيا (San Diego, California)، أين أشارك في (Society for Neuroscience Meeting)، وهو أحد أكبر التجمعات العلمية العالمية، ويشارك فيه هذه السنة حوالي ثلاثون ألف باحث ٣٠٠٠٠ من جميع أنحاء العالم" ١٦ نوفمبر ٢٠١٠.

ولا يقلّ أهمية خبرُ صدور "الموسوعة الإيرانية-الأمريكية" (Encyclopædia Iranica) وقد ساهم في تأليفها أزيد من ١٤٠٠ باحث، من مختلف التخصصات عبر العالم، كلُّ واحد منهم ألَّف مقالات أو أكثر في تخصصه الدقيق، باحترافية عالية، ودقة علمية واضحة. وبغضّ النظر عن خلفية هذا المشروع، الذي لقي دعمًا سخيًّا من أمريكا، تبقى دلالة

الجماعة العلمية ترنُّ في العقل، وتدفع للتفكر.

أين نحن؟

في أكثر العلوم أهمية مثل "العقيدة"، أو "التفسير"، أو "الفقه" يستحيل أن نجد جماعة علمية بلغت في تنظيمها هذا المبلغ العالميَّ، ولا موسوعة علمية شارك في تأليفها مثل هذا الحجم الكبير من العلماء من مختلف أنحاء العالم، بل حتى الكثير من المجامع الفقهية تغرق تحت وطأة الطرق التقليدية في التسيير، وأحادية العالِم العارف لكلِّ شيء، والمشاركة الشكلية أحيانًا لبعض العلماء من بعض التخصصات، دون أن يكون ذلك عملاً متفانيًا منظمًا سخيًّا.

أمَّا العلاقة بين المؤسَّسات العلمية فهو رهين العلاقة بين سياسات الدول المتقلبة غالبا، وقد ذكر لي رئيس مجمع اللغة العربية السابق في سورية، أنَّ كلَّ مجمع للغة العربية يعمل لوحده، ويصدر مصطلحاته، ويحاول إبراز تفوق "الساسة" الذين على رأسه... ولذا -كما قال- يستحيل التوافق بينها في مثل هذه الظروف.

ودعم المؤسَّسات التجارية المالية الخاصة للعلوم وللبحث العلمي ليس تقليدًا عريقًا في البلاد الإسلامية اليوم، رغم المعنى الذي تمنحه هذه المؤسَّسات لوجودها بمثل هذه المبادرات الداعمة للعلم، وللتعليم، وللمشاريع الخيرية الكبرى.

في كلِّ ما ذكرتُ، يظهر تقصيرنا تجاه ديننا، وتقصيرنا في فهم قرآننا، وتقصيرنا في تنظيم سبل حضارتنا... وتتضح المستويات الدنيا لمداركنا، والعقد النفسية التي تنخر وجودنا، والروح الأنانية التي تذهب ريحنا.

ما العمل، وهل نحن فاعلون؟

ثمة جملة من النقاط العملية الواجب اتباعها، منها:

• الاجتهاد في تأسيس "جماعات علمية" في كلِّ تخصص علمي.

• الالتحاق بالجماعات العلمية العالمية، في مجال تخصُّصنا، والتأثُّر بها، بخاصَّة في المنهج والأسلوب ووسائل العمل، والتأثير فيها، في الغايات، والرؤى الكونية، وسعة الدين الإسلامي الرحب.

• إذا كنَّا ضمن "مخبر للبحث"، أو "جامعة"، أو "مؤسسة بحثية" في العالم الإسلامي، يجب علينا أن نتحمَّل مسؤولياتنا كاملة غير منقوصة، وأن نحاسب أنفسنا عن كلِّ سِنتٍ أو دينار، وعن كلِّ ثانية أو ساعة... كما يجب أن نفكِّر فيها بعقلية استراتيجية كونية، لا بطرحات أنانية نفعية قاصرة.

• على المؤسَّسات المالية والتجارية، وعلى الأثرياء وأصحاب الأموال الكبيرة، التفكير مليًّا في إعطاء المعنى لما آتاهم الله من رزق، لا بنية الهيمنة أو التسلط، لكن بنية النفع العام للمسلمين، ونيل رضوان ربِّ العالمين. فالواجب يقضي بالتبرع السخي، والتمويل الطويل النفَس، لكلِّ مشروع علميٍّ جادٍّ وهادف.

• للباحثين والعلماء المسلمين عبر العالم كله، وفي جميع التخصصات أقول: هل من واجبكم نقل العادات العلمية النافعة لأمّتكم، والرفع من مستواها؟ كيف ذلك؟ ومتى؟ كان الله لكم، لا تتردَّدوا... واجتهدوا.

• أخيرًا، أهمس في أذن بعض أصدقائي الباحثين، الأقربين والأبعدين، وأقول: "كنا سويًّا في مشاريع علمية، قريبة إلى "جماعات علمية مصغَّرة"،

وأنجزنا مشاريع وفق الحجم الذي كنا فيه... ثم مرَّت السنون والأعوام... والسؤال: هل من عودة جريئة للجماعة العلمية، بكلِّ المقاييس العالمية؟"

الله سائلنا، والله محاسبنا جميعًا... إذ خواصُّنا وذواتنا مشتَّتة لا تفيد شيئًا في تغيير ما بالأمَّة، ولا في الرفع من مستوى العلم والمعرفة، ولا في إعلاء منسوب التمكين والحضارة.

فماذا نحن فاعلون؟ وهل نحن فاعلون؟! ومتى نحن فاعلون؟ وكيف نحن فاعلون؟

مع التحية الخالصة لكل محبٍّ للخير، ناصر للحقِّ، عاشق للصدق...

رجل المرحلة[٢٥]

قال لي: "لو كتبتَ لنا شيئًا عن رجل المرحلة، لعلَّنا نستفيد في مسارنا الدعويّ"، وقد سمعني يومًا أفسِّر أمرًا بهذا المصطلح الوليد.

ففكَّرت مليًّا، ونظرتُ جليًّا، ولكنَّ اليراع تأبَّى عليَّ.. جفَّ القلمُ، وتصلَّبت الكلمات، ولم أجد حرفًا واحدًا أذيب به الجليد؛ وما ذلك إلاّ لأهمّية الموضوع وخطورته، من جهةٍ؛ ثم للحذر من أن يفهم أحد -أيُّ أحد- أني قصدته.

انتظرتُ طويلاً، حتى اطمأنَّ قلبي إلى أنَّ أوَّل المعنيين هو أنا، ولعلَّ أوَّل المنسحبين هو أنا؛ ومَن يدري؟! ولا يزكَّى على الله أحد.

هنالك، نزلت المعاني مِن علياء القلب، ثم سقت سفوحَ العقل، فاخضرَّت التلال، وأورقت الأشجار، وسال الحبرُ رقراقًا... فبدا أنَّ الربيع يطلُّ علينا من سامق المكان، وأنَّ الحقَّ يداعبنا ويقصِّر في الزمان؛ فاستجبتُ لداعي الخير، سائلاً الله التيسير والقبول، مستغفرًا من ذنوبي ومعاصِيَ، وهي كثيرة... متيقِّنًا أني المقصِّر في حقِّه وفي حقِّ الكثيرين من أهلي وأصدقائي ورفاقي في الطريق، فقلت: "لعلي أهدي لهم هذه الخاطرة، حبًّا ووفاء وصفاء".. فاستعنت بالله، وكتبت هذه الكلمات:

رجل المرحلة

مصطلح منحوت عبر سنوات من العمل الميدانيّ، في مختلف المجالات الفكرية والدعوية والتربوية والإدارية... وغيرها. له قدرة

[٢٥] إسطنبول، صبيحة السبت، ٣ مارس ٢٠١٢.

تفسيرية عالية، لكثير مما يقع فيه أيُّ مشروع، من أكبر مستوى، إلى أصغر حجم: الدولة، والجمعية، والشركة، والمؤسَّسة.

وتفصيل ذلك أنه من الطبيعي عندما يبدأ مشروع ما، ويتنادى الناس إليه، تتشجَّع القلوب أوَّل وهلة، وتكثُر الوعود وتنتشر الآمال، فيتساوى المنخرطون فيه ظاهريا، تمامًا مثل سباق للماراتون قبل الانطلاقة، قد لا تستطيع تمييز البطل عن غيره: اللباسُ هو نفس اللباس، المشاعرُ هي ذات المشاعر، الوجهةُ هي عين الوجهة... حتى إذا بدأ السباق، وتسارع الإيقاع، هنا يظهر أمرٌ جديد، وهو: "التمايز" عند بعض، و"التساقط على طريق الدعوة" عند آخرين، كما سمّاه فتْحي يكن.

إذا لم يعتبر السائرون في الطريق أنَّ هذه ظاهرة طبيعيةً، وإذا لم يولوها العناية الفائقة، وإذا حمَّلوا الناس ما لا يحتملون، وإذا وضعوا هدفا لهم أن يصل كلُّ الناس في خطِّ النهاية، بنفس الحماس... فإنَّ القلق سيكون سيّد الموقف، ويستشري الظلم، وقد يُتَّهَم الناس في نواياهم، وقد يجرَّمون أو يغرَّمون، أو يقال لهم: "خنتم القضية!"..

والصوابُ، أنَّ ثمة فرقًا شاسعًا بين "الخيانة" و"المرحلة"، بينما الخيانة كبيرة من الكبائر؛ حتى إنَّ تولي الدبُر يعدُّ من السبع الموبقات؛ فإنَّ اعتبار المرحلة طبيعيٌّ، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦).. ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾(البَقَرَة:٢٣٦).. ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾(آل عمران:١١٣).

ولكن يبقى **السؤال**: بماذا نفسِّر هذا التساقط؟

الجواب هو، والله أعلم: نفسِّره بالمرحلة؛ ونقول: ثمة رجال مؤهَّلون للمرحلة الأولى، وآخرون للثانية، وللثالثة... وهكذا؛ وقليل من الناس من

يتحمَّل جميع المراحل، أو يحتمل كلَّ الأطوار؛ فكلُّ واحد منَّا معرَّض للوعك، أو التعب، أو الملل، أو حتى الشكِّ في المشروع نفسه... وحينها، نبحث عن المخرج، وعن المنفذ، كيفما كان الأمر.

• فبعض الناس يجد المخرج في الثورة الشمولية، والانقلاب الكلي، على المشروع والبرنامج.

• وبعضهم الآخر، يحدث الفوضى، والضجيج، حتى يبرِّر انصرافه ولا يتَّهم بالخيانة.

• والبعض الآخر، يفضِّل الصمت والانزواء في مكان قصيٍّ، حتى يختفي عن الأعين.

• وفريق رابع، يبقى بجسده وحضوره الظاهر، ويغادر بروحه وقلبه وإيمانه، فتراه هنالك وهو ليس هنالك.

وتمام المعنى أن نعلم أنَّ للانصراف من سباق الماراتون أشكالاً وألوانًا، وصيغًا وإبداعات... وأن نتيقَّن أنه قد يحدث هذا الانسحابُ لدى جميع الأصناف: القائد، والجندي، والعامل، والموظف، والمتطوّع، والمنفق، والمشجع، والمنخرط، والمجاهد... الخ. فلا يخلو صنف من هذه الأصناف من كونه "صاحب مرحلة"، ولا يخلو رجل منهم من صفة "رجل المرحلة".

ولذا يتعيَّن ابتداء، أن نتعامل مع الصورة والحادث بمعقوليةٍ وصدقٍ، لا بتشنج وخرَق، ومن ذلك:

• أن لا يُنسى فضلُ أحد مهما كان، ومهما بدا منه، مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾(البقرة:٢٣٧)، سواء في ذلك فضلُ مَن بقي، أو فضلُ من انصرف.

• العدلُ ملاك الأمر كلِّه، لقوله تعالى ﴿لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٨). فالعدل العدل، تُرحموا وتُنصروا.

• أن لا يُعتقد الصواب المطلق في الجهة التي بقيت مثلاً، والخطأ المطلق في الجهة الثانية التي انصرفت غالبًا، ذلك أنَّ المسألة تقديرية وليست من أصول العقيدة؛ فقد يكون الصواب والخطأ موزَّعًا بين الطرفين، طبعًا بنسب تختلف؛ ويختلف الطرفان في تقديرها.

• أن يتحلَّى الطرفان "بالعفو والصفح" لوجه الله تعالى، لا لاعتبارات وحسابات ضيقة؛ وأن لا يحملوا الحقد والحنق، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾(الشورى:٤٠).

• أن يبحث ذلك المشروع عمَّن يليق بالمرحلة الجديدة، بلا توانٍ ولا تسويفٍ؛ فلا حرج في ذلك، وهذا الفعل لا يعني الخيانة، أو التنكُّر لما مضى، أو الظلم لمن تعب أو توقف، أو حتى وجد ما هو أفضل مما كان فيه.

• أن لا يتوقف المنسحب عن "الجهاد والاجتهاد" ضمن صيغ أخرى، أو مشاريع أخرى، أو مؤسَّسات أخرى... قد يجد أنها أكثر ملاءمة لطبعه ومستواه وفكره ورؤاه. قال جلَّ من قائل: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾(النساء:١٣٠).

• أن يعلم الكلُّ أنَّ الحياة، بالجميع ستواصل مسيرها، دون الجميع سوف تواصل مسيرها، فلا تتوقَّف الحياة أبدا على فئة أو فرد أو عصر أو مشروع... وهذه سنَّة من سنن المولى ﷻ، لم تُخرق حتى لخير العباد

سيدنا محمَّد ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾(آل عمران:١٤٤). والشاهد هنا، هو أنه ﷺ مات، ولم تتوقف الحياة، وما ينبغي لها أن تتوقف أبدًا.

• ليركِّز مَن بقي في ذلك المشروع، على فكرة "رجل المرحلة"، وليصِلْ وليرحَم، ثم عليه أن لا يضيِّع وقته في البحث عن المبرِّرات، وفي تفسير الاختلافات؛ لأنَّ مثل هذا قد يستهلك الطاقة والوقت، وقد يلتهم الدين والصداقة والعلاقات كلِّها... ومثل ذلك يقال لمن وعمَّن وفيمن انصرف، ووجد اختيارا آخر. فالغاية أكبرُ وأعظم من أن نشوش عليها بالجزئيات والتفاهات والخلافات.

كان خالد بن الوليد ﷺ عليه شآبيب الرحمة -فداه أمّي وأبي- قائدًا فذًّا، وسيفًا لله مسلولاً، ومثالاً للحنكة والحكمة، وعنوان الشجاعة والإقدام؛ ثم مات نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو على ذلك؛ ثم مات أبو بكر ﷺ، وهو على ذلك؛ ومرَّت مرحلة من خلافة عمر ﷺ، وهو على ذلك... حتى إذا اقتضت الظروف، وتطلَّبت مصلحة الأمَّة، أن يحوَّل خالد ﷺ إلى مقود، وقد كان قائدًا، فجاءته رسالة التعيين، وهو في معمعة الحروب والفتوحات؛ فكيف تصرَّف، وكيف تلقّى الأمر؟!

إنه نسيج وحده، ودرَّة زمانه، ولذا أحسنَ اليومَ الانقياد، كما أحسن من قبلُ القيادة؛ فتقبَّل الأمر بصدر رحب، ثم بعد أمدٍ، جاءه المرض وهو على الفراش، لا فوق صهوة الخيل؛ وتقبَّل كلَّ ذلك، باعتبار أنه رجل مرحلة، وأيّ مرحلة؛ وأنه ترك المفاتيح بيد شباب، هم كذلك سيبلون البلاء الحسن، ثم تنتهي مرحلتهم، وهكذا دواليك، والأيام دول.

فهل كونه ﷺ صاحبَ مرحلة يضرُّ به، أو يؤذيه، أو يخدش في كرامته؟! كلاَّ، ثم كلاَّ، لم يزده فهمه لهذا المعنى إلاَّ رفعة ومكانة عند الناس.. وقبل ذلك شأوا وشأنًا عند رب الناس؛ وهو الذي لو شاء تمرَّد، ولو شاء لشقَّ الأمَّة شطرين... ولكنه بنور الله يبصر، ومن مدرسة خير البرية تخرَّج، وإلى الله يسير، وإليه المصير... فهو ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الأَنْفَال:٤٠).

الطيور الرشيدة[٢٦]

﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾(الْمَائِدَة:٣١)..!

الطيور هي أكثر المخلوقات إثارة لاهتمام بني البشر منذ أقدم العصور؛ ولعلَّ أول التقاء طبيعي جدلي بين الإنسان والطير، كان يوم قتل أحد ابني آدم أخاه بدافع الغيرة، والتقى بطائر "مات أخوه" لكن ليس بيده ضرورةً، ولا بدافع الغيرة أكيدًا.

هنالك، تحركت عاطفة الإنسان القاتل، فأشفق من جسد أخيه أن يتعفَّن، أو تأكله السباع الضارية والطيور الجارحة، فقرَّر أن يواري سوأة أخيه، لكن لم يهتد إلى الوسيلة والطريقة؛ وتدخَّلت قدرة السماء لتبعث له مَن يفترض فيه أن يقتات من جسد أخيه، ليريه كيف يحميه منه ومن منقاره ومخالبه...: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾(المائدة:٣١)، ولو كان هذا الغراب صاحب حيلة لما علَّم القاتل ما علّم، ولَمَا حرم نفسه من صيد ثمين.

ازدادت حسرةُ الرجل، فصرخ بأعلى صوته: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾(المائدة:٣١) وكان المشهد أن ﴿أَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(المائدة:٣١).

والحق أنَّ هذه الصيحة لم تكن آخرَ حسرة يغبط فيها الإنسان الطيرَ؛ فلقد غبطه يوم أحاط بما لم يُحط به، وجاء من سبأ بنبأ يقين... ولا يزال يغبطه وهو يحلّق في السماء حرًّا طليقًا، لا تحدُّه حدود، ولا تضبطه

[٢٦] الجزائر، ٦ مايو ٢٠١٠.

قوانين، ولا تقيّده جوازات سفر ولا تأشيرات... حتى كاد "ابن فرناس" يُودِي بحياته محاولا تقليد الطيور المحلِّقة، وكان ضحية نسيان "الذيل" لا غير.

هذه الملاحظات تُعطي التفوُّق للطيور على حساب الآدميين، غير أنَّ ثمة أمورًا كثيرة يتميز فيها الإنسان، ولكن لا نعرف: هل تفهم الطيور هذه الفروق؟ وهل تغبط الإنسان فيها؟

وإن كنا نرجِّح خلاف ذلك، فهذه -إذن- أوَّل مفارقة تجعل الإنسان هو المميَّز وهو الأفضل: إنه العقل والتفكير، واللسان والتعبير.

ولا شكَّ أنَّ بحثًا في الفروق بين المخلوقيْن سيكون له أعظم الأثر، وبخاصَّة لو جاء على صيغة قصص علمية فنية، أو بحوث مخبرية عميقة. ولسنا في هذا المقال بصدد إجراء هذه الدراسة على أهميتها، وإنما ندفع إلى سؤالين بديعين هما:

- هل يمكننا أن ننعت الطيور بأنها "متحضرة"، ونتحدث عن شيء يسمَّى: "حضارة الطيور"؟
- وهل يعقل أن نصف الطيور "بالرشد والرشاد"، ونؤرخ لشيء يسمَّى: "الطيور الرشيدة"؟

سؤالان عن الحضارة والرشد

أمَّا **السؤال الأوَّل** عن "حضارة الطيور"، فقد عالجه الفيلسوف "ألفرد نورث وايتهد"، ثم أجاب عنه بالسلب، وعلَّل ذلك بأنَّ الطيور "تفتقد أفكارًا ذات تعميمية كافية، وثيقة الصلة بأفعالها، والعالَم المحيط بها" ويقول بعد ذلك: "إنَّ حبَّ الطيور وشغفها، وجمالية أدائها، تستدرُّ محبَّتنا

وحناننا مقابل ذلك، غير أنَّ الحضارة أكثر من كلِّ ذلك، وفي إطارها الأخلاقي يمكن أن تكون أقلَّ من ذلك".

إذن، فالقدرة على "الفهم والتعميم والقياس والاختبار والإحساس بالأهمية..." هي المحدِّد الأساس لكلِّ حضارة، غير أنَّ الطيور وكلَّ الحيوانات -حتى التي توصف بأنها من النوع الراقي، مثل الكلاب والقرود- تفتقد هذه الخصائص والملكات الإدراكية المعرفية العميقة، وهذا يلخصه قولنا "العقل مناط التكليف" مع تحوير بسيط لنقرر أنَّ "العقل مناط الحضارة وشرط لها".

وبعد هذا التحليل، يمكن أن نعلن أمام الذين يتبجحون بكون الإنسان مجرَّد حيوان غريزي: ينطلق من رغبات جنسية "فرويد"، أو تحكُمه دوافع اقتصادية "ماركس"، أو يضبط جنسه الانتخابُ الطبيعي "داروين"... نعلن أمام هؤلاء أنَّ الإنسان أكبر من ذلك وأكثر، وأعلى من هذه الدركات التي أنزلوه فيها، ونكرِّر مع المسيري رفضه القاطع "حوسلةَ الإنسان" -أي تحويله إلى مجرد وسيلة- ونسانده في دفاعه عن "الإنسان/الإنسان" عوضًا عن تكريس مفهوم "الإنسان/الشيء" أو "الإنسان/المادة"... ولا مجال في منظومتنا المعرفية للمنظور الحلولي الذي يفني الروح في المادة، ويُذيب المعنى في الشكل.

ويكون **السؤال الثاني** الذي نقترحه أعمق وأكثر دلالة من الأول، في نظرنا، وذلك أننا حين الحفر في دلالة الرشد، انتهينا إلى أنه يأتي في مرحلة أكثر تطورًا وندرة من الحضارة: فهل يمكن أن نقول عن تجمع للطيور "إنها طيور رشيدة؟"..

سفاهة الطير أم سفاهة البشر؟

الحقُّ أنّ الحديث عن الرشد يستلزم استحضار نقيضه، وأدقُّ مصطلح في التعبير عن هذا النقيض هو "السفه"، فهو مصطلح قرآنيٌّ عميق، وله مدخل فقهي وقانوني يندرج ضمن أحكام المعاملات، يُعرف بـ"باب أحكام السفيه".

فالسفيه هو الذي "يتصرف في ماله خلاف مقتضى العقل"، وهو في دلالته المعرفية أعمُّ، أي "مَن لا يحسن التصرف في الأشياء، ويخطئ التقدير والتدبير".

وإذا كان الحكم الفقهيُّ على الأوَّل -أي سفيهَ المال- هو "الحجْر" وسلبه حق الملكية وحقَّ التصرف في ماله، حيث يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾(النساء:٥)؛ فإنّ الحكم على الثاني -السفيه المعنوي- هو ذاته، لكن بتعميم النسبة، ومن ثم يمنع من التصرف في كل شيء، إلا بمقدار.

ولا ريب أنَّ السفهاء في المال قلّة نسبيًّا، لكنَّ السفاهة في السياسة والثقافة والفكر والحضارة، أي السفاهة المعنوية هي الغالبة اليوم على بني البشر، وبخاصَّة مَن يعيش منهم تحت سقف "القلة" و"التبعية" و"اللافعالية".

فهل يمكننا أن نطلق على طائر أو على سرب من الطيور صفة السفاهة؟ ونقول عنه "إنه طائر سفيه؟"، وعن السرب "إنها أمَّة سفيهة؟"، ومن ثم نصف الكل بأنه "لا يحسن التصرف"؟!

أم أنَّ الغريزة هي الحاكمة، وقد وصفها تعالى بقوله: ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ

بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(الأنعام:٣٨)، إذ الشبه ليس في الرشاد أو السفاهة، لكنَّ وجه الشبه يختصر على التنظيم والعلاقات والانضباط، مع اختلاف في أسبابها ومؤداها؟

لا يختلف اثنان أنَّ الافتراض الثاني -الغريزي- هو الأقرب للصواب، بناء على الملاحظات الحدسية، والتجارب العلمية.

الرشد والانتقال من حال إلى حال

ثمَّ إنَّ الرشد يفترض نوعًا من الانتقال من حال إلى حال، فالذي لم يكن راشدًا البارحة، قد يكون راشدًا بعد حين: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾(الأحقاف:١٥)؛ لكن الطيور -خلاف البشر- لا تعرف مثل هذا الانتقال، ولا يمكنها أن تنمّي إدراكها ليكون مختلفا عن إدراك ما قبلها من الطيور، قبل ألف عام أو مليون عام... فهي هي يومَ خلقها الله تعالى، واليومَ، ويومَ يفنيها؛ وهي مجبولة على أفعال معينة مقدَّرة ضمن نظام مخلوق بدقة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾(الملك:١٩) أمَّا الطائرة التي اخترعها الإنسان، فهي خلاف ذلك، إذ بدأت بسيطة فتطوَّرت وتغيَّر فيها الكثير، بفعل العلم والبحث والتجريب... وهي كلُّها صفات مقتصرة على الإنسان لا يشاركه فيها حيوان.

ذاتية اتباع الأسباب

وإذا كان الرشد صفة فردية، فإنه -وهذا لبُّ مقالنا- قد يكون صفة جمعية جماعية، ومن ثمَّ يمكننا أن نتحدث عن "مجتمعات سفيهة" و"مجتمعات رشيدة".. والفرق بينها أنَّ الأولى "لا تتبع الأسباب التي سخَّرها الله لها"،

وتفتقد بالتبع "القدرةَ" و"التخطيط" و"التمكين" و"الريادة"... وقد تهوي إلى حضيض أدنى من الدواب والأنعام... أمَّا الأمم الراشدة، فهي تلك التي آتاها الله ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾(الكهف:٨٤) فاتبعت سببًا، لا بقهر قاهِر، لكن بدافع ذاتي تربوي إيماني محض.

ذلك أننا نعرِّف الرشد بأنه "ذاتية اتباع الأسباب"، وبذلك نواصل ما بدأه مالك بن نبي في نظرية "القابلية للاستعمار" لنرسي نظرية مكمِّلة نعبر عنها بمصطلح "القابلية للرشد".. والفرق بين النظريتين هو أنّ الأولى تعالج الجانب "السلبي-الإخلائي" من الظاهرة؛ أمَّا الثانية فتعالج جانب التحلية والبناء.. ولكلِّ نظرية بيئتها التي نشأت فيها، ومؤثراتها التي توجهها.

من هنا نقرِّر أنَّ الإنسان الراشد يدرك الشيء ويدرك سببه، أمَّا الطائر فلا يدرك الأشياء إلاَّ مفصولة عن أسبابها العميقة البعيدة، غير أنَّ التقدير الربَّاني عوَّضها بمهارات غريزية بديلة، تمكِّنها من الحياة البديعة الرائعة، وهي لذلك -فُطرت- على التسبيح بلا كلل ولا ملل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(الإسراء:٤٤)، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩)... ويبقى المشكل الجوهري في الإنسان السفيه -إيمانيًّا وحضاريًّا- فلا هو ممن اتبع الأسباب، ولا هو ممن رُزق الغريزة بديلا، فمثل هؤلاء لهذا السبب وصفوا أنهم ﴿كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(الأعراف:١٧٩).

والسبب الأول، أو العلة الأولى باصطلاح الفلاسفة، هو: الله تعالى، الخالقُ لكل شيء، المبدِع المقدِّر، الذي أحسن كلَّ شيء خَلقه... وقمَّة الرشد -تبعًا لسياقنا- تكمن في "معرفته سبحانه حقَّ المعرفة"، فمن جحده انتفى أن يكون راشدًا... ولقد أدركتْ الجنُّ هذا البعد العميق للرشد،

فقالت يوم سمعت القرآن الكريم يتلى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

فهل أُمَّتنا اليوم في حاجة إلى "الحضارة"، أم هي أحوج إلى "الرشد"؟ وهل جمعياتنا ومدارسنا ومساجدنا وأحزابنا ودولنا... وكلُّ تجمعاتنا، قد بلغت حدَّ الرشد، أم أنها لا تزال ترتـع في بِرك السفه والسفاهة، بشتى أشكالها، وبمختلف أنواعها؟!

إنَّ إطلالة واحدة على الجرائد الوطنية والأخبار العربية... وإنَّ نظرة واحدة في الأحوال المحلّية، وفي الأزمات العالمية... لتدفعنا إلى القول: "بيننا وبين الرشد بُعد المشرقين، وهو أكثر ندرة في تجمعاتنا من الماسّ المفرَك، ومن اليورانيوم المخصَّب... وفي انتظار بلوغنا درجة الرشد والتمكين والاستخلاف، يمكن أن نتخذ "الطيور قدوة"، فهي أحسن حالاً، وأوفر حظًّا منا.

فاللهمَّ اجعلنا من الراشدين، وأبرم لأمّتنا أمرًا رشدًا... آمين.

أقزام البامبوطي، وجغرافية الإدراك[٢٧]

كنت أحلِّل ظاهرة "حجم الإدراك" لدى الإنسان، وعلاقة ذلك بعمُر الفرد وخبرته وبيئته وتاريخه وجنسه ودينه وعلمه... وكلِّ ما مِن شأنه أن يضيف "قطرة" في بحر الإدراك لديه أي لدى بني الإنسان؛ وكان ذلك ضمن تطوير نظرية "الوعاء الحضاري" و"النسيج الحضاري"، المرتبطة عضويًّا بـ"نموذج الرشد".. فكان المصطلح الذي أثارني، والذي وجدت فيه "القدرة التفسيرية العالية" لما أعمِل فيه عقلي، هو "جغرافية الإدراك" الذي نحتتُه بالمناسبة، لعله يرقى إلى "مفهوم" أعمق وأوسع مدى؛ فحاولت أن أبحث -بالوسائل المتاحة- عن هذا المصطلح المفهوم، لعلَّه قد صيغ ووظِّف من قبل؛ فبحثت باللغات التي أعمل بها، أي العربية، فالفرنسية، فالإنجليزية... غير أنَّ مصطلح "إدراك الجغرافية" كان هو السائد، وهو الوارد بعد كلِّ بحث رقميٍّ؛ وبدهي أني لا أقصده، وليس هذا ما أعنيه في سياقي هذا. ثم إني لا ألغي وجوده، لعلي لم أتقن فنَّ الصياغة.

ولقد وقعتُ على نصٍّ لسعدون محسن، نشره في مجلة "الحوار المتمدن"، بعنوان "حدود الإدراك في منظومة التلقي الإنساني"؛ ورغم أنَّ هذا النص جاء في سياق مختلف عمَّا نحن بصدده، وهو يعالج العلاقة بين "الخطاب الإلهي المطلق، والخطاب الإنساني المحدود" من خلال "الرسالة-الواسطة" التي هي "القرآن الكريم"، إلاَّ أنني استفدت منه نصًّا،

---

[٢٧] العمرانية (كارْدِيلاَنْ) / إسطنبول، ٩ نوفمبر ٢٠١١.

نقلَه، وأجد من اللائق أن أنقله كما هو؛ لأقود بعد ذلك جملةً من الأسئلة المبنيَّة عليه، ثم أحاولَ توليد جملة من المفاهيم والرؤى، مما أعتقد أنه سيخدم منحى التحليل الذي أنا بصدده.

تقول لندا.ل دافيدوف: "حكي أنَّ أقزام البامبوطي (Pygmies Bambuti) الذين يعيشون في الغابات الاستوائية الكثيفة في الكونجو، حيث يندر وجود المناظر البعيدة ١٠٠ قدم من أعلى شجرة إلى الأرض. في يوم من الأيام قام أحد هؤلاء الأقزام ويدعى كنجي (Kenge) برحلة مع أحد علماء الأنثروبولوجيا، ويسمى كولن تيرنبول (Colin Turnbuill) إلى سهل منبسط؛ حيث رأى لأوَّل مرَّة في حياته مسافة تمتد أميالاً.

وإليك ما كتبه "تيرنبول" عن هذا الحديث:

نظر كنجي عبر السهول إلى مكان يوجد فيه قطيع من مائة ثور ينظرون إليه من على بعد أميال. فسألني: ما نوع هذه الحشرات؟ فأخبرته أنها ثيران، وأنها في ضعف حجم ثيران الغابة المعروفة له. فضحك بصوت عال وأخبرني ألا أحكي مثل هذه الحكاية السخيفة وسألني مرة أخرى عن نوع هذه الحشرات. ثم أخذ في التحدث إلى نفسه وكأنه يبحث عن رفيق أكثر ذكاء وحاول أن يجد رابطه بين الثيران وأنواع الخنافس والنمل المألوفة لديه. وظل على هذه الحال حتى ركبنا في السيارة إلى حيث يوجد قطيع الثيران. وأخذ يراقب القطيع والثيران تبدو أكبر فأكبر... ورغم شجاعته، مثله مثل كل الأقزام، إلاَّ أنه تحرَّك وجلس بجانبي ودمدم قائلاً بأنَّ هذا سحر. وأخيرًا عندما تحقَّق من أنها ثيران حقيقية، كفَّ عن الخوف، ولكن ما كان يحيّره هو السبب في أنها كانت تبدو صغيرة جدًّا،

وإذا ما كانت فعلاً صغيرة وكبرت فجأة. أو أن هناك خدعة في الأمر"[٢٨].

على الباحث المتأنّي أن يقرأ النصَّ عدَّة مرَّات، ثم يكتشف العلاقات غير القريبة، وغير المختزَلة التي يحويها؛ والمطلوبُ هو صياغة صور مركَّبة، لما يمكن أن يقود إلى مفاهيم "معقَّدة وبسيطة" في آن واحد؛ ذلك "أنَّ المعقَّد دائمًا يكمن طيّ البسيط، وأنَّ البسيط يولد أبدًا من رحم المعقَّد".

وسأحاول أن أقود عملية "النحت"، بطرح جملة من الأسئلة، ليست هي بالأجدر يقينًا، لكنَّها ستكون محرِّكة للفكر، بحول الله تعالى:

• هل يندرج النصُّ ضمن "رؤية للعالم"، مِن نوع ما؟ غربية مادية موضوعية، مثلاً؟ أم أنه مجرَّد وصف مجرَّدٍ علميٍّ موضوعيٍّ لا أثر لأيِّ "رؤية كونية" فيه؟

• هل "مصدر الخبرة" هو "المشاهدة والتجربة" فقط؟ أم ثمة "مصادر أخرى" للخبرة، متجاوزة متعالية، لا ترد في النص أعلاه؟

• في أيِّ نوع من الأخطاء نصنِّف خطأ صديقنا القزم "كنجي"؟ هل هو خطأ في الإدراك، أم في العلم، أم في المعرفة، أم في المعتقد...؟

• كيف نقوم بعملية إسقاطٍ لهذه القصة إلى مستويات أعلى، من مثل جعل "الملحد" مثلاً، في مستوى "القزم"، واعتبار حدود إدراكه النافية للغيب، في حجم إدراك الأقزام للمسافة؛ والذي حمله إلى مسافات أكبر، هو الدين، ولكنه -للأسف- اعتبر ذلك من قبيل "السحر والخدعة"؟

• كيف يتمُّ الربط بين ما ورد في القصة و"منظومة الرشد" بعامة،

---

[٢٨] نـدا. ل، دافيـدوف، مدخـل علم النفس، ترجمة، د. سـيد الطواب، وآخريـن، الدار الدولية للنشروالتوزيـع، ط:٤، ١٩٨٣، ص:٢٨٠-٢٨١.

ومقال "الطيور الرشيدة"[٢٩] بخاصة؟ وما هي الاستنتاجات التي نتوصَّل إليها حول "الوعاء والنسيج الحضاري"، دون الوقوع في فخ "المثال" أو "الخبرة الذاتية"؛ حتى لا نكون في مقام "كنجي" طبعًا؟

لا أزيد على هذه الأسئلة، والموضوعُ للحوار والنقاش العلميّ الفكريّ، مِن أي تخصُّص كان، شريطةَ أن يلتزم حدود المنهج، وأخلاق العلم، وهدف الارتقاء بالمعرفة إلى حدِّ الفعل والحركية؛ لا لمجرَّد "لوْك الكلمات مثل العلك"، أو التشدق بها متعة، مثل "السلام البارد".

ولا شكَّ أنَّ هنالك من الخبرات والمعارف والمنطلقات... التي تكوِّن خلفية جمهور المتلقين والمشاركين، ما يكفي لإنارة درب الفهم، وصناعة "حكم" بل "أحكام"؛ وقبل ذلك تأسيس "تصور" أو "تصورات".. مختلفةٍ، ثرية، فاعلة... فثقتي في عقل الإنسان وفطرته حين تصفوان، تفوق كلَّ اعتبار. غير أني أترك بين يدي القارئ مصطلح "جغرافية الإدراك"، الذي أعني به: حدودَ العقل، وقدراته، وملكاته، وخبرته... في إدراك الأبعاد الجغرافية، والتاريخية، والدلالية، والمفهومية، والفيزيقية، والميتافيزيقية، والشهودية، والغيبية... الخ.

فعموم العقول تنقسم إلى حدَّين رئيسين، يتراوح الناس بينهما دنوًّا وعلوًّا:

- عقلٍ بدائيّ، مخلدٍ إلى الأرض، تابع للهوى، قصير الامتداد؛
- وعقلٍ كريمٍ، محلِّق في السماء، متجاوز للمسافات، يغرز إدراكه في الأزل، من خلال الوحي؛ ويلقي شبكته -مثل صياد ماهر- نحو

[٢٩] ينظر: مقال "الطيور الرشيدة" من هذا الكتاب.

الأبد، باعتماده الوحي؛ أبرزُ وصف لجغرافية الإدراك عنده، أنها تتشرَّب الحسَّ المرهف، والعقل الذكي، والوجدان الصافي، والحدس الملهم، والخيال الواسع، واليقين الصادق... تحت إمرة ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾(يوسف:٦٨)، و﴿اتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾(البقرة:٢٨٢)، و﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ﴾(يوسف:٦)... الخ.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.. فاللهم أكرمنا بنور الفهم، وأخرجنا من ظلمات الوهم، وافتح علينا حكمتك، وانشر لنا من خزائن علمك... يا عزيز يا وهاب... آمين.

الطحالب الآلهة[٣٠]

أطالع أغلب ما يقع بين يديَّ من كتب ومقالات عن الزمن، فأجد البعض منها مَصاعدَ للرقي والتألق، وأجد البعض الآخر مستنقعات للأفكار المتخثرة الفاسدة؛ وكثيرٌ منها ما هو إلاَّ "رجع الصدى"، جمعها أصحابها بعملية "نسخ-لصق"، التي صارت يسيرة جدا، في عالم الإعلام الآلي؛ ولقد وقعت عيني، بفضل صديق لي في الأكاديميا، على كتاب مترجَم، لكاتب لم أعرفه من قبلُ، وهو "إدواردو غاليانو".

وحيث إنني لا أصدِّق أنَّ كلَّ ما جاء من الغرب هو سمن وعسل، إذ كثيرًا ما يأتي منه السمُّ الزعاف؛ كنتُ دومًا أقرأ بعناية ونقد وتفحُّص؛ فجاء هذا الكتاب، هذه المرَّة، معنونًا بـ"أفواه الزمان"، ليصكَّ آذاننا بصوت هو من أنكر الأصوات، إنه صوت "الصدفة والتطور والعبثية"، فقلت في نفسي: "ما الذي جاء بهذا إلى هذا السياق، سياق البحوث الزمنية؟".

وكان الجواب: "إنَّ الضلال -اليومَ- لا يفتر ولا يتوانى عن افتكاك المساحات في عوالمنا وأفكارنا، فهو عَمَّال ومجتهد، بينما الصلاح للأسف -في وقتنا- كثير منه وقع ضحية كسل أهله، وتقاعسهم عن المهمَّة!".

قال غاليانو "فضَّ الله فاه" -إن صحَّت العبارة، واستجيب الدعاء-: "قبل الماقبل، في أزمنة طفولة العالم، عندما لم تكن ثمة ألوان وأصوات، كانت هي، الطحالب الزرقاء، موجودة، وكانت تطلق أوكسجينًا، فمنحت

---

[٣٠] العمرانية / إسطنبول، ٣ يناير ٢٠١٢.

لونا للبحر والسماء. وفي يوم طيب، في يوم استغرق ملايين السنين، خطر لطحالب زرقاء كثيرة أن تتحول إلى طحالب خضراء. وراحت الطحالب الخضراء تولِّد، قليلاً قليلاً، إشنيات، فطورا، وتولِّد كلَّ الألوان والأصوات التي أتت، أتينا، فيما بعد، لنملأ البحر والبر صخبًا... ومن العالم القديم الذي كان، تنظر هذه الطحالب إلى العالم الذي صار، لا أحد يعرف رأيها."

حقًّا، إنَّ من الناس مَن يُنسب إلى العلم، ويؤلِّف كُتُبًا وأسفارًا، لا يحترم نفسه، ولا يعرف قدْره؛ فيظن -وهو الجاهلُ- أنه يعلم شيئًا، ثم يُلقي به حنْظلاً وزقُّومًا، فتتلقّفه الفِراخ الجائعة، وتصنع به حلوى ودعايات؛ ثم تسوِّقه إلينا، كما هو، بلا نقد ولا تمحيص، كأنما جاء من الملأ الأعلى؛ فإذا ما واتت الفرصة، سمعتهم يقولون: "الغرب هو العلم، هو الحضارة، هو الصواب... وغيره، كلُّه، بلا استثناء، هو التخلُّف، والهمجية، والجاهلية..." وكثير منهم يتجاوز حدَّه فيلقي باللائمة على "الوحي"، وعلى "رسول الوحي"، بل حتى على "ربِّ الوحي" تعالى علوًّا كبيرًا.

وها نحن اليوم أمام إله جديد، بل آلهة جديدة؛ بعد أن كان الإله المُشار إليه بالبنَان، هو العلمُ والعلموية، والمادة والمادية... فجاء هذا "الإله: هو الخالق -في اعتقادهم- وهو البارئ، المصور، المبدع، القديم"!.. تحت مسمَّى "الطحالب"! ذلك أنها هي التي أوجدت ذاتها، وهي التي منحت الزرقة للكون، وهي التي "خطر" لها أن تتحول إلى طحالب خضراء، فعمدت الطحالب الخضراء إلى الخلق، لتخلق الألوان والأصوات، والنباتات والحيوانات -بل وحتى البشر!- بعناية فائقة، وقدرة عجيبة.

وهي اليوم تراقب من علٍ، وترى المخلوقات ولا تُرى؟!

لكن، أين الدليل، وماذا يعني إلقاء الكلام على عواهنه بلا حجَّة؟ وأين العلم، وأخلاق العلم، والصدق، والأمانة؟!

كلُّ ذلك يُرمى في الزّبالة، لأجل "داروين" و"نيتشه" و"ميكافيلي" و"فرويد"... و"غاليانو"، و"هاوكينغ"... ولا نلومهم، فهذا مذهبهم، وذاك اختيارهم، وهم صرحاء فيه إلى حدِّ الصّلَف والوقاحة، ولهم عند الله جزاءُ المثل... وإنما العجب في شباب -وهم قلَّة ولله الحمد- من بني جلدتنا، ومن فتيان مدارسنا، ومن أطفال قريتنا ومدينتنا ووطننا... صاروا يردِّدون هذه السخافات، ويؤمنون بها، ويفصِلون في حياتهم بين "عبادة فردية"، هم لا يقصِّرون فيها ظاهرًا؛ و"عبادة حضارية"، لا شأن لهم بها بتاتًا.

ألا ما أقبح الجهل، وما أرذل الذل: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾(الشعراء:٢٢٧).

أمَّا نحن، فنرفع التحدي، ونقف -بعون الله- في المرصاد، مهما كلّفنا ذلك من غالٍ ونفيس، ونهيبُ بكلِّ مسلم أن يجاهد ويجتهد في حقل العلم والمعرفة، كيْما نرى اليوم الذي تشرق فيه شمس الإسلام على العالم أجمع، لا على الغرب لوحده: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللهِ﴾(الروم:٤-٥)، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾(طه:١٣٢)، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(القصص:٨٣).

فعَلَها الصِّغار![31]

خاطرة، على إثر نتائج شهادة التعليم الابتدائي للمدارس العلمية عبر الوطن:

لو رأيتَه.. تعلو وجهَه ابتسامةٌ رقيقة...

لو أبصرتَها.. تحكي ناصيتُها معانيَ لطيفة...

عيناهما تتلألآن إشراقا ملائكيًّا؛

يطيران فرحًا، ويلهجان حمدًا...

لو رأيتَه... لو أبصرتَها...

* * *

إنه هو؛ اِبنكَ وابني...

إنها هي؛ بنتكِ، وابنتي...

لكَم شحذنا همَّتهما لنيل المعالي،

ولكَم محضنا لهما النصح لبلوغ العوالي...

بنبرةٍ حادَّة، قالت الأمُّ:

"عليكما أن تنجحا، وتنيرا دربنا"...

بصوتٍ ترسُمه بُحَّة، قال الأب:

"كلُّ أملي فيكما، فلا تخيِّبا ظنّي"...

---

[31] ١٠ يونيو ٢٠١١.

بعباراتٍ منظَّمةٍ تربوية، قال المعلِّم والمعلِّمة:

"اليوم يومُكما، واليوم يومنا، فليكن يومًا سعيدًا"...

* * *

الجميع قال ما قال بلسانه، ثم رحَل...

وحدَه دخل صفَّ الامتحان...

وحدَها استقبلتْ ورقة السؤال...

وحدَهما تشجَّعا، وحمَلا القلم،

ثم دعيا، وأقدما على الجواب...

فأجابا...

* * *

قلبُه الرفيقُ كان يرقص كالبندول، من شدَّة الخوف...

قلبُها الرقيقُ كان يدق كالطبل، من فرط الرجَا...

نعم، قالوا له، وأفضَوا إليها...

صدقوا إذ قالوا، ووُفِّقوا إذ أفضَوا:

"ليست نتيجة الامتحان بداية العالم،

ولا هي نهاية الدنيا؛

إنما هي مرحلة وكفى!"

* * *

فهِم الفتى واستوعب...

حفظت الفتاةُ وأدركتْ... ولكن،

أنّى له أن يسمح لنفسه بالفشل أوان الاختبار،

وهو يأمل أن يلحق -يومًا- بركب الكبار؟!

أنَّى لها أن تهان، وهي تردِّد دوما، في مادة التعبير:

"في يوم الامتحان، يكرم المرء أو يهان؟!"

أنَّى لهما أن يتحمَّلا دمعة حرَّى سخينةً،

تسيح على وجنتي الأمِّ الحنون؛

لأنهما لم ينيرا دربها؟!

أنَّى لهما أن يُبصرا الأبَ وقد جفَّت مآقيه أسًى؛

لأنهما خيَّبا ظنه؟!

أنَّى لهما أن يغيبا مع الغائبين،

ويدفعا إلى الحزن المعلِّمات والمعلِّمين؟!

أنَّى لهما ذلك؟

* * *

أمَّا اليوم، فأردِّدها مدوّية:

"فعلَها الصغار، وتحدَّوْنا نحن الكبار...

طوبى لهم ثم طوبى"..

فلتسمحي لنفسك أمِّي،

ولتغالبْ عزَّتك أبي،

ولتنحَنِيا شكرًا لله، ولتسجُدا حمدًا،

ولتنثُرا على وجنتيهما قُبلة تملأ الدنيا حبًّا وحبورًا...
ثم، لِتفتحْ ذراعيك أخي المعلم، وأختي الملعِّمة، عريضًا...
ولتعانقا هذا الشبل، وتلكم "الشبلة"،
بحرارة لا متناهية...

* * *

أمِّي أبي، معلِّمي معلِّمتي...
كما الطفل الوليد، أُرمُوا بنا،
بكلِّ طاقتكم، إلى السما...
عاليًا... عاليًا...
فإنما خُلقنا للمعالي...
آمالنا الجوزاء... وهمَّتنا الثريا،
هنالك تسكن أرواحنا،
فضمُّونا،
وعانقونا،
وعلِّمونا،
وادعوا لنا...
فهذا دعاؤنا، نحن الأطفال:

دعاء الأطفال، للشاعر محمد إقبال

أدعو وتتوالى الأماني على شفتاي،
ليت حياتي تصبح كالشمعة.
فتتبدد بضيائي ظلماتُ الدنيا،

ويلمع كل مكان باحتراقي.
ويصبح وجودي زينة لوطني،
كما يكون الزهر زينة الحديقة.
ليت حياتي تصبح كالفراشة،
وليت هناك مودة بيني وبين العلم.
ولا يكون همّي وشُغلي غير حماية الفقراء،
ومحبة المنكوبين والضعفاء.
يا رب، قني شر الذنوب،
واهدني صراطك المستقيم...

فلسنا بطير مهيض الجناح[٣٢]

الطائر المهيض الجناح، هو الطائر الضعيف، الفاقدُ للقوة والقدرة؛ فكَم من إنسان فوق الأرض، وكم من مسلم مسلوب العرض، هم اليومَ أشباه هذا الطائر المسكين.. إنهم يعرِفون ويُدركون أنهم أذلاَّء ضعفاءُ عاجزون، وهم باللسان وبالقلم، بالمقال وبالقصيد، لطالما عبَّروا عن هذه الحال الآسفة، إلاَّ أنهم في الفعل والحركة، في المخطَّط والأسباب، في المسالك والوسائل... في كلِّ ذلك هُم أعجز من العجز ذاته. الواحدُ منهم عبد مملوك، ﴿أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾(النحل:٧٦).

لكن، رويدًا.. ثمَّة في مناكِب هذا البلد الحزين، تقف قاماتٌ شامخةٌ من الخيِّرين، بعضُهم في شمال البلاد، وآخرون في الجنوب، يقفون وقفة الرجل الواحد، الشجاع المقدام، ليقولوا بصوت متناغم: "لا، وألف لا".

قالوها، لا بالكلام فقط، لكن بالحراك والحركية، بالأعمال والمشاريع، بالصبر والمصابرة، بالعلم والمعرفة... فأصِخ أخي أذنيكَ لتسمع دويَّ "لائِهم" يملأ الربوع أملا وحبورا، ولا تكن في طريق الخير من الغافلين، ولا عن شعاع الحياة من المغمِضين.

مِن بين هؤلاء، نسجِّل بافتخار ثلَّةً من الشباب الربانيِّ الإيماني، الأحمدي المحمدي، القرآني الحضاري.. جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميق، ليشهدوا نفحات "أيام الرشد" في معهد المناهج؛ فكانوا الغيث وكنَّا

---

[٣٢] معهد المناهج / الجزائر، ١٧ يوليو ٢٠١١.

الأرض، وكانوا الطاقة وكنا الوعاء، وكانوا المستقبل فكنَّا الحاضِر؛ هم بحقٍّ فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدًى، يردِّدون مطلع كلِّ شمس، الدعاءَ المشهور المأثور: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾(الكهف:١٠)... فاللهُ -بإذن الله- مستجيبٌ أدعيتهم الشجية، ومُنزِلهم المنازل العليَّة، مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين... ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٦٩).

اليومَ، وقد خطَت الحضارة، بإذن الله، أولى خطواتها من هذا الممرِّ، يحقُّ بالشباب الراشد أن يُنشد بصوت نافذ، وبنغمةٍ أخَّاذة، مع الشاعر الفحل، بيتَه:

فلسنا بطيرٍ مَهِيض الجناح ولن نُستذلَّ ولن نُستباح

وهي لكلِّ مَن رام إذلالاً لوطننا وأهلنا وديننا وتاريخنا وحضارتنا وذاتنا... لكلِّ هؤلاء هي رسالةٌ صريحة واضحة، لا تقبل الجدل ولا المراء، و"إنَّ غدا لناظره لَقريب"... لكن -فقط- المهمُّ أن يدوم هؤلاء الأبطال على العهد، ويصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقوا الله... فهم بحول الله مفلحون.. وهم بفضل الله راشدون، مرشدون...

آمين... آمين... آمين.

النصرُ آت... النصرُ آت[٣٣]

أحبّتي، إخواني، أصدقائي... يا مَن عبَّدتم بداياتِ الطريق، أوان المنعرجات والندبات... ويا من أشعلتم شموع الفعل، زمن الأحلام المدلهمَّات... ويا من وقفتم كالجبال، للعواصف تصفع وجوهكم من الداخل قبل الخارج... يا مَن فيكم بذرةٌ من تفاؤل، ومعكم حفنةُ من أمل... لا تهنوا ولا تحزنوا... ولا تفرحوا ولا تمرحوا... النصرُ آت... النصرُ آت... إنَّه آت من بعيد، ولكنَّ أكثر الناس لا يفقهون.

قال المنتبه الولهان: وماذا عن الساسة؟

قلت: دعوهم وشأنهم، اتركوهم يرتاحون على كراسيهم... مَن صَدق منهم فكونوا له، وليكن لكم... ومن خان منهم، فولُّوا وجوهكم عنه، شفقة لا حقدًا.

قال: وماذا عن العلماء؟

قلت: هم المنارات، لكن لا تنتظروا من منارة واحدة أن تضيء لكم العالَم كله، وفي كلِّ زمان... وإلاَّ أبقى الواحدُ الخلاق الشمسَ في الأفق، لا تختفي إلى يوم الدين.

سألني الصاحي، وهو يرسم لوحة من الحيرة على جبينه: "ماذا عن الدعاوى الجديدة؟".

قلت: أمرها إلى الله... فإن صدقت وفِّقت، وإن كذبت عذِّبت... وليس من شأننا التدخل في الحكمة الإلهية، ولا من صلاحيتنا التوقيع باسم

[٣٣] معهد المناهج / الجزائر، ٢٨ يناير ٢٠١٠.

العزيز الوهاب... فعلَ بعض الناس، بل ديدنَ كثير من المدَّعين على الناس، ممَّن نعرفهم في لحن القول، وهم أقرب إلينا من خيط العنكبوت.

قال، وقد انضمَّ إليه المئاتُ من التلاميذ، وطلبةُ العلم، والمحبين: نحن جنودك، فبما تأمرنا؟

قلت: لستُ قائدًا، ولا إمامًا، ولا زعيمًا... أنا حبَّة ذرٍّ في الكون الفسيح... بِكم ومعكم نبْني الممكن، ونحاكي المستحيل.... فابحثوا عن إمام جديد.

قالوا: لا إمام لنا.

بكيت على حالهم، وتذكرت أنني كذلك لا إمام لي... ثم استغفرت الودود الحليم، **فقلت**، وأنا معتقد ومؤمن: ما دام كلام الله نورنا، فلا حرج... وما دام المصطفى قدوتنا، فلا حرج.... وما دام العلماء يأخذون بأيدينا، فلا حرج...

ثم تابعتُ حديثي، بهدوء واطمئنان: إمامي اليومَ، ومُرشدي اليوم، وآلامي وآمالي... وأفكاري وأعمالي... على نهج القرآن الكريم، وسنّة النبي المبين، على آثار الفكر والمفكرين... لا على شاكلة المدعين المزوِّرين... المغتصبين للمعنى، الظالمين للحضارة... الحاملين الناسَ على الوهم، والحالمين بعهد جديد على إيقاع "إمامة الجاهل"، أو على خطى "أنت إمام نفسك".

قال أحدهم: وإمامة الفقه، ماذا تفعل بها؟

قلت: لكل إنسان مذهب يتمذهب به، وإني أرى المذهبية الفقهية قد انحسرت في الشعائر، فلا أتنكر لها ولا أنفيها... غير أنَّ الفكرَ هو مذهبي، ومالك بن نبي، وعلي عزّت بيجوفيتش، ومحمد مهاتير، وعمرو النامي،

وعبد الوهاب المسيري، وفتح الله كولن... هم أيمَّتي... بهذا ألقى الله، ولا أبالي...

قال أوسطهم سنًّا وفهمًا: أما تخشى المؤسسة التقليدية أن تقصيك من القائمة كما أقصت مَن قبلكَ؟

قلت: لا أخشى إلاَّ الله وحده، ولا أعتبر تزكيتها تزكية، ولا رفضها رفضًا، ولا قبولها قبولاً، ولا حكمها حكمًا... ما لم تُجب على أسئلة العصر المحيِّرة، وما لم تكن معنا على صفٍّ واحد في وجه التخلف، والاستعمار، والفقر والفرقة والظلم... فأيمَّتي -في الفكر والفعل، بحمد الله- أسود على الوضعية، جبال أمام الإمبريالية... قادة للفكر الحر، ورواد للتغيير والرشد... أحدثوا الفرق في العالمين، ورجحوا الكفة للخير على الشر، فأغاضوا المشركين...

التفتتُ إلى الحضور، فسألتهم: وماذا عن أيمَّتكم القدامى؟

عاد إليَّ الجواب خاسئًا حسيرًا ذليلاً...

فقلت: إذن، لا جواب؟!

أطلق البلبل تغريده... وصفَّق النسيم على أوراق البنفسج... فأذَّن المؤذِّن معلنًا ساعة الحقيقة... لمن أراد الحقيقة: "حي على الفلاح... حي على الفلاح... النصر آت... النصر آت...".

هل حان الأوان؟[٣٤]

هل هو الشوق القاتل يُحرق ما تبقى من رماد قلب حزين؟

هل حان وقت الأذان للإيذان بميلاد فجر جديد؟

هل مياه مرمرة جديرة بتبريد اللواهج، ولو كان بعضُها لبعض ظهيرًا؟

أم أنَّ بلاد "المالاو" أقدرُ على فضِّ نتيجة المقابلة لصالحها؟

هناك.. على طاولة المرمر، تزَّين مقامه حبات الثلج، في شتاء تأخر نزوله احتجاجًا على القلوب الخائرات... في بلدة أقرب إلى بلاد الغابرين.

هنالك من عمَّان الأردن، بما فيها وبمن عليها...

من هنالك فكَّر صاحبنا وما قدَّر... أو أنه قدَّر وما فكَّر... فمرحبًا بما قدَّر ومرحبا بما فكَّر.

من هنالك.. نادى متحدّيا أغوار الحزن الدفين: أنْ يا خيلَ النصر اقتربي... ويا جيش الفاتح -ويحك- تحرَّك؛ وما تحرَّك الأحياء فالأوان أوانُ أرباب الأجداث... رجاء تحرَّكوا.

هل تُراني ألاحق الأشباح من أقاصي الدنيا إلى أدانيها؟ كالمجنون أنقِّب عن الصدق في أرض جُرز يباب؟

ومن يدري، لعلَّ الخضرة -يومًا ما- تنتفض من جوف صحراء "عين صالح" الرملية؟

مَن يدري، لعلّ بين جميع القلوب قلبٌ يخفق بالأسى، ويتحرَّك للوجد... هائمًا على رأسه، وما استطاع صرفًا ولا نصرًا؟

---

[٣٤] عمان / الأردن، ٢٠ مارس ٢٠١٠.

من يدري؟

لا مكان للألم، ولا زمان لليأس.

قطرة من رذاذ الفلوات قد تُحيي أمَّة مواتا قتلها العار، وأرداها الشنار.

من يدري؟

ليس الشأن في الكثرة، ولا الشأن في القدرة... وإنما الشأن في التوفيق والقبول.

هل تراني أكون ذلكم العصفور المبلَّل، الذي يصارع الصقور والنسور.. لوحده.. بلا هوادة.. غير مكترث أأدمَوا جناحية، أما أغاروا صدره.. دَمًا...

لعلَّ شيئًا من ذلك كائن، أو بعضًا من أولئك آت... ولكن، يقينًا ثمة تغيُّر... ثمة لحظة تحوُّل... لحظةٌ لا أصفها لئلاَّ أذهب جلالها، ولئلاَّ أغتصب جمالها...

نعم حان الأوان!

من آخر الفرسان إلى عودة الفرسان[٣٥]

آخر الفرسان

رواية -بل حقيقة- حملَنا فيها الأنصاري إلى "بَارْلاَ"، حيث آوى بديع الزمان النورسي، فكان فيها رفيقَ الخلوات وسيدَ الجلوات... "بَارْلاَ" التي فتحت له قلبها، ففتح الله عليه -وعليها- نورًا من نور كلام الله، وكتب للناس "رسائل النور"، يُحيي بها رميم موتى القلوب، ويكتب للناس سيرة الغد وخطَّ المستقبل.

"بَارْلاَ" هذه التي شهدت نطق الحكيم بحكمه على الزمان والمكان... وعرفت كيف قيَّم الرجلُ الربَّاني العصر والمصر... وكيف كان "سدًّا" مثل سدِّ ذي القرنين في وجه الإلحاد والكفر.

لكن الناس لم يصبروا، فقد كان وهج "بديع الزمان" أشدَّ لظى ممَّا يتحمَّله أبناء هذا الزمان... وأنى لهم أن يصبروا، وما صبر موسى عليه السلام، وقد عرف الظواهر وذهل عن الأسباب.. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾(الكهف:٦٨).

في "مقام الرحيل" غنَّى "سعيد الجديد" آخرَ لحن من ألحان الزمن الجديد... لحنٍ لم تسمعه الآذان إلاَّ بعد عقود، ولم تدرك الفهوم كنهه إلاَّ آخر العهود...

يقول -طيّب الله ثراه- في "مقام الرحيل": "أستودعكم الله إخوتي... إنني راحل".

---

[٣٥] عمان / الأردن، ٢٣ يناير ٢٠١٠.

لم يصبر الطلبة والعامَّة، ولا المحبُّون ولا أهل الجنون... فاحتجُّوا، وكأنهم يعيدون للكون قصَّة موت المصطفى، وقد انتفض الفاروق مُشهرًا سيفه، وهو يقول: "من قال إنَّ محمدًا ﷺ قد مات قتلتُه بسيفي هذا"... فما صبر عمر ﷺ، وهو الجبل الأشم، فأنى لهؤلاء أن يصبروا؟!

عرف بديعُ الزمان ما سيؤول إليه مَن بعده، فنصحهم نُصح نبي لقومه... التفت إلى طلابه قائلاً: "فالصبرَ الصبرَ على آفات الزمان... فلربَّما تلبدت السماء بالغيوم أيامًا، لكن لا سلطان للظلام بعد اليوم... وانتظِروا قليلاً، فوارثُ السرِّ سيظهر فيكم، لقد خاطبته برسائلي منذ زمان. كنتُ في الماضي، وكان هو في المستقبل، وإنما نحن روح واحد!. وإني لأراه قادمًا من هنالك، ثم مدَّ يده وأشار إلى الأفق... التفتت الأطياف إلى جهة الإشارة فرأوا عجبًا!".

سكتتُ، فأغلقتُ دفتري، وأطفأت شاشتي... ودخلتُ في تأمُّل وتفكُّر بعيد.. بعيد.. بعيد...

أيقظني المنتبه المصغي، **فقال**: ويحك يا صاحِ... هذا "آخر الفرسان"، فماذا عن "عودة الفرسان"؟

قلت: هنا حدُّ البيان.. حان للرحيل الأوان.. فانتظر العودة بشوق.. إنها قادمة، أراها رأي العين.. انظُرها معي...

عودة الفرسان

عودة الفرسان حقٌّ.. عودة الفرسان صدقٌ... قد يتقاعس عنها المذنبون، وقد يتردَّد في شأنها الغافلون، وقد يشكك في إمكانها المنظِّرون... لكنني أراها رأي العين، ماثلةً أمامي بهامَتها وقامَتها، أراها حقيقة ناصعةً لاشية فيها.

أتمثَّل "عودةَ الفرسان" عروسًا تهزأ من أنصاف الرجال، وتقول بملء فيها: "كونوا رجالاً أكُن لكم، وإلاَّ فلا كنتم ولا كنَّا"... ولا غرو، فإنَّ عدل الله سيسوق لي من يملأ دنيايَ "رجولة"، ويعمرُ آفاقي "فحولة"... فلا تمنُّوا عليَّ -اليوم- إسلامَكم".

"آخر الفرسان" وحيدُها بديعُ الزمان، و"عودةُ الفرسان" إمامُها فتح الله، وقائدُها "كولن"... أمَّا جنودها فشباب ربَّانيُّ المقامات، قرآنيُّ النبرات، محمَّديُّ النفحات.

فرسان العودة في "عودة الفرسان" هم ورثة الأرض، الذين صنعهم فتح الله، رجلُ الأسرار، على بصيرة، وقال عنهم ضارعًا إلى الله في جوف الليل: "مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين... يثُورون على كلِّ المعايير المألوفة، يتجاوزون كلَّ المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرون وإليها لا يلتفتون. أريد حفنة ممَّن نُسبوا إلى خفَّة العقل لشدَّة حرصهم على دينهم وتعلّقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدَحهم سيد المرسلين ﷺ، إذ لا يفكّرون بملذّات أنفسهم، ولا يتطلعون إلى منصبٍ أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين... يا ربِّ، أتضرَّع إليك.. خزائنُ رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كل سائل مطلبه، أمَّا أنا فمطْلبي حفنة من المجانين... يا ربِّ، يا ربّ"[٣٦].

سأل فتحُ الله عن هؤلاء الأرضَ والسماء، السمكَ والطير، الإنسَ والجنَّ... علَّه يجدهم، فيملأ بهم العالَم عدلاً بعدما ضجَّ جورًا، وينشر

[٣٦] مجلة "حراء"، العدد:١٤ (يناير-مارس ٢٠٠٩).

بهم السعادة -في دنيانا- حبورًا... فنادى بأعلى صوته لعلَّ الآذان تصخ، أو لعلَّ القلوب تلين، فقال: "الدنيا تدور وتدور... وكلَّما دارت، فإنها تؤوب إلى فلَكها الأصليّ. فيا ترى هل ورَثة الأرض الحقيقيّون جاهزون لاسترداد ميراثهم الذي أضاعوه، وسلبه الآخرون؟!"[٣٧].

قاطعني الهائم في أفكاره، وهو يتمتم ويرسل خيوط عينيه شظايا شظايا، فقال: "لكن، ما قصدُك يا صاح، من كلِّ هذا الرسم؟ أما بُحتَ بقرارة نفسك؟ هلاَّ أرحتنا من الإيماءات والإشارات؟".

ثم صعَّد زفرة حتى بلغت مدى السماء، وقال: "أمَّا الفارس العائد، فتحُ الله، فقد عرفناه في قوله وفعله، في فكره وأثره...عرفناه وما عرفنا له مثيلاً ولا ندًّا... ومن لم يعرفه كفَتْه هذه الكلماتُ ليرى النور يشعُّ على الكون من جنباتها، فيبسط الخير في كلِّ ذات... أمَّا أنتَ يا ولهان، فما شأنك، ما بالك، وما قصدك؟.... أما أفصحت؟"

قلت: "سأخلد إلى غموضي ما لم أهتد إلى آخر الفرسان، أجلسُ إليه ليلقّنني حرفًا من نوره، أو يعلمّني ممَّا علِم رشدًا... حرفًا ونورًا ورشدًا... نورًا ورشدًا... رشدًا".

وأطلقت تنهيدة أنْسَت زفراتِه، وغطَّت على آهاته: "نعَم، سأحتمي بِصمتي، ما دامتْ ملامح "عودة الفرسان" لم ترتسم على شفاه الوجود كليَّة، ولم تتحوَّل -هذي الملامح- قوسَ قزح ينشر الأكوان عدلاً، وصدقًا، ونصرة، وتمكينًا...".

انتهى وقت الكلام، فنشر الصمتُ أريجه على أكمام الفل والياسمين...

---

[٣٧] ونحن نقيم صرح الرح، فتح الله كولن، ص:١٣.

وهمَّ صاحبي أن يسأل، لكنَّ غفوة من نوم هنيٍّ ألمَّت به... فقام الليل الساكن مقامَه، سائلا: "ماذا بعد عودةِ الفرسان؟"

قلت: "بعد الليل يأتي الصبح، وبعد العودة يكون النصر... فإلى ذلكم العهد الجميل، أستودعكم الله... والسلام... إلى لقاءٍ جديد... بعد أمد غير بعيد".

الإمام البوصيري يحتفي بحراء[٣٨]

إذا كان الغار في لغة الجيولوجيين مجرَّد فجوة في جبل؛ فإنَّه في تاريخ البشرية لحظة تحوُّل، ليس لها مثيل في الأوَّلين ولا في الآخِرين.

إنَّ حراء هو نقطة التقاءٍ بين السماء والأرض، بين الخالق والمخلوق، بين القادر والعاجز، بين العالِم والجاهل؛ فمِن جهة يسمو الربُّ الأكرم، العليمُ الحكيم؛ ومن جهة يقف الإنسان الحائر، ممثَّلاً في شخص الرسول الكريم ﷺ؛ الذي امتنَّ عليه ربه فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۞ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾(الضحى:٥-٨).

وبين هذا وذاك شُرِّف جبريل عليه السلام بحمل رسالة الله إلى العباد، قال سبحانه في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(الشعراء:١٩٢-١٩٥).

* * *

أمَّا مجلة "حراء" فهي، في عرف الورَّاقين والناشرين والقرَّاءِ العاديين، لا تعدو أن تكون ورقًا وحبرًا، وصورةً ولونًا، ومقالاتٍ وشعرًا... مَثلُها كمثل الملايين من المجلاَّت التي تصدر في العالم، بجميع لغات البشر. غير أنَّ "حراء"، عند العارفين المنصِفين الموقنين، هي لحظة فارقةٌ في نهضة الأمَّة الإسلامية اليومَ؛ وهي نقطة تحوُّل إلى العربية، لغةِ القرآن والحضارة الإسلامية؛ ذلك أنها تزدان باللسان العربي المبين، وتزدهي

[٣٨] معهد المناهج / الجزائر، ٢٣ شوال ١٤٣٢هـ / ٢٣ سبتمبر ٢٠١١م.

بالفكر الإسلامي المتين.

• إنَّ "حراء المجلَّة" لهي قبسٌ من نور "حراء الغار"؛ بل هي فيضٌ من فيوضات الوحي الحكيم، المنزَّل على النبي الكريم ﷺ.

• فـ"حراء" شجرةٌ طوبى من أشجار جنَّة العلم والعمل، والفكر والفعل... سأل نبي الله عيسى عليه السلام ربَّه: "يا ربِّ، وما طوبى؟"، قال جلَّ من قائل: "غرسُ شجرةٍ، أنا غرستها بيدي!".

• و"حراء" أنشودة رمزية، سبك أنغامها الأستاذ فتح الله، الرجل الخرِّيت الرائد، وقد أنشد لأجل ذلك، بعدما قارب وسدَّد:

إذا الرؤوس خوت... والأرواحُ ضوت... والفضاء الوسيع ضَنَّ بالكثير والقليل!

وإذا الآذان صُكَّتْ... وتأذَّتْ... من ضجيج الصوت... وتافِه القول... وخليط كلِّ ناعق وصائح!

وصفاءُ الروح... كدرًا مغبَّرًا غدا... غبَّرَتْهُ الآثام... وكدَّرتهُ الذنوب...

وها هي الجموع... من هَمٍّ ما تجد... أَكُفَّ الضراعة ترفع... وتبتهل وتتضرَّع..!

فيا ربِّ افتح الأبواب.... وأنزل الرحمات... وخذ بيدي.

أنا الآتي إليك من بعيد الْمَهَاجر... وقصيِّ المسافات![٣٩]

* * *

سادتي، هذه "حراء" التي حلَّت اليوم ضيفًا على جزائرنا، ونال "معهدَ المناهج" من تلكم الزيارة المباركة حظٌّ عظيم؛ ولقد واللهِ أورق الزمان

[٣٩] ديوان "ريشة العزف المشقوقة" (شعر "راجع أنا")، فتح الله كولن:
http://ar.fgulen.com/content/view/٨٩٤/٧٤/

بمقدمها الميمون، وطاب المكان، وزكا الإنسان... فمرحى ثم مرحى، وإنا لا نملك إلاَّ أن نقول لكم جميعًا: "حللتم أهلاً، ونزلتم سهلاً"، فأنتم أهل الدار، ونحن الضيوف؛ وأنتم أهل الفضل والكرم، ونحن المعترفون بفضلكم وكرمكم... سادتي.

أخيرًا، لا نجد أفضل من الإمام البوصيري الجزائريّ الدلَّسي بلبلاً شاديًا، يقوم مقامَنا، ثم يُنشد عن غارٍ لا يقلُّ أهمية وقدرًا من "غار حراء"، هو أكيدًا "غار ثور" الأشم، وإنا لنرجو أن تُسقى مجلةُ "حراء" من معانيه وابلاً، فإن لم يكن وابلاً فطل... قال، لا فضَّ فُوه:

وما حوى الغارُ مِن خيرٍ ومِن كَرَمِ ... وكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الكفارِ عنه عَمِي
فالصدقُ في الغارِ والصدّيقُ لم يَرِمَا ... وهُـم يقولون ما بالغارِ مِـن أَرِمِ
ظنُّوا الحمامَةَ وظنُّوا العنكبوتَ على ... خيرِ البَرِيَّةِ لم تَنسُجْ ولـم تَحُمِ
وِقَـايَـةُ اللهِ أغـنَـتْ عَـن مُـضَـاعَـفَـةٍ ... مِنَ الـدُّرُوعِ وعن عالٍ مِنَ الأُطُمِ

داعين الله أن يقي مجلتنا الفيحاء كلَّ شرّ، ويسوق إليها كلَّ خير، ويجمعنا في رحمته، ويُبرم لأمتنا أمرًا رشدًا.... آمين.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وحيد الدين خان..
"ما هي الحكمة؟ إنه أكبر سؤال في حياتي"[٤٠]

كان صرح "الأكاديميا"، ومجلة "حراء"، بشامْليجا / تركيا، مسرحًا لزيارات وفود عديدة، من مختلف بلاد العالم، كعادتها؛ ولكن وتيرة الزيارات تكاثفت هذه الأيام، بمناسبة انعقاد الملتقى العالمي حول "السراج النبوي".

ولقد زار يوم الأربعاء ٠٢ مايو ٢٠١٢؛ وفد من "الهند"، وآخر من "السودان"، وثالث من "الكويت"، ومن "الأردن"... وغيرها، وأخص جلسة عمل جمعتنا بالعلامة "وحيد الدين خان"[٤١]؛ صاحب كتاب "الإسلام يتحدى"، و"الدين في مواجهة العلم"، وله من المؤلَّفات ما يزيد عن مائتي كتاب، منها تفسير للقرآن الكريم، وهو الآن يشرف على مركز "السلام العالمي"، بـ"دلهي الجديدة"؛ ويشرف على مركز "خدمة القرآن الكريم"، كذلك.

زارنا العلامة، وهو يطل على المائة عام، ليس بينه وبينها سوى ثلاث سنوات؛ وكان في رفقته كل من الدكتور "زبير أحمد الفاروقي"، جامعة "الملية الإسلامية"؛ و"محمد زكوان الندوي"، مسؤول في مركز "السلام"،

---

[٤٠] بمناسبة مؤتمر السراج النبوي، الأكاديميا / إسطنبول، ٢ مايو ٢٠١٢.

[٤١] سمعت اسم "وحيد الدين خان" أول مرة من قِبل أستاذي الشيخ عبد الله كونطابلي، رحمه الله تعالى، وقد نصحنا بمطالعة كتبه؛ ثم طالعت ما وقع بين يدي من أعماله، وفي شهر رمضان قبل ثلاث سنوات، درَّستُ كتابه "الإسلام يتحدّى" في حلق رمضانية بمسجد العالية، ثم بمسجد المنار، الجزائر العاصمة.

وكذا "فريدة هانم بنت وحيد الدين"، وهي أستاذة بجامعة "الملية"، ومترجمة لكتب والدها إلى اللغة الإنجليزية.

رافق الوفد الهندي، أستاذ أصله "هندوسي"، أعلن إسلامه قبل مدة، وقد تلا أمامنا الشهادتين، وهو متأثر بالعلامة "وحيد الدين" وبأفكاره، وبروح "السلام" التي ينافح عنها؛ وكأننا نستذكر روح "غاندي" المسالمة؛ لكنها اليوم جاءت بعنوان "الإسلام".

كما كان حول دائرة الحوار، التي دامت ثلاث ساعات، في حلقتين؛ كل من الدكاترة: "دفع الله محمود"، و"الفاتح الشيخ يوسف"، و"عبد القادر أحمد يوسف خورشيد"، و"طارق علي"؛ وهم أساتذة في "جامعة الجزيرة" بالسودان، وسياسيون برلمانيون.

عرَّف "وحيد الدين" نفسه بأنه "الصوفي الداعية"[٤٢]، وقال: إنَّ أهمَّ سؤال شغل فكري، وتشبث بذهني لعدة عقود، بل طول حياتي؛ هو: "ما هي الحكمة"؟

ثم قال: ولقد وجدت أنَّ "القرآن" يجيب على هذا السؤال بروية وعمق، لا مثيل لهما في أي كتاب آخر، ذلك أنه يقر بأنَّ الحياة فيها الشقاء، والمشاكل، ولقد عبر عن ذلك بلفظ "الكبَد": ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(البلد:٤)... ولا يخلو زمن ولا عصر من التعب والضنك؛ حتى زمن النبي محمد ﷺ، كانت ثمة مشاكل ومعاناة لا حدَّ لها في "مكة المكرمة".

---

[٤٢] كانت مداخلته باللغة الإنجليزية، وهو يؤلف بها وبالأردية؛ ولقد تُرجم له إلى العربية أربعون عنوانا؛ منها تفسيره للقرآن الكريم، المعنون بالتذكير القويم في تفسير القرآن الحكيم.

ولقد فهم "وحيد الدين" من قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(الشرح:٦)، أنَّ العسر دوما ملازم لليسر، لا فكاك بينهما؛ إذ لم يقل تعالى: "إن بعد العسر يسرًا"، وإنما "مع"؛ و"المعية" تعني "الملازمة".

ولقد كانت مشاكل "مكة" متمثلة في "الأصنام"، وفي الجهل والجهالة.

هنا نجد الرسول ﷺ يعتبر زوَّار "مكَّة" سوّاحًا، يعتبرهم هو "أهلاً لأن يدعوهم"، ولم يلتفت إلى وجود الأصنام، فلم يحاربها، ولم يسبَّها، ولم يثُر عليها؛ وإنما صدح بدعوته جنبًا إلى جنب مع نداء المشركين ودعواتهم، وهذا التصرُّف منه ﷺ هو عين "الحكمة"، وهو تفسير بديعٌ للحكمة، عمليًّا، لا قوليًّا فقط.

وكان نتيجة لتلك الحكمة أن اعتنق العرب الإسلامَ، ثم انتشر عبر العالم، بهذه الروح، لا بروح المواجهة.

من هنا، التفت العلامة "وحيد الدين خان" إلى تركيا اليومَ، وقال: "إنها محط سيّاح كثيرين، ففي سنة ٢٠١١ مثلاً، زارها من السياح حوالي ٣١ مليونا، من جميع بقاع العالم؛ فالتاريخ إذن يعيد نفسه، وهؤلاء رغم كل الأصنام الجديدة، هم محلّ دعوة، فينبغي علينا بالحكمة أن نستغلّ الفرصة، وندعوهم للخير وللإيمان".

غير أنَّ العلامة وحيد الدين، فيما لاحظتُ لم يكن يعرف جهود الخدمة في هذا الشأن، وليس له تصور عن عمل "وقف الصحفيين والكتّاب"، وكذا المدارس المنتشرة في أكثر من مائة وستّين دولة؛ ولذا فطرحه ممتاز، لو أضيف له تقدير وتقويم للمجهود الفعلي العملي الراشد.

ثم عرج "وحيد الدين" إلى ذكر كتاب عنوانه "الأفاعي الثلاثة"، لكاتب عربي، وقال إنَّ القرآن الكريم هو معجزتنا، وهو ليس كتابًا للتقديس

فقط، لكنه جاء ليواجه مشكلات ونكبات العالم، بل جاء ليلتهم الأفاعي الوهمية؛ فلا خوف إذن؛ فكما أن موسى عليه السلام، خاف أوَّل أمره، ثم قال له الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾(طه:٦٩)؛ كذلك علينا نحن أن نلقي بحجج القرآن الكريم، إذ إعجازه في معناه لا في كلماته وحروفه؛ ولا يجوز أن نتردَّد أو نخاف؛ ولدينا ثقة في الله تعالى أنه سيلتهم كلَّ الأوهام والخرافات، وسيحلُّ كل مشاكل العالم، بحول الله تعالى، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٢).

وقال العلامة وحيد الدين: "إنَّ القرآن كتاب ثورة -بكلِّ المعايير- على المألوف، وعلى الفساد، وعلى الخرافة... الخ؛ فلنتّخذه دواء وترياقًا، ولنتوقف عن اتخاذه حرزًا للبركة وكفى"، وضرب مثلاً بالتتار، الذين كان يقال عنهم: "إذا قيل لك إنَّ التتار انهزموا، فلا تصدّق"؛ في آخر المطاف هزمهم المسلمون، لكن بماذا؟

الجواب: باتّباعهم لتعاليم القرآن الكريم.

ولقد قال "السير آرثر كيث"، الذي له كتاب حول "تاريخ مصر القديمة": "إنَّ الإسلام دخل مصر بالقرآن لا بالسيف"!

وذكر وحيد الدين تجربته الخاصَّة، وكيف أنه يدعو جميع الديانات والأعراق والأيديولوجيات، ثم يناقشهم في قضايا العصر، وفي مشاكل العالم؛ ويوجد لهم أجوبة وحلولا من القرآن الكريم؛ وما إسلام الكثير من الهندوس على يده إلاَّ نتيجة لهذا العمل الدعوي العلمي المنهجي المؤسَّس.

ثم ذكر أنه زار الولايات المتحدة، وألقى محاضرة في إحدى الكنائس، وفي نهاية المحاضرة قال له رجل: "إن عيسى يقول لنا: أحبَّ عدوك، فهل

في القرآن آية أكثر شفقة ورحمة هذا المعنى؟!".

قال وحيد الدين: "نعم"، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤)؛ فانظر إلى العدوِّ كيف اعتُبر "وليًّا حميمًا"؟!

ثم قال "وحيد الدين": نحن عندنا في الإسلام، لا يوجد عدو، وإنما جميع الناس صديق، لكن ثمة صنفان من الأصدقاء:

- صديق حقيق، وهو المؤمن.
- وصديق محتمَل، وهو محلُّ الدعوة، والذي ترجو أن يؤمن.

وهنا، ينقطع عني نفَس الكتابة، ولي موعد مع وفود أخرى، لعلَّ أبرزها اليوم، زيارة أستاذنا الدكتور "عبد الرزاق قسوم"، الذي حلَّ ضيفًا علينا، وهو "رئيس جمعية العلماء المسلمين"؛ وفي القلب والعقل أسئلة كثيرة، واستفسارات عديدة، منها ما طرحته على الأستاذ "وحيد الدين":

١-عند الحديث عن المبادئ الكبرى، ثمة اتفاق بين جميع المسلمين؛ لكن عند التنزيل والتطبيق، تظهر الخلافات والنتوءات؛ ما السبب؟

٢-كيف لنا أن نربط حضاريا بين الأفكار والأفعال؛ ونضمن أنَّ التطبيق ليس منفصمًا عن سياق العالم والحضارة، وأنه ناجع لهذا العصر؟

٣-ما هي أساليب ومناهج العمل لإحداث التواصل والتشارك بين "الجزر الدعوية"، ومختلف التجارب الإسلامية، التي إن لم تختلف مع غيرها، فإنها عادة لم يتم التنسيق بينها؟

والله ولي التوفيق.

موت العالِم، وشجرة التوت[٤٣]

لا أعرف لماذا قفز إلى ذهني هذا العنوان، مباشرةً بعد سماعي نبأ وفاة "حمامة العلم" الشيخ ناصر المرموري رحمه الله!..

• ألأنَّ التوت نباتٌ شجره كبير وفروعه كثيرة، والشيخ الناصر كذلك: كبير بخلُقه، كبير بتواضُعه، كبير بعلمه، كبير بحلمه... له فروع في كلِّ بيت، وفي كلِّ مدرسة، وفي كلِّ متْجر... خيرُه عمَّ مَن حوله، لم يحرمه يومًا عن أحد مهما قرب أو بعد، مهما أنصف أو أجحف؟!

• أم لأنَّ شجرة التوت ثمارها حلوة طرية طازجة، والشيخ ناصر كذلك: لا يملُّ الجالسُ إليه، ولا يُسمع في حديثه إلاَّ الأدب الجمُّ، والحكمة الرفيعة، فقهه يسرٌ وتيسير على المستجير، ورأيه رحمة وبركة على المستنير؟!

• أم لأنَّ شجرة التوت قديمة قدم البشرية، والشيخ ناصر كذلك: يصدق فيه ما ورد في رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري ﷺ التي جاء فيها: "إنَّ الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحقِّ خير من التمادي في الباطل"؛ فشيخنا رحمه الله يدور مع الحقِّ والعلم وجُودًا وعدمًا؛ لا يبالي في ذلك أرضيَ الناس أم سخطوا، ما دام الحكيم العليم القديم قد رضي وقبل؟!

• ألأنَّ ثمرة التوت مفيدة جدا في حالات فقر الدم؛ والشيخ ناصر كذلك: نافع لأمَّته في أحلك ظروفها، وترياقٌ لها حين فقرها إلى من

---

[٤٣] بُعيد نعي الشيخ ناصر المرموري رحمه الله، الأحد، ١٢ جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ / ١٥ مايو ٢٠١١م.

تسترشد به، ومَن يأخذ بيدها إلى برِّ الأمان؛ فشيخنا عرق الأمَّة النابض بدم الحياة، يزرع فيها الأمل، ويحطِّم الألم، وهو في ذلك لا ينتظر من الخلق جزاء ولا شكورًا؟!

• أم لأنَّ ثمرة التوت شفاء لأورام الحلق واللثة، والشيخ ناصر كذلك: فصاحةً وحكمةً، وهو العلاج لكلِّ عيٍّ، والدواء لكلِّ سخافة؛ هو شجرة الحكمة والبلاغة؛ فقهُه أدبٌ سلس، وابتسامته أفقٌ لا نهاية له؛ وروحه ظلٌّ ظليل للخلق جميعهم: كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم؛ فهو لا يفرِّق بين عبد وعبد، إلاَّ بما رفع الله به بعضهم على بعض؟!

• أم لأنَّ ثمرة التوت لها تأثير كبير في خفض درجة الحرارة؛ والشيخ ناصر كذلك: هو صمَّام الأمان، وهو الملاذ، وهو "ترْموماتر" المجتمع؛ يحفظ درجة حرارته، فلا ترتفع بفعل التهور والنزق والتعصُّب، وكلِّ ما من شأنه أن يزرع الفتنة، ويبسط الحقد، ويوغر القلوب بعضها على بعضها؟!

• وعصير التوت -مع ذلك- يضاف إلى الأدوية بغرض التلوين وتحسين الطعم؛ ومَن غير الشيخ ناصر زينة للمجالس وبهاء للمحافل؟

• وجذور التوت -قبل ذلك- لها خواص مسهِّلة للمعدة والأمعاء وطاردة للديدان؛ ومَن غير الشيخ ناصر مسهِّلاً للأمور، وطاردًا للأدران؟

ولو أوجزنا القول لقلنا: "إنَّ الشيخ ناصر هو شجرة التوت، وإنَّ شجرة التوت هي رمز الشيخ"؛ فلكَم كان محبًّا للطبيعة، منافحًا عن الجمال، مصاحِبًا لأرباب المزارع والبساتين؛ له من الخصائص ما لشجرة التوت وأكثر، فحقَّ لنا اليوم أن ننعاه، بدموع رقراقة وقلوب ضارعة، ونلقي في روع مَن بقي بعده من العلماء والفقهاء أن "اثبتوا على الحقِّ، ودوموا على

العهد، كان الله معكم".

شيخي وأخي، أهمس في أذنك، وأقول:

تعيَّن الواجب، ولا سبيل إلى أدائه وإبراء الذمَّة إلاَّ في مجامع للفقه والفكر -بالمعنى الواسع- تجيب عن أسئلة الشارع بالتحقيق في أبعاد الشارع؛ وترفع الحرج عن الناس وقد كثر الهرج والمرج... بل، لتكن مناسبة وفاة الشيخ دعوةً للتسامح والمحبَّة، ونشر الأمل، والجد في العمل، والتخطيط للمستقبل... وصدق الله العظيم القائل: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(المجادلة:١١)؛ ثم صدق الرسول الكريم القائل: «موتُ العالِم ثُلمة لا تُسدُّ ما اختلف الليل والنهار».

اللهمَّ ارفع أمَّتنا بالعلم والحلم، وبالقرآن والإيمان؛ وابعث فينا من يسدُّ ثُلمة موت علمائنا مشرقًا ومغربًا؛ آمين يا ربَّ العالمين.

تمنغست، قِبلة العارفين[٤٤]

دنيا الناس تتراقص بين الظواهر والبواطن، وعالَم البشر تتنازعه الحقائق والأكاذيب، وسرُّ الوجود لا يدركه إلاَّ صاحبُ حكمةٍ، ذلك أنَّه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البقرة:٢٦٩).

الحكمة عند بعض السادة العلماء هي: "الإصابة في القول والفعل" (الطبري)؛ أي هي: الأساس الثاني من أسس الرشد، في المنظومة المعرفية الرشيدة، والذي نعبّر عنه بجملة: "حركية الفكر والفعل".

فلو أننا حكَّمنا الظواهر، واعتنقنا الأكاذيب، وطلَّقنا الحكمة، لقلنا إنَّ تمنغست هي: نهاية العالم، وخواء المدنية، والبعد عن الحاضرة.. وإذا تقدَّمنا خطوة في هذا المنوال، قلنا: إنَّ تمنغست هي الطبيعة الجميلة، والتاريخ الطبيعي الخلاَّب؛ وهي "المارابو" والأب "بيار دوفوكو"؛ وهي أعاجيب الطوارق، والعيِّنة الأنتروبولوجية المتميزة... وكفى.

أمَّا إذا توغَّلنا إلى البواطن، وعانقنا الحقيقة، ثم اقترننا بالحكمة؛ فجملة القول في تمنغست، أنها: بدايةُ العالم، وصلبُ الحضارة، لا بدلالتها المادية، لكن ببعدها الشمولي.. إنَّ تمنغست بهذه الرؤية، هي: الإنسان، والإيمان، والإحسان... وهي: بديع صنع الله، وقبلة العارفين،

---

[٤٤] فريق الرحلة الممثل لمعهد المناهج، يتكون إضافة إلى كاتب المقال، من: محفوظ جلمامي حاني، طه كوزي، مصطفى شريفي، سليمان باباعمي... بتنسيق من الأخ الصديق أبو بكر بهون علي. أمَّا برنامج الرحلة كان من يوم السبت ١١ يونيو، وهو يوم الانطلاق من العاصمة، إلى يوم ١٩ يوم الوصول إلى العاصمة؛ قاطعين أكثر من ٤٠٠٠ كلم، بين الذهاب والإياب والتنقل داخل المنطقة. والحمد لله.

ومأوى الباحثين عن الخلاص.

في أقلَّ من أسبوع حظينا برحلة ماراتونية إلى قلب بلدنا: تمنغست، ونحن جميعًا أسًى وأسفٌ أنها أوَّل مرَّة، وأنَّ جهلَنا ببلدنا بات واضحًا فاضحًا، وما نحن في ذلك بدعا من الجزائريين؛ إذ يصْدق فينا جميعًا قول القائل: "وضَرب لنا مثلاً، ونسي نفسه".

والحقُّ أنَّ أهالي تمنغست بقدِّهم وقديدهم، بصغارهم وكبارهم، برجالهم ونسائهم... رحَّبوا بنا، وأنزلونا أهلاً وسهلاً؛ لكن، كلٌّ بطريقته ومِن موقعه، لا على شاكلة السياحة الفلكورية المائعة، بل على مذهب الشاعر الفحل محمد مأمون نجم، وهو ينشد بلسان أقحاح تمنغست الشهامة:

إني لمن قومٍ

إذا ما صودرت راياتهم ظنوا الحياة حرامًا..!

صبحٌ تنفَّس في العروق.. يقول لي:

"نحيا كرامًا.. أو نموت كرامًا"..!

بدايةً من المساجد، حيث فتِحت لنا أبوابها، وأعِدَّت منابرها، ودعي مصلُّوها؛ لنلقي عليهم درسًا، وندوة، ومحاضرة: في المسجد العتيق[٤٥] أولاً، ثم في مسجد فاطمة الزهراءة ثانيًا، وفي مسجد الرحمة ثالثًا؛ وفي كلِّ ذلك كنا كـ"حامل تمر إلى هجر"؛ لا نعلِّمهم إلاَّ لنتعلم منهم، ولا نعظهم

[٤٥] موضوع درس المسجد العتيق: "واجب الألفة بين القلوب"، وندوة مسجد فاطمة الزهراء: "تربية الأولاد وبرمجة الوقت صيفًا"، ومحاضرة مسجد الرحمة: "شبهات حول القرآن الكريم والرسول الأمين، والرد عليها".

بمقالنا إلاَّ ليعظونا بحالهم... فلا خفَرَ الله لهم ذمَّةً، ولا نكس لهم راية.

ثم في المدارس القرآنية كانت لنا جولات: مِن مدرسة الشيخ سلامة، إلى مدرسة الشيخ باعموري، وما بين هذه وتلك مشاريع تعليمية قد لا يعرف الناس قدرها، لكنها مِن عالم الملائكة محتدُها؛ إنها مصانعُ للرجولة، ومزارعُ للفضيلة، ومخابرُ للحكمة، ومراتعُ للأنس، ومرابعُ للأمل؛ مَن دخلها كان آمنًا، ومن رفعها كان آمنًا، ومَن لازمها كان آمنًا، ومن أمَّها كان آمنًا.

وخلال وجبات الطعام، التي لا تقلُّ عن "العجْل الحنيذ" قدرًا، في أغلب الأحيان؛ كانت البركة تتنزَّل علينا، ونسمات السكينة تغمرنا، ولعلَّ الواحد منَّا لو أصاخ أذنيه لسمِع نفحةً من الملأ الأعلى تخاطب الملائكة: "أولئك القوم لا يشقى جليسهم... أولئك الجلساء، لا يشقى جليسهم".

ومع محاورة العلماء المشايخ المربّين: باعموري، وسلامة، والتهامي، وتقدَّة، والهداجي، وفيلي... وغيرهم كثير؛ مع هذه المحاورات نُبصر النورَ يغمر الكون عطفًا وريا؛ ونجد بشائر القبول مقبلة شوقًا وعشقًا؛ ونتأكد أنَّ العلم له أهله، وأنَّ هؤلاء هم أهله وذووه؛ هم ألصق الناس به، وأكثرهم وفاء لنفحاته.

ثم تأتي مديرية الشؤون الدينية لتفتح قلبها مهلِّلة بمقدمنا، حُسنَ ظنٍّ منها، وكرمًا ووفاء وإخلاصًا من قِبلها؛ وفي هؤلاء يصدق الحديث القدسي الزكي، الذي يقول فيه رب العزة: «أنا الله، لا إله إلاَّ أنا، خلقتُ الخير وقدَّرته، فطوبى لمن خلقته للخير، وخلقت الخير له، وأجريت الخير على يديه».

ولا يمكن أن نغفل جنودًا للخدمة، لا تسمع منهم إلاَّ الكلمةَ الطيبة،

تعلو وجوهَهم الابتسامة في كلِّ حين، لله درُّهم وهم يخدمونك ويعتذرون إليك؛ لله درُّهم وهم يُعطونك من حالهم ومالهم ومقالهم، كأنَّ الذي أعطوك هم آخذوه! ولنذكُر من هؤلاء: إبراهيم، والصديق، وشريف، وخموين، وعبد الرحمن، ومحمد، وأحمد... وغيرهم ممن عرفه الله وجهلوه.

هذه ومضة، وخاطرة، وإطلالة، وعبرة، ونكتة... مما يمكن أن يقال عن هذه الرحلة المباركة، إلى تمنغست العليَّة؛ دون أن ننسى جمال طبيعتها وآثارها، وطيب مأكلها ومشرَبها، وعذوبة شايها ولبنها، وسلاسة كلامها ولسانها.. ولقد سألني المشايخ -وبخاصة الإذاعة المحلية الوفية- "ما هي انطباعاتك عن تمنغست؟"..

فقلت، ولم أتردد هنيهة: لا عيب فيها ولا فيكم، إلاّ أنَّ زائركم ينسى أهله وبلده!

ولقد وصلتُ إلى أهلي فلقيتهم وهم متوجِّسون خيفةً؛ وما ذلك إلاَّ أني نسيتهم بالفعل؛ وصدق مَن قال في مقام آخر، نتمثَّله اللحظة في مقامنا هذا: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾(البَقَرَة:٢٠٠).

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك... والحمد لله ربِّ العالمين.

نفحة من المغرب الحبيب[٤٦]

رمضانيةُ النكهة، إيمانيةُ الروح، أخويَّةُ المنهج؛ هي أيامٌ للحفر والنسج، في ربوع بلاد قريبٍ بعيد؛ وهو -رغم أنف الشانئين- إلى القلب حبيب؛ جَمعتنا الخدمةُ الإيمانية والقرآنية على سفوحها الربيعية الورديَّة العطرة؛ حيث تزول كلُّ الاعتبارات، وتولَد من رحم الزمان جميع الإمكانات، وتنمحي في منطقها وبمعقوليتها المستحيلات والممنوعات.

أسبوعٌ ويزيد، في جنَّة المعرفة والعرفان، نطالع تارة، ونحلِّل أخرى، ونعتبر مرة، ونتفكر أخرى؛ ثم ننسج بخيط من حرير قماشًا ربانيًّا ملائكيًّا سماويًّا، مع إخوة لنا في الله منذ الأزل؛ ما عرفناهم من قبلُ عن كَثَب، إلاَّ أنَّ الصفات جمعتنا وصهرتنا، ووحدة الغاية والرسالة والهدف خبرتنا وطهَّرتنا؛ حتى لكأنَّ الواحد منا: سواء أكان تركيًّا، أم مغربيًّا، أم جزائريًّا... أم من أيِّ جنسية ووطن وجغرافية كان؛ حين تلقاه أوَّل وهلة، فتتعانقان عناق الأحبة المشتاقين، ثم ما يلبث أن يسكن إليك وتسكن إليه، فيقاسمك الهمَّ والهِمَّة، ويناصفك الرأي والفكرة، ويفتح لك داره على مصاريعها، ويستأمنك في أسراره؛ ثم يأويك ويُطعمك ويسقيك، وهو يعتذر إليك لعلَّه قصَّر، والحق أنه وفَّى وكفَّى... فتقول بملء فيك: "يا سبحان الله، هذا أخ لي، عرفته من قديم، وها اليومَ وقد نسيته بفعل جهلي، وغفلتي، وظنوني المستوحشة، وحساباتي الضيقة، وسياساتي الخرقاء... ها اليومَ أتذكَّره، وأؤوب إليه، فألقى الدفء والحنان بين ربوعه... ألا ما أعظم

[٤٦] الدار البيضاء / المغرب، ظهر السبت، السادس عشر من رمضان المبارك، ١٤٣٣هـ.

الأخوة في الله والملة، لو يعقل العاقلون"..

مرَّة أخرى، وأخرى... وثالثة، ورابعة... أكرر: "ألا لعنة الله على ضيق الأفق. لعن الله الاعتبارات السالبة، والانتماءات القاتلة، والمحسوبيات الفاتكة؛ تلك التي توهم المرء أنه محور الكون، وأنه الوحيد على الحق، والآخرين بجموعهم على الباطل؛ تلك التي تغري الساذج فيظن أنه الأفضل والأتقى والأذكى، فيحصر الخير في دائرة مغلقة، وهو لا يدري أنه إنما تجرَّأ على الله وآلى عليه سبحانه، إذ حجب ألوهيته وربوبيته، ومنع رحمته وكرمه، وقصر حبه ورعايته... عن العالمين؛ والحق أنَّ صاحب الأمر جميعه، ومالك الشيء كله، وخالق الخلق أجمعين؛ الحق أنه علَّمنا أن نقرأ دومًا، في صلواتنا ودعواتنا: ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفَاتِحَة:٢)؛ حتى لا نقع فريسة بين مخالب وأنياب أنانياتنا، وجغرافياتنا، ولغاتنا، ومذاهبنا، وتاريخنا، وقناعاتنا، وثقافاتنا، وسياساتنا، وسخافاتنا، وحماقاتنا، ورعوناتنا، ولوثياتنا..." ولقد والله وقعنا.

في هذه الربوع الطيبة الطاهرة خبرنا الخدمة في الله ولله، كيف تنفذ القلوب التواقة بفعل "تأشيرة الوجدان"، وكيف أنَّ أهل هذه الأرض السخية المعطاء، فتحوا لها بعضَهم وجميعَهم، وسخوا بما يملكون وبما لا يملكون، ثقة في الله، ووجدوا فيها ملاذا آمنًا لأحلامهم، وشفاء وترياقًا لأسقامهم، ومدرسة متزنة لأهليهم وذويهم، ومنهجًا راشدًا يضبط حركاتهم وسكناتهم... نعم، إنهم وَعَوْا ذلك، وصدقوا الله، فصدقوا أنفسهم؛ ولم يتردَّدوا هنيهة في الاستجابة لداعي الخير، وفي الاستماع للرجل الذي جاءهم من أقصى المدينة، لا لينصِّب نفسه حاكمًا عليهم أو مرجعًا، ولا ليلغي خصوصياتهم وذواتهم؛ لكن ليذكِّرهم وليحملهم على ﴿يَا قَوْمِ

اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(يس:٢١).

الكثير هنا اكتشفوا "الفعل والحركية" يوم انغمسوا في "النور الخالد"، ويوم اقتحموا "صرح الروح"، ويوم أعلنوها مدوية: "ونحن نبني حضارتنا"؛ والحال أنه لا ينقصهم فهم، ولا يخونهم إدراك، ولا يعانون من ضعف الذاكرة، ولا يشكون من الجهل بأمر الدين؛ لكنهم هنا، وهناك، وهنالك... الكلُّ يسأل:

- كيف نحوّل علمنا إلى عمل؟
- وكيف نجعل القرآن حديقة غناء مزهرة بشتى أنواع الزهر والورد والزنبق، تبعث شذاها إلى الناس كافة؟
- وكيف يمكن أن ننجو من "الدائرة الفاسدة"، وننطلق في الفعل موقنين صادقين محسنين؟
- وكيف نحوّل بلادنا، والعالم أجمع، إلى جنة فردوسية "استنادا واستمدادًا؟
- كيف؟... هنا... وهنالك...

سؤال عميقٌ دقيق حقيق؛ يُنبئ عن حرقة واحتراق، ويعبّر عن هم واهتمام؛ إنه سؤال لا تلوكه الألسن لمجرَّد الاستمتاع، سؤال لا تردّده الأقلام لداعي الحفظ والتكرار؛ لكنه سؤال يحفر في القلوب المؤمنة المتألمة، ويوقظ العقول النبهة المتوقدة، لسان حالها ومؤداها ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(المجادلة:٢١)، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾(الحج:٤٠)، و﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(البقرة:٢٥٧)، و﴿الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:١٢٨)، و﴿لِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(المنافقون:٨)...

السائلون الحائرون المنصفون، هنا...وهنالك...يقولون:

"آمنا ربَّنا وصدَّقنا، نعترف أنَّ القصور والتقصير منا نحن، وأنَّ الوهن والخطل فينا نحن، وأنَّ ديننا وإسلامنا كامل لا يقدره إلى الكمَّل".

الصادقون المخبتون، يدعون ويلحون... من هنالك... ومن هنا:

"ربنا أعننا في تغيير ما بأنفسنا، وأعدنا إلى سدة الشهود والشهادة مرة أخرى، بنفَس قرآني، وروح محمَّدي، ونمودج راشدي.

ربنا، حقق فينا قولك الحق الذي آمنا به: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠)...

ربنا إن تضلنا، ونحن المذنبون العائدون، المتشبثون بمطرقة بابك... إن تردَّنا ربنا نردِّد دعاء نبيك الكريم: «يا ربِّ، إن تهلِك هذه العصابة، فلن تُعبد في الأرض أبدًا... يا رب، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك»...

الاختبار العسير!
على إثر تشويه صورة حبيبنا رسول الله ﷺ [٤٧]

كلَّما حدث أمرٌ حقير أو عظيم، في أيِّ زمان من الأزمنة، وفي أي مكان من الأمكنة، كان اختبارًا وامتحانًا لمن قامت عليه الحجة في ذلك الأمر؛ إذ لا شيء في الدنيا يقع اعتباطًا، أو سبهللاً، أو بغير حكمة؛ ولا شيء بتاتًا يندُّ عن إرادة الله وعلمه ومشيئته، سبحانه.

فما وقع، ويقع هذه الأيام، من حملة لتشويه صورة أعظم الخلق محمد ﷺ، بكل الأشكال والألوان، وبجميع الوسائل والإمكانات، تسندها تخطيطات واستراتيجيات؛ كل هذا ليس عبثا، ولا هو خارج قدر الله الحكيم العليم؛ سبحانه.

وما كان أبو لهب، وأبو جهل، ومسيملة، وأبيٌّ... وغيرهم من الكفار والمنافقين والمعاندين؛ ما كانوا عبثًا في مسيرة الرسالة المحمدية المباركة؛ وجودهم حكمة ليبتلي الله إيمان المؤمنين، وعمل العاملين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾(البقرة:٢١٤).

وإني أجد هذه الحملة، وغيرَها، اختبارًا عسيرًا لكلِّ الناس، ولكلِّ الأطياف، ولكل المؤسَّسات، ولكلِّ الأمصار، ولكلِّ التوجهات، ولكلِّ الاتجاهات؛ بلا استثناء. وأوَّل من يتعرَّض للاختبار هو "أنا"، بها أبدأ، ومنها أنطلق، وعنها أسأل، وإياها أحمِّل الواجب؛ فهل يمكن أن أتركها

[٤٧] صبيحة السبت، ٢٨ شوال ١٤٣٣هـ / ١٥ سبتمبر ٢٠١٢م.

خارج دائرة الأمر الرباني، والحكم الإلهي، والواجب الشرعي؟!

يا نفسُ، ما مدى حبكِ لرسول الله ﷺ؟ أهو حبٌّ فلكلوري مناسباتيٌّ آنيّ عابر؟ أم هو حبٌّ إيمانيٌّ رساليٌّ دائم؟ ثم ماذا فعلتِ وتفعلين في حقه ﷺ: هل كنت في مستوى عصركِ، وهل أعددت العدَّة الكافية لنصرته، وهل جهَّزت الأسباب والمقدِّمات للانتصار له؟ أم أنك في دوَّامتكِ تعمهين، وعن التخطيط تُعرضين، وللظروف تَستجيبين؛ ثم ما تلبثين أن تدخلي دوامة الحياة، وتدوري في دائرة مفرغة إلى حين؟

علميًّا ماذا أعددتِ؟ تربويًّا ماذا أعددتِ؟ إعلاميًّا ماذا أعددتِ؟ اقتصاديًّا... سياسيًّا، فنيًّا... وهكذا في كلِّ مناحي الحياة؛ أسأل نفسي، وكلُّ عاقل يسائل نفسه: "ماذا عملت فيما علمت؟"، ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النَّحل:٩٣)، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾(الصَّافَّات:٢٤).

إنه اختبار عسير لـ"العلماء" اليوم؛ وللتجمُّعات العلمية العالمية، ولهيئات الفتوى، ولوزارات الشؤون الدينية: تُرى هل تصوغ المخططات، وتجيب على الإهانة بما يليق؟ أم أنها تبقى مثل الأطفال على شاطئ الإرادة والعصر، تاركة المبادرة للسياسة أو للشارع، مبررة لهذا أو لذاك، ناقلة لأدلة في أغلب الأحيان مبتورة، مجتزئة، كما رأينا هذه المرَّة من بعض مجامعنا الفقهية المحترمة؟ للأسف.

ثم، هو اختبار عسير لـ"المدارس"، وللمناهج التربوية، وللمقررات، ولوزارات التربية؛ بل لكل معلم ومدير وولي وتلميذ... فهل هي تسير على وقع رسول الله ﷺ؟ وهل تخِذتْه أسوة وقدوة، ومارست التربية بناء على معياره هو؟ أم أنها تغنِّي خارج السِّرب، وتصفِّق لديوي وروسو وغيرهما في عرس المدنية السمج؟

هو اختبار، لـ"مؤسَّسات الإعلام"، هل أهمَّها أمرُ قرآنها ورسولها، وهل يهمُّها أمر دينها، كما أمر الله؟ أم أنَّ مشادات كرة القدم، والانتخابات الحامية الوطيس، وفضائح الناس... كلُّ أولئك أوْلى في أجندتها من الانتساب إلى خير البرية، ورسول البشرية، محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم؟!

ثم هو امتحان للمال، ولصاحب المال؛ أمِن الحرام هو أم من الحلال؟ وهل يُنفق فيما لا يعني، سرفًا وسفاهة؟ أم أنه ينفق ليبني واقعًا جديدًا، ويؤسِّس عهدًا جديدًا، تكون فيه الأمَّة متمكنة متحضِّرة متفوِّقة في جميع المجالات، ويكون فيه المال وقود هذه النقلة التاريخية الإيمانية المنشودة؟

هو امتحان، لا يخوضه واعيًا اليوم -للأسف- إلاَّ الإنسانُ البسيط، وهو يحترق وينطلق، وقد يخطئ أو يتهوَّر؛ لكنه على الأقل يملك قلبًا مفعَمًا بالحبِّ، وفؤادًا خالصًا مرهفًا؛ أمَّا الكثيرون ممن يشار إليهم بالبنان فقد باتوا أرباب مصالح، وأصحاب حسابات، لا يؤمَّل فيهم الكثير، ولا يرجى من بابهم الخير.

هو اختبار، وهو امتحان إذن؛ والإجابة لا تكون في يومٍ، أو يومين؛ وإنما هي طوال الحياة ودائمًا، ما دام ثمة إنسان، وما دام هنالك خير وشرٌّ؛ ونتيجة الاختبار لن تعلَّق إلاَّ يوم الحساب؛ فلينظر كلُّ مؤمِن كيف ينجِّي نفسه يوم الفرقان، ويوم التغابن، ويوم يلقى ربه؛ سبحانه وهو القائل: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(غافر:١٧).

رحم الله العلامة بديع الزمان النورسي، ففي حوالي سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٩م، حدث له انقلاب كليٌّ في حياته، إذ علم من الوالي "طاهر باشا"

أنَّ أوروبا تحيك مؤامرة خبيثة حول القرآن الكريم، ثم سمع أنَّ وزير المستعمرات البريطانبي غلادسون، صرَّح في مجلس العموم البريطاني، وهو يخاطب النواب، قائلاً: "ما دام هذا القرآن بيَد المسلمين، فلن نحكمهم حكمًا حقيقيًّا، فلنسْع إلى نزعه منهم". ولقد زلزل هذا الخبر كيان النورسي، وأقضَّ مضجعه، فأعلن لمن حوله: "لأبرهنَنَّ للعالَم بأنَّ القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها"... ثم حبس عمره كلَّه للخدمة الإيمانية والقرآنية؛ ولاقى في ذلك ما لاقى من معاناة، ولكنه خرج منتصرًا مظفرًا، راضيًا مرضيًّا بحول الله.

واليومَ، ليس مقبولاً أن تمرَّ علينا الإهانات لمقدَّساتنا وعقائدنا وديننا وإسلامنا، ثم لا يتغير شيء في حياتنا، وفي تصوراتنا، وفي مواقفنا، وفي أفعالنا، وفي اختياراتنا.. ولذا نسأل مَن منَّا يحمل قلبًا مفعمًا بالإيمان بالله واليوم الآخر، وبكتاب الله الحكيم ورسوله الكريم، يقف حياته ومهجته للدفاع عن إيمانه، ونصرة دينه، بموجب "التدافع"، وقد قال جلَّ من قائل: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البقرة:٢٥١)...؟!

فهلاَّ كنا جادِّين في تحمُّلنا لأسئلة الاختبار العسير، وهلاَّ احترقْنا شوقًا وهمًّا وهمَّة، وانطلقنا علمًا وعملاً وتخطيطًا؛ فإنْ فعلنا كان الله معنا، وكان رسولنا وحبيبنا شفيعًا لنا يوم اللقاء؛ وإلاَّ كان خصمًا وخصيمًا لنا، والعياذ بالله.

ولا يزال حديث الحوض يقرع آذاننا، ويهدُّ قلوبنا، ويزلزلنا زلزالا شديدًا، وقد ورد فيه:

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه أتى إلى المقبرة فسلّم على أهل المقبرة فقال: «سلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».. ثم

قال: «وددتُ أنَّا قد رأينا إخواننا».

قال، فقالوا: "يا رسول الله، ألسنا بإخوانك؟!"

قال: «بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعد، أنا فرطهم على الحوض».

فقالوا: "يا رسول الله، كيف تعرف من لم يأت من أمَّتك بعد؟"

قال: «أرأيت لو أن رجلاً كان له خيل غرٌّ محجَّلة بين ظهراني خيل بهم دهم، ألم يكن يعرفها؟»

قالوا: "بلى"

قال: «فإنهم يأتون يوم القيامة غرًّا محجلين من أثر الوضوء، أنا فرطهم على الحوض».

ثم قال: «ألا ليُذادن رجال منكم، عن حوضي كما يذاد البعير الضالُّ، أناديهم: ألا هلمَّ فيقال: إنهم بدَّلوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا»..

فهل يا ترى نأتي رسولَنا الحبيب غرًّا محجَّلين، أم أننا نأتيه -ونعوذ بالله من ذلك- ثم نذاد مثل "البعير الضال"، ثم يقول لنا "سحقًا سحقًا".

هذا هو الاختبار العسير!.

أمَّا نبيُّنا وقرَّة أعيننا، فيكفيه أنَّه وعد من ربِّه وعدًا حقًّا، أنه سيعلي من شأنه وقدره، وسيجعل أعداءه عبرة لكلِّ معتبر، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾(الكوثر:٣)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾(الأحزاب:٥٧).

والله يقول الحقّ، وهو يهدي السبيل.

القسم الثاني

القرآن شمولية تأبى القيد البشري

كتاب حقٍّ

هل القرآن الكريم كتاب فلسفةٍ؟ وهل هو كتاب فلسفيٌّ؟ ثم، هل هو كتابٌ يمكن تصنيفه تحت خانة أي علم من العلوم؟

هو سؤال طرحه الدكتور عبد الله دراز، منذ عقود، في كتابه "دستور الأخلاق في القرآن"، كما طرحه علي عزّت بيجوفيتش في كتابه "الإسلام بين الشرق والغرب"، لكن بصيغة مختلفة؛ ثم طُرح في "مفهوم الزمن في القرآن الكريم"، حسبما يقتضيه السياق.

من المعلوم معرفيًّا أنَّ تصنيف العلوم إجراءٌ وظيفيٌّ معرفيٌّ مسايرٌ ومسايقٌ للضعف البشريِّ، ذلك أنَّ عقل الإنسان لا يملك استيعاب الوجود برمَّته "الله - الكون - الإنسان"، ولذا اعتمد الإنسان التخصُّصَ والتصنيفَ، حتى يتمكن من الاهتمام بجانب واحد فقط من الوجود، وحتى يتبحَّر فيه، ويصل إلى نتائج علمية مرضية نسبيًّا: فعالم الزراعة ينكبُّ على النبات، وعالم النفس يسهر على فهم النفس، وعالم العقيدة يركِّز على الإيمان والتوحيد... وداخل كلِّ مجال تتفرَّغ تخصُّصات ذرية، حسب قدرة الإدراك والفهم والاستيعاب، وحسب تطور المناهج والمفاهيم عبر تاريخ العلوم.

أمَّا كلام الله تعالى، فهو صادرٌ من مشكاة لا تتَّصف بالعجز والضعف،

إذ لا حاجة لها إلى تجزيء الظاهرة لتشرحَها، بل ولا إلى لغة تفسِّر بها المعاني، فلا فرق هنالك -في الملأ الأعلى- بين الوجود والتعبير عنه، ولا بين الموجودات والعلوم التي تدرسها؛ فالعلم والمعلوم، والقدرة والإرادة، والمكان والزمان، وما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون... كلُّ أولئك خاضع لقدرة مطلقة متعالية متجاوزة، إنها نقطة "الحقّ"، كما سماها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾(الإسراء:١٠٥).

ولقد جاء القرآن الكريم على هذا النسق الحقِّ: رباني الصبغة والغاية، كونيَّ المنهج والموضوع، شمولي المبدأ والمنتهى...

والله أعلم...

كتاب الغذاء الكامل

عالج الجزء الأول من هذه السلسلة الإشكال الآتي: "هل القرآن الكريم كتاب فلسفة؟ وهل هو كتاب فلسفي؟ ثم، هل هو كتاب يمكن تصنيفه تحت خانة أي علم من العلوم؟"، وتتمَّة للموضوع، باعتبار أهميته وأهمية إدراك الجواب الصحيح، نورد ما ذكره الدكتور دراز، رحمه الله، في مقدِّمة كتابه القيّم "دستور الأخلاق في القرآن".

يقول: "إنَّ الفلسفة بالمعنى المألوف للكلمة هي عمل فكر منطقيّ، معتمد على مجرَّد ومضات الذهن الطبيعيّ، ينتقل فيه المفكِّر من حكم إلى آخر، بمنهج معيَّن، للتوصُّل إلى إقرار نظامٍ معيَّن، قادر على تفسير الأشياء في عمومها، أو تفسير وضع معيَّن لأحدٍ هذه الأشياء. وبديهيٌّ أنَّ هذا الجهد العقليَّ، وهذه الخطوة التدريجية، لا يتناسبان مع ضوء وحيٍ، يغمر النفسَ دون بحث أو توقُّع، ويقدِّم لها على حين فجأة جملةً من المعرفة، لا تسبق فيها المقدِّماتُ نتيجتها، ولا المقدَّم تاليه".

فليس القرآن إذن عملاً فلسفيًّا، بمعنى أنه ليس ثمرة فلسفةٍ، وهو لا يستخدم طرق الاكتساب الفلسفيّ، بالإضافة إلى أنه لا يتبع كذلك طرق التعليم التي يتَّبعها الفلاسفة، وهي طرائق المنهج العقليّ، التي تقوم على التعريف والتقسيم والبرهنة والاعتراضات والإجابات؛ وهي كلُّها أمور متلاحمة دون جدال، ولكنها لا تؤثر إلاَّ على جانب واحد من النفس، هو الجانب العقليُّ، على حين أنَّ للقرآن منهجه الذي يتوجَّه إلى النفس بأكملها؛ فهو يقدِّم إليها غذاء كاملاً، يستمد منه العقل والقلب، كلاهما، نصيبًا متساويًا.

وهكذا يفارق التعليم القرآنيُّ التعليم الفلسفيَّ، سواء في المصادر أو في المناهج.

فليس القرآن إذن كتابَ فلسفة، ولا أيِّ علم آخر؛ وإن كان هو القاعدة والأساسُ لكلِّ المعارف والعلوم، بل ولجميع الحقائق والمعاني؛ أعظم به من كتاب شريف كريم، من ربٍّ حكيم عليم.

كتاب حياة

إتمامًا لماسبق، سقاني البوسفور صبيحة هذا اليوم المبارك، معاني غمرت وجداني، وسمت بي مراقي لا حدَّ لها، فرأيتُ القرآن الكريم ماثلاً أمامي يخاطبني، فيبشرني وينذرني، ثم يضمُّني إلى صدره الدافئ، ويحيط بي من كلِّ جانب حِفظًا ورعاية وهداية... لا يملك اللسان وصفًا لها.

ومما زادني عشقا إلى عشقي، قولُ المفكر العبقري القرآني المجاهد، علي عزّت بيجوفيتش، مجيبًا على السؤال الحائر المحير: "هل القرآن كتاب فلسفةٍ ومنهجٍ وتخصص؟".. قال رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه: "يشيع بين بعض الناس الذين يقرأون القرآن بعقلية نقدية تحليلية، بأنَّ القرآن من الناحية الموضوعية لا يتَّبع نظامًا محدَّدًا، فيبدو وكأنَّه مركَّب من عناصر متناثرة... ولكن لا بدَّ أن يكون مفهومًا -بادئ ذي بدءٍ- أنَّ القرآن ليس كتابًا أدبيًّا، وإنما هو حياةٌ... إنَّ التعليق الوحيد الأصيل على القرآن هو القول بأنَّه حياة".

ولقد علَّقت على هذا النص البديع في بحثي "مفهوم الزمن في القرآن الكريم"، قبل أزيدَ من عقد ونصف العقد من الزمان، فقلت: "وإنَّ الملاحظة الوحيدة الأصيلة التي تساق في التعبير عن أسلوب عرض القرآن لمادة الزمن هو القول: بأنَّه هو نفسه الأسلوب الذي يغمر الكون والحياة، بعيدًا عن الأسلوب المقيّد الجافّ، الذي يستبدّ بعقلية النقَّاد والفلاسفة وذوي الاختصاص".

إذن، الحاصل أنه يكفي القول عن القرآن: "إنه كتاب حياة"، بل هو "الحياة بعينها"، والحياة لا تعرف التصنيف ولا التجزيء ولا الاختزال...

وهو "كتاب حقِّ"، والحقُّ كليٌّ شموليٌّ يرفض التقطيع والتفصيل والتوصيل... وهو كتاب حواسٍّ، وقلبٍ، وعقلٍ، ووجدانٍ، وحدسٍ، وإلهامٍ... يأبى أن يُسجن مع العلوم في سجن العقل والمنطق وحده...؟

ألاَ ما أعظم كلام الله تعالى!.

كتاب رشدٍ

لما جاوز الشيخ محمد الغزالي الأربعين في العمر ببضعة أشهرٍ، ألَّف كتابه القيم "نظرات في القرآن"؛ فجاء قطعةً من فكر وأدب، في سلاسة لا تُضاهى، وفي انسياب لا يعرف له مثيل.

ومما ورد في مقدِّمته، جوابًا عن سؤالنا، حول علاقة القرآن الكريم بالعلوم والفلسفة والمنهج، من جهةٍ؛ وبالواقع والحياة والزمن، من جهةٍ أخرى... مما ورد قوله: "إنَّ العلم المعزول عن الواقع لا سبيل له في قلبي، ولا في لبي. والقرآن نفسُه كتابٌ لا يُستطاع عزلُه عن الحياة أبدًا. وهل نزل إلاَّ ليخطِّئ أو يصوِّب من أفكارِها؟ وإلاَّ ليمحُو أو يثبِّت من أحوالها؟ إنه كتابُ الحياة المفعمة بالحركة المتجدِّدة على الدهر، ولكنَّها الحياة القائمة على الحقِّ، الدارجةُ على الصراط المستقيم. وربما حلا لبعض الفلاسفة والمفكِّرين أن يُغلقوا على أنفسهم الأبواب، ثم يرسلوا من نوافذهم نظرات شاردة أو صائبة إلى الأفق البعيد... لكننا -نحن العلماء المسلمين- ما نستطيع إيصادَ الأبواب بين كتابنا الأعظم وبين العالم المائج بالخير والشرِّ، كيف ووظيفة كتابنا أن يتوسَّط الميدان؛ ليقيم العدالة، ويأذن بمرور مواكبها؛ وليقمع الجهالة، ويحبس زبانيتها في نطاق يردُّ كيدهم؟".

هنا، نجد الخيط موصولا بين "الحق"، و"الحياة"، و"الغذاء الكامل"... مما يمكن أن نعبر عنه بآية واحدة، دالة -أيما دلالة- وهي قول الجن، لما سمعوا كلام ربِّ العزة: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾(الجن:١-٢).

فالرشد حركيةٌ دائمةٌ دائبةٌ بين الفكر والفعل، وانطلاقةٌ وثَّابةٌ في عالم الأسباب، وسيرٌ حثيثٌ في مسالك حسنة مشروعة: ﴿قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾.

"جوته" والقرآن

يقول الفيلسوف جوته في حواره مع أكرمان: "لسوف ترى أنَّ تعاليم القرآن لم تُخفق أبدا، وإننا بكلّ منظومتنا لا نستطيع، بل لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يذهب أبعد من هذا".

الهدف الأسمى من القرآن هو أن يوقظ فينا الوعي بالعلاقة بيننا وبين "الله - والإنسان - والكون"، وهو أن يعطينا الجواب الصواب لأسئلة الوجود، ولأسئلة المعرفة؛ وهو أن يصوغ لنا معايير الحقّ، والخير، والخلق، والعلم... الخ.

لكن، ليس هذا فقط، وإنما الهدف من القرآن كذلك، هو أن يوقظ فينا دافعيةً للحركة بناء على هذه "الرؤى"، و"المعتقدات"، وعلى هذا "الإيمان" و"اليقين"؛ فهو بذلك يفوق كونه كتابا معلوماتيًا، يسرد الحقائق العلمية لتحفظ وتناقش، وتحلَّل وتركب؛ لكنه كتاب يدفعنا إلى "العمل" وإلى "الحركة" من نقطة بدايةٍ صحيحة إلى نقطة وصول سديدة.

فهلاّ تفكرنا في هذا مليًا، وهلاّ تحاورنا فيه جليًا، وهلا! عملنا به سويًا؟!

الكدح قدَرنا، والروح سِلاحنا

ينبّهنا القرآن إلى أنَّ "الكدح" قدَرنا، والمعاناة والألم والخوف والجوع جزء من كياننا؛ لا تنفك عنا ولا ننفك عنها؛ ولكن ليس يعني ذلك أننا دائمًا في شقاء، بل إن لطف الله، وكرمه، ونعمه... دومًا ترافقنا وتطمْئِنُنا: ﴿أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(لقمان:٢٠).

ولقد منحنا الله تعالى سلاحًا، نواجه به هذا الكدح، ونقوّي به تلك الهشاشه، إنه: "الروح" الذي لا يفوقه جمالاً ولا قوَّة ولا بُعدًا ولا سموًّا أيُّ مخلوق آخر؛ ولذلك نقرأ في القرآن الكريم عن خلق السماوات والأرض .. وغيرها، ولكننا نتلو قوله تعالى عن الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥). فالعلم لا يحيط بالروح، ولا يبلغ كنهها، ولا يقدر على وصفها، ولا على إدراكها بأي وسيلة كانت. فهي أعظم منه، وأبلغ شأوًا وشأنًا.

أخي، ألتفِتُ إليك، وأسأل روحك عن روحك: هل رعيتها؟ هل غذّيتَها؟ هل نقّيتَها؟ أم أنك دسيتها، ودنَّستها، وشوَّهتها... أو حتى قتلتها؟

لا أنتظر منك الجواب، فهو عندك وحدك، والمطلع عليه هو خالقك وحده.. فاصدُق روحك تصدقك، واصدُق ربك يوفقك ويهدك، ويهدي روحك سواء الصراط.

"الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى"

قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣). حين قراءتي لتفسير هذه الآيات من سورة الأعلى وجدتُ أنَّ الترادف اللغوي، والتخصيص في الذكورة والأنوثة، وفي الأرزاق... وغير ذلك من أشكال التخصيص؛ قد جنى على معنى الآية العظيمة، والصوابُ أنَّ هذه الأفعال ليست مترادفات؛ والتحقيق أنَّ الآيات ليست مقصورة على خلق الإنسان، أو الحيوان، بل هي عامة لجميع "خلق الله تعالى"، فنسجل -كما لاحظ بعضُ الباحثين المحققين- أنَّ هذه الأفعال تمثل مراحل إلهية سَننية تحكم خلق الخلائق كلِّها، وهي:

أولاً: ﴿خَلَقَ﴾، أوجد الله تعالى كلَّ شيء من العدم.

ثانيًا: ﴿فَسَوَّى﴾، جعلها كاملة سوية، لا تفاوُت فيها ولا خلل.

ثالثًا: ﴿قَدَّرَ﴾، حدَّد الله تعالى لها مصيرها، وكتب لها طبيعتها.

رابعًا: ﴿فَهَدَى﴾، هداها إلى أهدافها وإلى وظائفها.

أمَّا "الجعل" الوارد في آيات أخرى، فيعني توجيهَ المخلوق إلى مهمَّته التي خلق لها. و"الجعل" يقع -في سلسلة المراحل- بين "الخلق والتسوية"، فيأخذ من هذا ويأخذ من ذاك. قال تعالى، في مستهل سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾(الفرقان:٦١).

والمقصد من هذا التدقيق أن لا نحشر عقولنا في بيان المعنى اللغوي فقط -مع الإقرار بأهميته- ولا نحبسَ فهومنا في التخصيص، ولا حتى في التبحر في الدلالات؛ وإنما الواجب أن يستتبع ذلك عملٌ وحركية،

وحمد وذكر، وتقوى لله وخشية، ومجاهدة للنفس أن تشكر الخالق العظيم على نعمائه علينا، وعلى أن بلَّغنا بفضله وعنايته جميع هذه المراحل، فشهدناها واحدة تلو أخرى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾(القصص:٦٨).

"أتعبدون ما تنحتون"

تخيل الشاعر "ناصر الدين السرهندي" أنَّ الصنم يقول لمعبوده البرهميّ: "لقد صنعتَني على صورتك، وفي نهاية الأمر ماذا رأيتَ وراء ذاتك".

المتأمِّل في هذا المعنى يجد أنَّ الفرع "الإنسان" هو الذي صنع أصله "الصنم"؛ ومن ثم فالفرع لا بدَّ أن يكون أحوج إلى الأصل، من حاجة الأصل إلى الفرع.. فحاجة الصنم للصانع أن يتقن صنعه، ويزخرفه، وينظفه، ويحميه، ويحركه... أمَّا العكس فغير وارد؛ ولذا جاء استغراب صاحب الحجة، خليل الله إبراهيم عليه السلام من قومه، قائلاً: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(الصافآت:٩٦).

أمَّا في النموذج التوحيديّ فإنَّ الله تعالى هو خالق الإنسان؛ وهو الذي نفخ فيه من روحه، وهو الذي كرَّمه وأنزله مقامًا عليًّا؛ وهو الذي أسجد له الملائكة، وعلَّمه ما لدنه علمًا... فالأصل والمعبود في منطق التوحيد، كاملٌ مطلق الكمال؛ وهو سبب الأسباب؛ أمَّا الفرع فمحتاج إلى أصله وإلى خالقه، إذ وجودُه ليس من ذاته، وهو لا يملك أمره، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا.

لكنَّ ذات الإنسان، لو تعلَّق بخالقه، فذاب في حبِّه، وأخلص في عبادته؛ أي لو صار ربانيًّا صادقًا خالصًا، فإنَّه يرتقي إلى أن يقرن إرادته بإرادة خالقه، فيكتسب بذلك آفاقًا وآمادًا لا حصر لها، قال تعالى في حديث قدسي: «إنَّ مِن عباد الله مَن لو أقْسم على الله لأبرَّه»(رواه مسلم). وفي حديث قدسي آخر: «ولا يزال عبدي يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبّه،

فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله الذي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه» (رواه البخاري).

نعم، ليس الصنم اليومَ -في عالمنا المائج الهائج- من حجرٍ ولا من تمر، ولا هو ﴿اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾(النَّجْم:١٩-٢٠)، ولا هو ﴿وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾(نُوح:٢٣)... وإنما هي "المصالح"، و"الأوهام"، و"التعصب"، والجهالة"... وهي أحيانًا "المناصب"، و"الأحزاب"، و"الاعتبارات"، و"النظريات"، و"الرياضات"، و"القوانين" التي هي كلُّها من "صنع" الإنسان، وهي -حين تُخالف أمْر الله- تتحول إلى آلهة معبودة، فتكون في حقيقة الأمر صورًا مشوهة لذات الإنسان؛ لكأنَّ الإنسان من خلالها يعبد ذاته، وذلك بعبادته لما صنعت يداه، ولما نحت بهما.

ألا ما أعزَّ التوحيد والإيمان، وما أذلَّ الكفر والفسوق والعصيان! فانظر أيها العاقل، حيث تنزل نفسك: في سماء العزة، أم في جحر الذل؟!

الإنسان المتجدد، ومبدأ الأنتروبي

لو ترك الإنسان لحقيقة خلقه، طبقًا لمبدأ "الأنتروبي" أو "الاعتلاج" كما يترجمه البعض، أي تبعا "للنظام المغلق" الذي بموجبه يحدث "التغيُّر أو التحوُّل تلقائيًّا بزيادة أنتروبيته، حتى يصل إلى حالة توزيع متساوٍ، في جميع أجزائه"؛ لكان ذلكم الإنسان عرضة للتقادم والتآكل الذاتيّ، بصورة متواصلة طبيعية.

ومثال ذلك، للتبسيط، أنك لو تركت سيارة في فلاة، لمُدَّة ألف سنة، فستجدها قد تآكلت؛ أمَّا إذا وجدتها مُصانة، متألِّقة، جاهزة للاستعمال الفوريّ؛ فلا يختلج ذهنك أدنى شكٍّ أنَّ "سببًا خارجيًّا" قام بهذه العملية، التي تخالف منطق المادة باعتبار الأنتروبي.

لكننا، نلحظ أنَّ الإنسان يتجدَّد، وينمو، ويتألَّق، ويزداد مستوًى، وهو "يمشي دائمًا إلى الأمام، متلقيًّا تجليات أنوار جديدة، باحثًا عن واردات وفيوضات مديدة".. فالسؤال هو "ما السبب الخارجيُّ -يقينًا وعلميًّا غير ذاتيّ- الذي جعله كذلك؟"..

الجواب أنَّ الإنسان -كلَّ إنسان، شاء أم أبى، آمَن أم كفر- له ارتباط بالحقيقة اللامتناهية، وبالقدرة المطلقة، وبالمشيئة التامَّة؛ ولذا فكلُّ تجدُّد، وكلُّ زيادة، منشؤها "السبب الأوَّل"، بل "مُسبِّب الأسباب"، أي الله تعالى. قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(الرحمن:٢٩)، أي أنَّ جميع الخلائق تسأل الله تعالى، بلسان الحال أو بلسان المقال، وتنال منه المدد، والرزق، والعناية، والحفظ... لا شيء من خلق الله، من الكواركات إلى المجرّات؛ لا شيء يبقى خارج "سؤال

الله"، و"الحاجة إلى الله"، في كلِّ جزء من الزمن، في أصغر جزء من الزمن.. ولذا وجب على الإنسان أن يقرن لسان حاله بلسان مقاله، فيسأل الله شاكرًا حامدًا لاهجًا: «ربنا لا تَكِلْنا إلى أنفسنا ولا إلى أحدٍ من خلقك طرفةَ عينٍ، ولا أقلَّ من ذلك ولا أكثر، يا ربَّ العالمين».

قرآننا الكريم، ونبيّنا الحكيم

انتشرت "بدعةُ ضلالةٍ"، تسعى للتنقيص من كتابنا الحكيم، بمسَّميات كثيرة، وبأشكال عديدة. كما نبتت "نابتة سوء" تحاول أن تقلِّل من شأن نبيّنا الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم... ولقد أبدع أستاذٌ، هو عضو في حكومة أندونيسيَا، حين المؤتمر العالمي المعقود في جاكارتا، حيث قال: "القرآن الكريم، والنبيّ الحكيم، حقيقتان لا يمكن الفصْل بينهما؛ فمَن فصل بينهما كان ظالمًا جاهلاً، ولا بدَّ أنه يحمل في أحشائه أغراضًا خسيسة، وإلاَّ فكيف نفسِّر إشادة القرآن بالنبي، وكيف نفهم إشادة النبي بالقرآن، خارج هذا التلاحم المطلق؟!". ثم أردف قائلاً: "ملعون من حمل الناس على حقيقة واحدة مستنقصًا من الحقيقة الأخرى".

نعم، إنَّ "نبيّنا" أوْلى بنا من أنفسنا، وهو أحبُّ إلينا من جميع الخلائق. نعم، إنَّ "قرآننا" هو الهدى، وهو النور، وهو الصراط المستقيم.

فلا قرآن بلا نبيٍّ، ولا نبيَّ بلا قرآن... حتى وإن اختلفت الأسماء والألقاب؛ وصدق من قال: "في شخصية النبي ميزة خاصَّة به، فهو الكائن المتناهي الذي يغوص في أعماق حياته الروحية اللانهائية؛ حيث يتلقَّى من فيض الوحي الإلهي القرآن الكريم؛ لا ليبقى هناك متأمِّلاً، وإنما ليطفو مرَّة أخرى صاعدًا إلى أعلى بقوَّة دافعة جديدة، فيحطِّم القديم، ويكشف عن توجُّهات جديدة للحياة".

ألا ما أسذج العقل التجزيئيَّ الفاسد.. ألا ما أعقل الفكر الشموليَّ الراشد... ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(غَافِر:٥٧)، ﴿لاَ يَعْقِلُونَ﴾(الْحُجُرَات:٤)، ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(البَقَرَة:١٠٠)...

القسم الثالث

نسمات البوسفور

مدارسنا كما أتخيَّلها

أعشق التفكير في المدرسة والقسم، وفي التلميذ والمدرِّس إلى حدِّ الحلول والذوبان الكليّ فيها وبها؛ حتى لكأنَّ الدنيا مدرسةٌ عملاقة، والمدرسةَ عالمٌ لامتناهٍ؛ وأتخيَّل أنَّ أصغر جزيء في خلايا مخِّي يتغنّى بالعلم والعلماء، ويصدح بنشيد المعلِّمين والمتعلِّمين؛ غير أنَّ ضجيج الحياة، وفوضى المكان والزمان، تحرماني من سماع تلكم الأنغام الفردوسية بأُذُنيَّ هاتين.

ولقد واللهِ وجدتُني أعانق السماء سرورًا وفرحًا، وأحيِّي الشموس والكواكب والنجوم تحية الجنديّ الوفيّ، وأنا أقرأ عبارةً للمجدِّد "فتح الله"، أهديها لكلِّ مرابط في حصن التربية مؤمِنًا مجتهدًا مجاهدًا، فلتتقبلوها مني غضَّة طريَّة، رطبة بنسيم البوسفور البكوريّ، يقول:

"تمرُّ المدارس في خيالي في العيد وقد أصبحت مختبرات لحلِّ أسرار الكون وطلاسمه، حيث أرى هناك أساتذة عمالقة يهيئون طلابهم لفكّ أسرار ما وراء السماوات، أساتذةً ترى الوضاءة في وجوههم، والإخلاص في قلوبهم، والاستقامة في تفكيرهم".

هكذا، فلتكونوا.

الصلاة... الصلاة...

لكَم ركَّز الواحد منَّا في حياته على منجزاته، واهتمَّ بما يحقِّقه من شهرة أو مال أو حظوة، وقد يكون كلُّ ذلك في حلال لا غبار عليه؛ غير أنَّ إدمان الطرْق على باب الأسباب القريبة قد تبعث على الإعراض عن الأسباب البعيدة، أو الغفلة عنها؛ ومِن تلكم الأسباب العميقة: "الصلاة".

فإضافة إلى ما ورد فيها من معانٍ، لا تستوعب مداها دفاترُ تملأ ما بين السماء والأرض؛ يمكن أن ننبِّه كلَّ واحد منَّا، ونهمس في أذنه بهدوء واهتمام، ونقول:

"أخي، تيقَّن أنَّ صلاتك نجاحَك، وأنَّ سرَّ ما أنت عليه، وسرَّ حالِ دراستك، أو صناعتك، أو تجارتك، أو فلاحتك... ممتدٌّ بسبب إلى صلاتك؛ فإن أنت أقمتَها استقامت، وإن أنت ضيَّعتها ضاعت.. ولا يغُرَّنك الغثاء والوهم والسراب والكثرة والقيل والقال... ولا يستخفنَّك أنك أنجزت كذا وكذا، وجمعت كيت وكيت.. فكلُّ ذلك إن لم يسعدك دنيًا وآخرةً، كان لك غصَّة وندامةَ، ولو بعد حين.

فالصلاة الصلاة إخوتي، تُفلحوا وتربحوا، وتَسعدوا وتُسعِدوا".

الجيل الكونيُّ آت...

هاتفني الليلةَ، وزفَّ إليَّ بشرى نادرةً زمرديةً، لا أبيعها بمتاع الدنيا كلِّها؛ وهي أنَّ جامعة "فاتح" الذائعة الصيت، قد رشَّحته لمنحةٍ في بلاد من بلاد الغرب، ذلك أنه كان ضمن "الأوائل"، ثم اجتاز اختبار الترشح للمنحة بامتياز.

فسألتُ عن اسمه، واسَّارع الجواب: محمد.

وعن جنسيته، فقال المبشِّر: جزائرية.

وعن مجموعه وجماعته، فأجِبت: خلائف الخير، وكلُّ واحد منهم جبلٌ بمفرده.

ثم تداعت الصور، وجالت الخواطر. فناديتُ بأعلى صوتي:

"إنَّه هو... الجيلُ الكونيُّ آتٍ... وغدُ البلاد -بحول الله- شامخ شموخ شجرة الدلب... وهو يعي أنَّ ذلك لن يكون بالأحلام والأوهام، ولا بصناعة الفراغ، ولا بالغوغائية والادعائية... وإنما يتحقق بالفكر والفعل... بالعلم والعمل... بالتخطيط والإتقان... بالهمَّة التي لا تكلُّ ولا تتوانى.

فهؤلاء الخلائف إنَّما يعبرون من الأرض نحو السماء، عبور المسافر على الجسر المعلَّق؛ ويتعلقون بالجوزاء، تعلُّق "الفاتح" بالبشارة الطيبة المباركة من سيد الأنبياء ﷺ: «نعْم الأميرُ أميرها».. فإن يكن "الفاتح" قد أدرك المبتغى بفتح القسنطينية، فإنَّ هؤلاء سيتجاوزون الزمان والمكان، وسوف يفتحون، بفضل الله، مغاليق الإلحاد وحصون الظلام؛ وحينها فقط، سيغرِزون عَلَما على رأس ربْوة السعادة، كتب عليه "الجيل الكونيِّ آت.. الجيل الكوني آت"...

وجهان... وقلبان!

كلَّما تنفس الصبح، وكلَّما أرسلت الشمس أشعّتها الذهبية، فُتّحت العيون جميعُها.. فهل تُرى، ماذا تَرى؟ ترى وجوهًا مسفرة، وأخرى عليها غبرة... وترى وجوهًا ناضرة، وأخرى باسرة. المئات أو الآلاف من البشر يقفزون إلى أعينك يوميًّا، سواء مِن حقيقة الحياة، في البيت والشارع والمدرسة... أم من العالَم الافتراضي، في المجلة والتلفاز والإنترنت.

وكلُّ وجه يترك فيك أثرا، دقَّ أو كبر.. ولا شكَّ أنَّ المبتسم، الضاحك، المستبشر، البشوش، المتفائل... يفتح مغاليق قلبك، وينقلك عبر جسر ملائكيٍّ نحو المستقبل، فيفتح أمامك فُرصًا وأفكارًا وإنجازات... ويدفعك لاجتراح الخيرات والمبرَّات والطاعات... ليكون لك شريكًا في كلِّ نسمةٍ وحركة وسكنة؛ فتحمد غبَّه، وترجو ودَّه، وتدعو الله له بالقبول. أمَّا الآخر -ويا حسرتي على الآخر- فـ"يكفي بالشرِّ سماعُه"، ولا أزيد.

وإنما أنا سائل وجهي ابتداءً، ومسائلٌ وجه كلِّ منَّا تباعًا: "هل أنت من الصنف الوضَّاء، وبخاصَّة ساعة الصبح الأولى؟ أم أنَّك ممن لا ينشرح ولا يهلِّل إلاَّ لنفع، أو مصلحة... ثم ما يلبث أن يعود إلى جحره، ويلقي سحابة من الرماد على جبينه؟".

على كلِّ، وجهُك دليل قلبك، وصفحةُ روحك، وعنوانُ سريرتك... فانظر ماذا أنت فاعلٌ فيه، وتذكَّر دومًا وجه سليمان عليه السلام الأبرَّ ومقولته، وهو يستقبل نملة: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(النَّمل:١٩).

ماذا... وماذا... ثم ماذا؟

قد يبدو السؤال غريبًا وساذجًا لبداهته، لكن لو حمَّلناه السياق الذي يطرح فيه، ولو اكتشفنا الغاية التي يصبو نحوها، لتحوَّل السؤال إلى بحث جدير وبديع. وكلُّ قارئ لو توقَّف برهة، وكرَّر السؤال على نفسه مرَّات ومرَّات، لوجد أنه في أشدِّ الحاجة إليه، بل قد يكون خلاصه وملاذه وسرّ سعادته، وسبب حركته وسكونه، مبعثه الجواب الصواب على هذا السؤال القديم الجديد.

فمثلاً، نحن نعلم ونوقن -إن شاء الله- أنَّ ثمة إله، هو سبب للأسباب، وحقيقة للحقائق، وعين للحكمة.. ولكن ماذا عن علاقتنا به؟ وماذا عن علاقته بنا؟ وماذا يمثل سبحانه من قَدَر في قلوبنا الفارغة فراغَ فؤاد أمِّ موسى عليه السلام؟ وماذا فعلنا فيما أمرَنا به جلَّ جلاله، وفيما نهانا عنه، على الإجمال والقصد لا على الاختزال والحرفية واللفظ؟ ثم، ماذا نكون في حقه تعالى؟ مَرضيِّين! فواسعدنا؟. أم غير ذلك، فواحسرتنا؟ وماذا أعدَّ لنا الكريم يوم اللقاء؟...

ماذا... وماذا... ثم ماذا؟

إلى أن نجد الجواب الحق، ونعضَّ عليه بالنواجذ، ولا نبالي... السؤال أخي، ليس فلسفيًّا عامًّا، ولكنه توحيدي خاص... بي وبك... فلنعتبر جميعًا...

كيف... وكيف... ثم كيف؟

كثيرًا ما اختلف الناس في الكيفية، وهم مجمعون على الماهية؛ فما أيسر أن تدعو شابًّا مقبلاً على الصلاة -مثلاً- إلى الخشوع، وتزجره إذا لم يخشع، ثم تشرح له بسطحية دلالة الخشوع، وما يردِّده الناس عن الخشوع، بلا وعي... فإذا ما طَلب منك -وهو الحدَث الغرُّ- بيان الكيفية، وشرْحَ الأسباب الفاعلة، وتدقيقَ المعاني الخفية، والتدريب على كلِّ ذلك... تعللت بالأهمية، واكتفيت، ثم انصرفت إلى أمر آخر... وهكذا!

فما أكثر المواضيع التي نتناولها وعظًا، ولا نشرح للناس كيفية التطبيق، ولا آلية التغيير، ولا وسيلة الإصلاح، فنبقيهم حيارى بين اعتقادهم وقدرتهم؟!

ولنقل مثل هذا فيما حَلُّه وسرُّ التغيير فيه يكمن في الصناعة، وفي الإجراءات الفنية، بعد بيان الحكم الشرعيّ طبعًا؛ مِن مثل ضربِ المرأة كعبها على الأرض، فإذا ما ذهبتْ رفقة زوجها إلى دكَّان الأحذية، ونقَّبت عن حذاء واحد محترَم لا يُحدث صوتًا إذا احتك بالأرض لم تجد... والصانع المسلم -مع ذلك- يردِّد الصدى، وينقل ما أبدِع في غير محيطه، ويستورد ما أعِدَّ لغير سِربه.

فلنهتمَّ بالكيفية بعد الماهية، ولا نعتبر ذلك مجرَّد جزئية، وكفى!

فنُّ مقاومة الرياح العاتيات

ما أشدَّ الرياح العاصفة اليومَ على الأفراد والمجتمعات؛ فهي تهبُّ من كلِّ جانب، ولا تذر أخضر ولا يابسًا إلاَّ أتت عليه وجعلته كالرميم.. وفي مثل هذه الأحوال، على العاقل أن يتعلَّم كيف يقاومها، بحكمة وحنكة، دون أن يتنازل عن مبادئه وقيمه شرو نقير.. ولقد -واللهِ- علَّمنا المصطفى هذا الفنَّ: "فنُّ مقاومة الرياح العاتيات"، وهو الخبير الحليم، الذي وقف شامخًا أمام جميع العواصف، وخرج منها سالمًا، بل منتصرًا.

قال ﷺ: «مثلُ المؤمن، مثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها؛ فإذا سكنت اعتدل. قال: وكذلك المؤمن يُكفأ بالبلاء».

نعم، يا حبيبي، يا معدن الحقيقة، ويا نور الوجود، يا رسول الله... ومَا مثلُ غيرِ المؤمن؟

قال ﷺ: «ومثل الكافر كمثل الأرزَّة، صمَّاء معتدلة، حتى يقصمها الله إذا شاء» (رواه البخاري).

لقد وعيتُ الدرس يا معلِّمي، وفهمتُ المعنى يا مرشدي، وأدركت المغزى يا إمامي؛ وكلُّ دعائي أن يرشدني الله حتى أحوِّل هذا النور السرمديَّ إلى واقع عمليٍّ، وإلى حركية يومية، وأن لا أحبسه رهين أفكاري الدونية، وقناعاتي الدنية...

آمين... آمين.

روضة الورد

هو كتاب رائع جميل، لشاعر فارسي فحل هو: "سعد الشيرازي"؛ ولقد نبهني إليه صديق لي يتقن الفارسية ويستمتع بها؛ ويقول لي: "إنَّ مَن قرأ الشعر بالفارسية سُحر!". ومن نعمةٍ أني حمَّلت الكتاب من الأنترنت، وصعقتني الفاتحة المشحونة معنًى، وبهرني حسنُ الاستهلال المحمَّل حكمةً وحكمًا، قال لا فضَّ فوه:

"المِنَّة لله ﷻ، الذي طاعته توجب التقرُّب منه، وبشكره تزداد النعم. كلُّ نفَس واردٍ مَدَدٌ للحياة، وكلُّ نفَس صادرٍ راحةٌ للذَّات؛ إذن في كلِّ نفَس له عليكَ نعمتان، على كلِّ نعمة منهما شكر واجب".

فطاعة ربي وسؤالُه والحاجة إليه لا تزيدني ذُلاًّ، شأن غيره من المطلوبين الذي يتلذّذون بحاجة الناس، ويمنُّون ويستكثرون؛ حتى يجد السائل أنه صار مكبَّلاً وسجينًا للنعمة والمنعم؛ أمَّا الكريم المنّان، فلا يزيده تذلّلي إليه إلاَّ حُبًّا لي ورعاية، ولا يزيدني سِوى تقربًا منه ورفعة.. سبحانه... ثم ماذا؟

ثم إنَّ أنفاسي في ورودها هي "مددٌ للحياة"، وحين صدورها هي "راحة للذات"؛ ألا يجمُل بي أن أشكره كلَّ شهقة وكلَّ زفرة؟!

طبعًا، الحمد لله، والشكر له وحده... ولا أملك الكلمات التي أشرح بها هذا المعنى العميق، فليتأمّله كلُّ عاقل، وليَقِسْه بنفْسه ونفَسه، ما دامت الفرصة مواتية، وفي العمر نَسيٌّ.

الإيمان بالآخرة

هي عبارةٌ على قصرها، ترسم الخطَّ الفاصل بين السعادة والشقاء، بين الصبر والضَّجَر، بين الفوز والخسارة.. فالقاعدة -خلافَ بعض المعايير الضحلة- أنَّ كلَّ مؤمنٍ بالآخرة سعيدٌ، وكلَّ كافر بها شقيٌّ ضرورةً؛ فلا سعادة خارج هذا الإيمان، ولا شقاء مع ذلكم الإيمان.

قد يقول قائل:

"وأين الإيمان بالله تعالى، وبالرسل... وغيرها من أركان الإيمان؟"

لكني أقول:

"لا تعارُض، فكلُّ أولئك أوجه لعملة واحدة، لا تنفصل ولا تنفصم"...

وقد يعترض معترض بأنَّ في الدنيا سعداء لا يؤمنون بالآخرة، فيجاب عنه:

"فقط ارمق خائنةَ أعينهم، وتأمَّل خلجات قلوبهم، واكتشف أسرار حياتهم... تجد أنَّ سعادتهم تلك لا تعدو أن تكون مساحيق ظرفية، لا تقف لنوائب الزمان، فلا تغرَّنك المظاهر"...

واقرأ معي أخي، ثم تمثَّل، قول بديع الزمان النورسي رحمه الله:

"أتحَمَّل كلَّ هذا الحزن والأسى، بذلك الإيمان بالآخرة، رغم أنني ما كنت أتحمّل أيّة إهانة وتحكّم من أيّ أحد مهما كان.. إنَّ نور الإيمان بالآخرة وقوّته قد منحني صبرا وجَلَدا وعزاءَ وتسلية وصلابة وشوقا للفوز بثواب جهاد عظيم".

الحمد لا المدح

لولا الفهم لضاق الفكر، ولولا الفكر لساء الفعل، ولولا الفعل لتهارج الناس؛ وفي كلٍّ يجب أن نحسن، فإذا فهمنا فلنضبط الفهم، وإذا فكَّرنا فلنعمِّق الفكر، وإذا فعلنا فلنتقن الفعل.. وما أبلغ المتنبي في قوله:

وكم من عائب قولا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القريحة والفُهوم

فالقول الصحيح، بل أصحُّ القول ما جاء على لسان المصطفى ﷺ من قرآن كريم، ومن بيان شريف، قال ناهيًا، وكلنا آذان له: «احْثوا التراب في وجوه المدَّاحين»، ثم قال ناصحًا، أكرمنا الله بشفاعته: «من لم يحمد الناس لم يحمد الله؟».

إنَّ الفهم السقيم لهذين الحديثين قد يخلط المعاني، ويهدم المباني؛ فكيف نُنهى عن المدح، ثم نؤمر بالحمد؟ أليس المدح -في مذهب الناس- مرادفًا للحمد؟

نعم هما كذلك، لمن لم يعِ، ولم يدرك، ولم يحقِّق، ولم يسأل؛ أمَّا عند التحقيق، فنقرأ: "إنَّ المدح قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، أمَّا الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان". وأمَّا الحمد فحاصل من المحاسن في الصفات أو الفعل، فلا يُحمد مَن ليس في صفاته ما يستحق الحمد، ولا يُحمد مَن لم يفعل جميلاً! أمَّا المدح، فقد يكون قبل ذلك، وقد يكون لغير ذلك.

من هنا، كان الحمد حسنةً، لأنه يلتفت إلى الصفات والأفعال، أمَّا

المدح فهو متعلق بالمصالح، وبالمظاهر، وبالمطامع، وبالمناصب... فالمادح معتقدٌ الأسباب في ذات الممدوح، وغافلٌ عن ربِّ الأرباب؛ ولذا حقَّ لنا أن نحثو التراب على وجهه، فوجهه لم يعد محلَّ حمد، لصفاته القبيحة التي خدشته...

فلنحمد الناس، ولنقلع عن المدح، ترتفع عنا آفة سوء الفهم، ويزل منا سقم المعنى، وننلْ بذلك رضا الله تعالى، وشفاعةَ نبيّه الحبيب ﷺ.

الرجل الجبل

دأب الناس ضمن "وعائنا الحضاري" غالبًا، على الافتخار بمن مضى، والنظر إلى "العالِم النحرير" الذي غادرَنا بنظرةِ التقدير والتبجيل، وأحيانًا بنظرة التقديس المتجاوَز؛ أمَّا الذي يكون بيننا: يطعم مطعمنا، ويلبس ملبسنا، ويمشي في أسواقنا، فهو فقط: مشتغلٌ بالعلم، وهو مجرَّد "أستاذ"، أو على أكثر تقدير هو "محطُّ اهتمام لدروس رمضان، ولمحاضرات الملتقيات".

والحقُّ أنَّ بيننا اليومَ علماء لهم شأنهم، وفطاحل لهم شأوهم؛ يقدِرهم القاصي حقَّ قدرهم، ويغفل الداني فيجرِّحهم؛ وقد يتبجح الطالب المبتدئ، فيدَّعي أنه "أعلم منهم"؛ إنهم "لا شيء" وهو "كلُّ شيء".

ولقد كتبتُ عن الحمد، فوددت لو حمدت، ولا أبالي، ورجوت لو تعبدت الله بهذه "العبادة المهجورة" إلا نادرًا؛ فوقعتُ على كلمة لعالم عامل، ولرجل شهم: هو نسيج وحده، وهو مدرسة بكلِّه وبجميعه، قبل قوله وحَرفه؛ فقلت: "ألا يحقّ لي أن أبلغها للناس كما بلغتني"، حتى يكثر "فريق الحمد"، وننال الأجر موفورا، فنقدر "الرجل الجبل"، ومن على شاكلته، حقَّ قدرهم!.

أجل، قال أستاذي محطُّ الكلام، ومقصد المعنى[1] -أدام الله برَّه- ناصحًا لنا جميعًا: "امض أخي في نهجك، وسِرْ في دربك، وامش في طريقك، وتقدّمْ إلى أهدافك، وامدُدْ في حبال آمالك، وتوسّع في دوائر

---

[1] هو الدكتور الكريم، أستاذ: محمد ناصر بوحجام.

نشاطك، وعدّد في فضاءات تحرّكاتك... اعمل ولا تخف عصف ريح، وانهض ولا تخشَ خسف أرض، أُعلُ إلى طبقات السّماء ولا تنظر إلى من يقبع في الغبراء. عزمتَ على العمل، وتعلّقت بالأمل، فادأب إلى يوم الأجل، فالله يكون مُعينَك في مشوارك، مادام اليقين بالله مَعينَك في بدارك".

أتخشى على بناتي الفقر؟!

"بعدَ مُضيِّ عدة أيام من مرض ابن مسعود ﷺ الذي كان من أوائل المسلمين، والذي كان من أبرز طلاّب مدرسة رسول الله ﷺ، فاجأه عثمان ابن عفان ﷺ الذي لازم رسول الله ﷺ، وصلّى معه إلى القِبلتيْن، وشهِد معه معظم المشاهد- عائدًا وقال له:

- ما تشتكي؟

- ذُنوبي.

- فما تشتهي؟

- رحمة ربي.

- ألا آمر لك بطبيب؟

- الطبيب أمرضني.

- ألا آمر لك بعطائك؟ (وكان قد تركه سنتيْن)

- لا حاجة لي فيه.

- يكون لِبناتِك من بعدك؟!.

- أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أَمَرتُ بناتي أن يقرأن كلَّ ليلةٍ سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كلَّ ليلة لم تصبْه فاقة أبدًا"، وتُوفي ابن مسعود ﷺ» (رواه البيهقي).

تُرى، مَن مِن الناس اليوم يحمل بين جَنبيْه قلبًا خفَّاقًا باليقين، كقلب ابن مسعود ﷺ، وهو الذي حوى من العلم ما لم يحوه غيره، وروى من الحديث الكثير، ولازم رسولنا الكريم ثلاثًا وعشرين عامًا؟!.

بوبال... الرؤيا الصالحة

في بيت يحفُّه الأنس، ويجلِّله الوقار...يصبغه الإيمان المكين، ويجمِّله الفكر الرصين... ضمن وفدٍ من "الأكاديميا" و"مجلة حراء"، بمناسبة مؤتمر "ونحن نبني حضارتنا" في الرباط... وأنا جالس القرفصاء، سلَّمت نسخة من رواية "بوبال" لأستاذي الكريم، صاحب البيت العامر، العالم المفكِّر الدكتور أحمد عبادي؛ فتناولها من يدي، ثم بدت عليه أمارات الحيرة، فشرع يردِّد بخشوع، مرَّات ومرَّات: "سبحان الله... سبحان الله... سبحان الله...".

ولما سألته بعد أمدٍ، عن تأويل ردَّة فعْله عند استلام "بوبال"؛ قال لي: "منذ مدَّة قصيرة، رأيت في المنام أني أصلّي في بوبال، في مسجد جميل، لا تزال صورته ماثلة أمامي اللحظة... ولم أكن أعرف بوبال، بل كنت أعرفها باسم مغاير؛ فلمَّا كان الصباح، أخذت أبحث في الإنترنت، فاطّلعت على تفاصيل كارثة الغازات... ولم أجد تفسيرا لما رأيت... إلى أن جئتَ على قدرٍ، وسلَّمت لي هذه الرواية، في هذا الموكب الحبيب، وأنا عازم أن لا أنام اليوم حتى أتمَّ قراءتها... سبحان الله... سبحان الله... سبحان الله".

من جهتي، امتلكتني الخشية، وغمرتني الطمأنينة، وتيقَّنت أنَّ لـ"بوبال" شأنا آخر، لعلَّ الرواية تكون منبّها له، ومقدِّمة إليه... مجرَّد منبِّه... لهذا الشأن.

ألقيت تحيتي لمحمد يونس، الذي هو أنا، وأنت، وهو... وها هو اليوم يتمثَّل في شخص أستاذنا، من المغرب العزيز: الدكتور أحمد عبادي...

فسلام عليه... وسلام على بوبال... والله أن نسأل أن يجعلها "رؤيا صادقة": "يراها العبد الصالح، أو تُرى له!"... آمين.

إلهي، حمدي لك يستوجب حمدًا

عقدتُ العزم أن أناجي ربي شاكرًا، وأوالي الحمد له معترفًا، وأستغفره عن قصوري في "مقام الشكر والحمد"، وعن فرط غفلتي في الاعتراف بأفضاله وفواضله؛ فوقعتُ على "مناجاة الشاكرين" للإمام الحسين بن علي ﷺ، وألفيتها وافيةً مستوفيةً، بديعةً ملهمةً؛ ولم أجد سبيلاً إلاَّ أن أهدي بعض ما فيها للأحبة، أداءً للحمد بالأركان، وحقيقتها أنها أداء للشكر بالجنان، وباللسان... فليقبلها مني كلُّ مخلص صادق، عربون حبٍّ ووفاء:

"إِلهِي أَذْهَلَنِي عَنْ إقامَةِ شُكْرِكَ تَتابُعُ طَوْلِكَ، وَأَعْجَزَنِي عَنْ إحْصاءِ ثَنائِكَ فَيْضُ فَضْلِكَ، وَشَغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ مَحامِدِكَ تَرادُفُ عَوائِدِكَ، وَأَعْيانِي عَنْ نَشْرِ عَوارِفِكَ تَوالِي أيادِيكَ... وَهذا مَقامُ مَنِ اعْتَرَفَ بَسبُوغِ النَّعْماءِ وَقابَلَهَا بِالتَّقْصِيرِ، وَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالآمَالِ وَالتَّضْيِيعِ... وَأَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمِ البَرُّ الكَرِيمُ...".

إلهي، حمدي لك يستوجب حمدًا، وشكري لك يستتبع شكرًا... فحمدًا لك على نعمة الحمد... وشكرًا لك على نعمة الشكر... يا حميد يا شكور... لك الحمد ولك الشكر... حتى ترضى.

"بطن جائعٌ، ووجه مدهون"

هو مَثلٌ عربيٌّ، يضرَب للمتشبِّع زورًا، وله نظائر في الدارجة الجزائرية، منها قولهم: "الزَّلْتْ والتفَرْعِينْ"، أي الفقر حين يجتمع مع الفرعنة.. ولعلِّي أبغي من وراء هذا المعنى أن ألمح إلى خطر يداهمنا فرادى وجماعات، بل ينخر عظامنا مؤسسات وحكومات؛ وذلك بالاشتغال بالمظهر الخارجيّ، والإنفاق على المساحيق، والانخداع بالمظاهر والشكليات، وإعطاء القيمة للشكل على حساب المحتوى، وتقييم المزيَّف والتنكُّر للمؤصَّل... وإلاَّ، فما الذي يبرِّر البرامج الفولكورية، بل والمؤتمرات والملتقيات والمناسبات... الفارغة، ولا فراغ فؤاد أمِّ موسى.

مهلاً أخيَّ، لا تستعجلْ، قبل أن نتحدَّث عن مشكلة "التشبُّع بالزور"، وعن آفة "المظهرية"، و"الحرفية" في مستوياتها الكبرى، تعالَ نجلس ساعةً، ونقوِّم تصرُّفاتنا الفردية، واحدةً واحدةً: من داخل منازلنا، إلى علاقاتنا بالأجهزة، إلى تصرفاتنا تجاه الناس، إلى مشاريعنا التربوية.. إلخ.

لعلَّ الوباء قد انتقل من الخاص إلى العام، أو أنه نزل من العام إلى الخاص... هذا لا يعنينا في شيء.. وإنما الواجب هو أن نصدُق، ونولي الأولويةَ لما له أولوية، ونتقي الله فيما نأتي وما نذر... وأن لا يصدُق فينا المثل السائر: "بطْنٌ جائعٌ ووَجْهٌ مدهونٌ!"...

نعم العدلان، ونعمت العلاوة

سمع سيدنا عمر ﷺ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٥٧)، فقال: "نِعم العدلان" أي الصلواتُ والرحمة؛ "ونعمت العلاوة" أي الهدايةُ.

لكن، العدلان والعلاوة هي جائزة مَن؟ حتى نعمل على استنزالها، ونفوز بحَول الله بها؟

الجواب: أنها لمن صبر على الابتلاء، وهي لمن يقول حين المصيبة، مؤمنًا موقنًا، خاشعًا متدبرًا، عالمًا عاملاً: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة:١٥٦).

وبدورنا نهدي هذه النسمة لمن هو الساعة مبتلًى: ينزل به ألم، أو يعاني من محنة، أو يشتد عليه ضيق ماديٌّ، أو ينوء عليه دين، أو يؤلمه أمر في علاقاته العائلية، أو الوظيفية، أو غيرها... والحاصل أننا نسأل الله أن يفرّج عنه، وننصحه بالإنابة إلى الحكيم الرحيم، والقيام في جوف الليل، للصلاة، وتلاوة كلام الله، والبكاء لله، حتى تتبلل سجادته... فإنَّ الله تعالى يسمعه... ويفرج عنه يقينًا.

أمَّا ما يثقل كاهل الأمَّة من فتن ومحن، فعلينا جميعًا أن نقف هذا الموقف، ونستغفر لله من ذنوبنا، ونبكي لله حالَنا، حتى نستمطر الشفقة والرحمة، من الحليم الرحيم... غيثًا هامرًا، وسيلاً هادرًا.

اللهم فرّج عنَّا، وعن أمَّتنا... وارزقنا العدلين والعلاوة... آمين.

ميِّت بن نَوْمان!

ابن طفيل عالم فيلسوف، أديب فزيائي، مارس الطبَّ والقضاء والفلك؛ أندلسيٌّ، ولِد بها، ومات بمراكش.. له رواية بعنوان "رسالة حي بن يقظان"، اعتمدها مالك بن نبي في تحليل "الفراغ الكوني"، مقارنا بينها وبين "روبنْسون كروزو" لدنيال ديفو.

انتهيت من إعادة مطالعة "حي بن يقظان"، مرَّة أخرى، بحثًا عن "المعنى"، وعن "الجواب لسؤال الفراغ الكوني"، في إطار تأليف مشروع علمي معرفيٍّ، أصل الثانية بالثانية، والثالثة بالثالثة... في صياغته... سائلاً الله السداد.

لكن، قطع عليَّ حبلَ تفكيري سؤال هو: لمن كتَب ابن طفيل؟ ولمن ألَّف ابن نبي؟ ولمن أخط ما أخطُّ اليوم من أفكار؟

قد لا يعنيني الجواب كثيرًا، غير أني "جُبلت على حبِّ العلم"، ونشِّئت على "احترام الفكر"، وربِّيت على "الإيمان بأنّ المعنى لا يضيع، مهما طال الزمن"... ولا أعرف اليوم، هل استوعبتُ الدرس، أم أني لا أزال أتلمَّس الحقيقة، وأحبو نحو الحقِّ... بنفس متقطع، وخطًا وئيدة!

سؤالي إلى القارئ الحبيب، وإلى نفسي اللوّامة: هل تُغنيك ثقافة "الساندويتش" عن فكر الأمَّة الحقيق؟ وهل تسبيك "الفلاشات" عن زخم العلم الوثيق؟ وهل أصبحنا في غنى عن مصادر المعرفة الرصينة، أعني: الكتابَ المسطور، والكونَ المنظور، والرسول الكريم، والتراث القويم؟!

كلاَّ.. فإن يك حيّ بن يقظان، حامل أوصاف اليقظة والحياة، فإنَّ المجتثَّ من جذوره لا يحمل سوى أوصاف النوم والموت الزعاف، فحقّ لنا أن نسميه إذن "ميِّت بن نَومان"!!!

ناغورنو كاراباخ

"ناغورنو كاراباخ" (Nagorno Karabakh) اسم جديد ينضاف إلى فهرست محن الأمة الإسلامية، في عصرنا هذا، عصر "الظلمات" الاستعمارية الأمبريالية العالمية. "ناغورنو كاراباخ" إقليم يقع بين أذربيجان وأرمينيا، استولت عليه أواخر الثمانينات القوات الأرمينية، مدعومة دوليا، فأبادت حوالي ٢٥ ألف مسلم، وهجَّرت حوالي ١,٢ مليون آذري، لا يزالون يعانون إلى اليوم. لكنَّ الأزمة ليست هذه فقط، وإنما هي أزمة "جهلنا"، إذ ما دام "مصباح الكفِّ" لم يسلَّط إعلاميًّا على أزمة ما، مِن قِبل النظام الدولي، فستبقى هذه الأزمة تحت الظل، يغذِّيها جهلنا، وتغذيها فرقتنا، وتغذيها ذهنياتنا الصبيانية الادعائية الدونكيشوتية.

للعلم فقط، انتشرت ظاهرة الرهان بين الجنود الأرمن، فهم عندما يحصلون على امرأة حامل صيدًا لهم، يتراهنون فيما بينهم، إن كان ما في بطنها ذكر فهذا رابح، وإن كان أنثى، يخسر... ثم يبقرون ذلكم البطن، ويستخرجون ما فيه!

ولقد عالج الأستاذ فتح الله كولن هذه المحنة في مسجد جامع، قبل عقدين، وأوان تحليله لها أغمي عليه، من فرط التأثر والتألم... ولكنه، لم يقف هنا، بل أمر بالعمل المسؤول، وبالهجرات المكثفة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتبرئة الذمة أمام الملك الديان!

ألا ما أقبح العاجز والجاهل، حين يصابان بالغرور! وأقبح منه ادعاء الورع والتقوى، لمن يدور في جغرافيته الضيقة، كحمار الرحى، معتقدًا أن بداية العالم ونهايته لا يمكن إلا أن يكونا تحت رجليه القذرتين.

سؤال الخلق، وسؤال الحقِّ

بدأ الجو في مدينة الإسلام يعتدل، وقد ذابت الثلوج، وبسطت الشمس خيوطها الذهبية على السهوب والوهاد؛ فنطق البوسفور، وأنا أرمقه من علٍ، وقد زال الجفاء الذي حلَّ مدَّة بيني وبينه، جفاء يحل عادة بين حبيب وحبيبه، وبين صديق وصديقه... نطق، فسأل:

يا هذا، من أنت؟ ومن تكون؟ وماذا تفعل هنا؟ لماذا هجرتَ بلدك؟ ولماذا تخلَّيت عن مشاريعك؟ أين الصبر في الدعوة؟ أين هي المسؤولية التي تحمَّلتَها؟ ماذا فعلتَ بها؟ وهل أنت هنا سائح منعَّم، والناس هنالك يحترقون ويصبرون؟

طالت سلسلة أسئلته، وتذكَّرت أني سمعت مثلها من بعض الناس، وأني رأيت بعضها على وجوه آخرين، وإن لم يفصحوا عنها، حياء وتأدُّبًا..

ما الجواب، وقد حاصرني هذا النهر العظيم، مثل ملاكم بارع إلى زاوية يستحيل الخروج منها؟ هل سأبرر له؟ وهل سأجمع عددًا من التعلات والحجج، ثم أضربه بها، لعلَّه يسكت أو يرعوي؟

لا، لا شيء من ذلك حدث؛ ذلك أني تذكَّرت يوم الحساب، واستحضرت قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾(طه:١٠٨)، وقلت: ليس سؤال الخلق بشيء أمام سؤال الحقِّ، وليست محاكمة العباد بشيء في مقابل محاكمة ربِّ العباد...

إذن، ما الجواب؟

أقول، لا جواب مني للبشر، واللهُ يعلم ما في السرائر، وهو أعلم بحقيقة الأمر؛ وإنما في خلوتي، وفي قرارة قلبي، وحين سهري، وعند سمري،

وأثناء السحر، وفي كلِّ وقت؛ سأحمل نفسي الأمّارة على الجواب... ولا أزال، ولن أزال.

غير أني أتوجه لكلِّ سائل، حتى إليكَ أيها البوسفور الصدوق؛ فأقول:

هلاَّ سألت نفسك عن نفسك، وهلا استجوبت ذاتك عن ذاتك، ألا ترى أنَّ الناس اعتادوا محاسبة الآخرين، وغفلوا عن محاسبة قلوبهم وعقولهم، ونسوا أن ينظروا إلى أفعالهم وأقوالهم بعين الناقد البصير؟!

أمَّا أنا فقلت:

يا نفس، كفاكِ غرورًا، مَن تكونين؟! ألا ترين كيف قصَّرتِ في كلِّ شيء؟! ألا تنظرين إلى حماقاتك ورعوناتك وأخطائك التي لا حدَّ لها؟

أستغفر الله، تحرَّك الموج قليلاً، واستفقتُ مِن خواطري، الساعة بجواري ترنُّ، وتدعوني للعمل والكتابة، وللتفكر والتفكير، وتذكِّرني بقيام الساعة بغتةً... آه.

فيا ربِّ اغفر لي، وتقبَّل مني، ولا تؤاخذني... آمين يا ربَّ العالمين.

يا نفسُ، تسالبي!

النفسُ مِقدامة، مُحِبَّةٌ للظهور، راغبةٌ في التقدير، مائلةٌ إلى الإثراء، داعيةٌ للتفوُّق... لا تقبل الاحتقار، ولا ترضى باللوم؛ هي دائمًا "موجِبة"، أبدا بارزةٌ، محترقةٌ، متشوّفةٌ، قلقةٌ، مضطربةٌ... هي هكذا، وهي كما خلقها الربُّ الكريم، أمَّارة، لوَّامة، قلَّما تكون مطمئنّة، راضية مرضية.

يا نفسيَ التي في حَشاي، هلاَّ "تسالبتِ"، وهلا "انتفيتِ"، وهلاَّ بحثتِ عن أرض جرُز فدفنتِ فيها ضعفكِ، وأحقادكِ، وهواجسكِ، وظنونكِ، وتقلُّباتكِ... فعدتِ إليَّ نقيَّةً صافيةً، خاليةً من الأوساخ والأدران، طاهرة مطهَّرة، هادئة ساكنة؟!

يا نفسُ، لِمَ أنت هكذا دوما تعذّبينني، وتمنعينني الهدوء والراحة، وتحرمينني النوم والمتعة؟!

قالت النفسُ، وقد صمتَتْ طويلاً، وصبرتْ فيما يبدو كثيرًا، ولقد قلقت من استجوابي الأرعن:

"يا هذا، بي أنت إنسانٌ؛ لو كنتُ كما هويتَ لما كان لك من فضل على باقي الخلائق؛ بي ستحاسَب، وعلى إثري ستُسأل؛ رحماتُ ربّي تتنزَّل عليكَ وعلى الكون حين تروّدني، كما أنَّ سخطه يحلُّ بالعباد حين تقبّحني؛ فنصيحتي إليكَ أن لا تنصحني باللسان وأن لا تدلّلني، وأن لا تتركني للغفوة والغفلة".

ثم تنهَّدتْ، وقالتْ: "ألم تقرأ قوله جلَّ من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾(البقرة:٥٤)، ثم قال: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ﴾(البقرة: ٥٤).

بدت عليها أمارات الحزن والأسف، واغرورقت عيونها دمعًا سخينًا، ثم رفعت هامتها، كأنها تنظر بعيدًا، وقالت: "يا صاحبي، إنني، أنا، نفسُك، بشهوتي وعصياني.. جعلتُك تتمرَّد على المنهج،. فقتْلُك لي كفَّارة لذنبك، واعترافٌ منك بالعودة إلى جادَّة الصواب، ودليل منكَ على أنك أعدتني إلى بارئي وخالقي".

أنهتْ نصائحَها، فأمرتُها زاجرًا:

"يا نفسُ، تسالبي، واصغُري، واضمُري، واعلَمي أنك لا شيء... وتعلّقي بربِّ كلِّ شيء، ترجِعي إليه راضية مرضية، وتدخُلي في جنته، وتدخُلي في عباده".

يا نفسُ...!

استدارتْ، ثم ابتعدتْ مني رويدًا رويدًا... حتى اختفت وغابت... واستفقتُ فسمعتُ لساني ينادي ويردِّد بخفُوت:

"يا نفسُ تسالبي... يا نفسُ تسالبي... يا نفسُ تسالبي".

إلهي، اجذبني جذبةً إليك

"إلهي، جودُك على عبادك أطمعني فيكَ... إلهي، خطِيئاتي وذنوبي أيأستْني منك؛ فأزِل يَأسِي، واجذُبني جَذبةً إليكَ حتى لا أرجعَ بعد ذلك إلى غيرِك... إلهي معصِيتي إيَّاك وجَّهتني إلى بابِ كرمِك، وخطيئاتي أمالتني إلى جَنَابِك؛ يا حنَّان يا منَّان، يا غفَّار يا مُنعم".

كلُّ شيء... جميعُ الأشياء... تشدُّني إليها بعنفٍ!

كلُّ الخلائق... جميع المخلوقات... تقبض على تلابيبي بقبضة من حديد!

هوايَ، ماذا أفعل به، وهو هنا، في داخلي، يهمس لي صباح مساء، عند مطلع الفجر وحين الغروب؛ يدعوني إلى "المتعة"، و"الراحة"، و"الزينة"، و"الكسل"، "والجور"، و"المعصية".

الشيطان، يحمل طبلاً ومزمارًا، ويقف إلى جوار هوايَ ونفسيَ الأمَّارة، يُعيد كلَّ كلمة يسمعُها منهما، مع القرع والنفخ، مُكاءً وتصديةً، بالصَّفير وبالتَّصفيق.

حتى علبة الصابون، التي أشتريها لتنقية الملابس، حمَّلوها صورًا فظيعة، أتذكَّر أنها تباع بحانوتٍ جوار مسجد حيِّنا... وحتى الرسالة، التي كنَّا نستلمها بيد ساعي البريد، صرنا اليوم نتلقاها بيد برامج نملكها، ولا نملك سفوحها، وهوامشها، وأعلاها، وأسفلها؛ لأنَّ جميع تلك المساحات ملكٌ خالص للشيطان؛ إلاَّ ما شذَّ، يفعل فيها، وبها، ما يشاء...

نعم، قد أصبرُ أنا، ولقد أحوِّل عيني محملقًا يمنة ويُسرة؛ لكن ما بال الشابِّ المراهق؟! وما مصير مَن لا يتلو آية، ولا يصلي ركعة، مِن أبناء

ملَّتنا؟!

هنا، أقف، وأعترف، مطرقًا رأسي، نادمًا من ذنوبي... فأجدُ الله، مِن هنا ومِن هنالك؛ مِن قريب ومِن بعيد؛ بصوت خافتٍ وبصوت جهورٍ؛ في الصباح وفي المساء؛ عبر آية أو عبر حديث؛ من خلال نعمة أو جراء نقمة... أجد اللهَ -ولقد وجدتُه فعلاً- يدعوني ويناديني، تارة بالتبشير وأخرى بالإنذار... باللطف والرحمة والشفقة، وهو الغالب؛ أو بالعقاب والتأنيب والتحذير، وهو النادر.

قلت، وقد رمضت الفصالُ:

"ويحكَ، إنَّه الله يناديكَ، أتُراك معرِضًا عنه يا أحمق"!

تسمَّرتُ... جمدتُ... تصلَّبتُ... إلاَّ قلبي المحبُّ كان يهفو، وعلى إثره لساني العاشقُ كان يهمس: "إلهي، اجذُبني جَذبةً إليكَ حتى لا أرجعَ بعد ذلك إلى غيرِك... يا ربِّ... يا ربِّ".

فجأةً سكتتُ، ثم انتصبتُ، فوجدتُ ريحا طيبة، وهدوءًا على صفحة البال، ونسمة تغازل القلبَ؛ لكأنَّها، أو لعلَّها، من الجنَّة حقًّا، ومَن يدري؟ يا ربِّ... يا ربِّ... يا حنَّان يا منَّان، يا غفَّار يا مُنعم.

تعلَّم كيف تبيع نفْسَك!

يبدو أنَّ رياح العصر تهبُّ بشدَّة، وأنَّ العديدَ من بني البشر لا يقدر على مقاومتها، ولا على مواجهتها بالانحناء الإراديّ؛ فتراهم يُفتنون في كلِّ عام مرَّة أو مرَّتين؛ إمَّا بشعارات سياسية، أو دعوات اقتصادية، أو خطابات عاطفية، أو مباريات رياضية؛ أو حتى أعمالٍ ومسرحيات وأفلام فنّية ثقافية.

ومن تلكم المَوضات العاتية، تعليم الناس "فنَّ الخضوع، وأدب الخنوع"، وتدريبهم على "طريقة فتح الفم بهدوء ليقولوا: نعم"، وعلى "الابتسامة الباردة التي لا تمتدُّ إلى القلب بصلة"؛ حتى إنَّ بعض الوظائف باتت تحضِّر أصحابها لا ليبيعوا ويتبادلوا المنافع مع الآخرين، لكن ليكونوا هم أنفسهم بضائع، إمَّا بحركات أجسادهم، أو بجمال سحناتهم، أو برشاقة قدِّهم، أو بقوّة عضلاتهم... كلٌّ حسب مؤهلاته وخصائصه.

ولقد ساهمت التربيةُ في كثير من الأحيان في إعداد هؤلاء لسوق "النخاسة" الجديد؛ بل وبعض من العقول الجبارة، والأذهان الذكية، والأمخاخ الموّارة؛ تعدُّ بعناية لتباع إلى جهاتٍ، ولتهجَّر من بلد إلى بلد، بما يشبه عملية نقل العبيد في القديم، وبما يعبر عنه حاليًّا بعملية "الانتحار في مواطن العمل".

ولقد عبّر البعض عن هذه الحال -مستهزئًا ساخرًا، متألمًا متأسفًا- بعبارة دالة، وبأسلوب إنشائي لاذع، فقال ناصحًا من أراد مجاراة ما بعد الحداثة: "تعلَّم كيف تبيع نفسك!". ومع قليل من التحوير والترجمة إلى لغتنا المبسطة، نقول: "تعلم أن لا تكون إنسانًا!".

وهكذا، من لم يتعلم كيف يبيع نفسه لربِّه، اضطرَّ إلى أن يبيع كلَّه لغيره.

ما بعد التشييئ والحوسلة

من تعوّد على لغة "نموذج الرشد"، التي صاغها المفكِّرون الذين ارتضيناهم مراجعَ، بل وأعضاءً في "جماعة علمية" مفترضة؛ فإنَّه يدرك أنَّ مصطلح "التشييئ" يعني عند مالك بن نبي "تحويل الإنسان إلى شيء"، أو "إلى بضاعة".. أمَّا "الحوسلة" عند المسيري فتعني "تحويل الإنسان إلى وسيلة"؛ والمؤدَّى واحد.

وأنا أطالع مقالا لـ"لوسيان سيف"، بعنوان "إنقاذ الجنس البشري، وليس فقط الكرة الأرضية"؛ بدا لي أني اهتديت إلى أنَّ المسألة لا تتوقَّف في هذه المرحلة، بل تتعداها إلى "تشخيص الأشياء"، وبقاموس ابن نبي "تحويل عالم الأشياء إلى عالم الأشخاص"، أو "أنسنة المادة" بعبارة أدق؛ كيف يتم ذلك؟

الإجابة على السؤال الآتي توضِّح المسألة: هل البشرية اليومَ تصنع الأشياء لأجل الإنسان، أم أنها تصنع الإنسان لأجل الأشياء؟

طبعًا، كلُّ متأمِّل، غيرِ منَمَّط الفكر، ولا محنَّط العقل، يدرك أنَّ ما يعرف "بالقوَّة العاملة" اليومَ صارت تعَدُّ بعناية، لا لكي تكون سعيدة، لكن لكي توفِّر الرخاء أكثر، وتضمن الخدمة أكثر، وتنتج السلع أكثر؛ بل وحتى الحروبُ تقاد اليومَ بالبشرِ لأجل توفير المال، والثروة.

لقائل أن يقول: هذا الأمر معروف منذ القدم..! فنجيب أنه نعم كذلك، ولكنَّ الجديد هو أنه تحوَّل إلى صناعة، وإلى استراتيجية، بل حتى إلى نموذج معرفي، ورؤية كونية، ولم يبق في عداد الأخطاء العملية التطبيقية اليسيرة.

وماذا عن العمل؟

الجواب، أنَّ إدراك مثل هذا المفهوم، والتعمُّق في هذه الدلالة، والتحرك وفقها؛ كفيلٌ بأن يجعل المرء يفرِّق، وهذا بذاته نوع راقٍ من أنواع العمل، إنه من صنف الوعي، الذي يسبق الفعل... فليتأمل.

العنف الناعم، والعنف الخشن

يطلق البعضُ مصطلح "العنف الناعم" على العنف الذي تمارسه المرأة على الرجل، تحت مسمَّيات كثيرة، منها "المساواة"، و"الديقراطية"، و"الحرية"، وغيرها.. ولكنَّنا في هذه النسمة لا نعني به هذه الدلالة، وإنما المقصود هو هذه الصورة الذهنية:

• رجل قتل رجلاً بمطرقة رماها على رأسه: في أدبيات العصر، يُعرف هذا بالعنف الخشن.

• ورجل آخر قتل رجلاً بيديْن عليهما قُفّازان من حرير، في هدوء، بعدما أسلمه للتخدير، لكأن المقتول لا يحسُّ: هذا يسمِّيه أهل "الأناسة" اليومَ بالعنف الناعم.

وصورة أخرى أكثر شمولية:

• تُستعمر بلاد على رمَّتها، باسم حقوق الإنسان، وحماية الحريات، ويُباد لأجل ذلك الآلاف، بل الملايين؛ هذا "العنف ناعمٌ"، وهو مستساغ نفسيًّا، وإعلاميًّا، بل ولا يسمى في الدوائر الرسمية عنفا أبدًا، وما شأن أمريكا في العراق ببعيد.

• وكلُّ عنف جاء بصيغة أخرى، حتى ولو كانت النتائج والخسائر أقلَّ شناعة، وأخفَّ وطئًا؛ فإنَّ هذا العنف يوسم بـ"العنف الخشن"، وهو مرفوض، ومحارب مِن قبل الجميع.

أين يكمن الخلل؟

طبعًا في "المفاهيم"؛ ذلك أنَّ كلَّ عنف هو عنفٌ وكفى، سواء أكان ناعمًا بقفّازيْن من حرير، أم خشِنًا بمطرقة؛ ولنحذر الانزلاق وراء "حرب

المفاهيم"، التي تجعلنا مشاركين مساهمين، في تقبُّل العنف الناعم؛ شرِسين مندفعين تجاه العنف الخشن.

الصواب أن نحارب كلَّ ظلم وكلَّ عنف، ونقبل كلَّ عدل وكلَّ رحمة؛ وأن لا نقبل بفراغات في "منظومتنا المفهومية"... وإلاَّ فارتقب الساعة.

كوني درّة!

هي بنت "أبي لهب"، ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(المسد:١)؛ وهي بنت أم جميل بنت حرب ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾(المسد:٤)، وهي أخت عتيبة الذي دعا عليه رسول الله ﷺ: «اللهم سلِّط عليه كلبا من كلابك»؛ وما كان لدعاء رسول الله ﷺ أن يردَّ.

غير أنها تحدَّت الجميع، وتحدَّت جميع الظروف، فأعلنت الشهادتين، وحسُن إسلامها، ثم هاجرت إلى المدينة... فتزوجها -منَّة من الله وفضلاً- الصحابيُّ الجليل دِحية الكلبيُّ، الذي كان من أجمل الناس طلعة، وكان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله على صورته... ثم هي أحبّت عائشة أمَّ المؤمنين، ولازمتها، وأخذت منها العلم، وروت الحديث.

أختي الكريمة العزيزة، كوني درَّة، وتأمَّلي ما كانت عليه وما آلت إليه؛ فأسباب التوفيق والهداية إذن هي "ذاتية"، هي من "نفسكِ" ومن "ذاتكِ"، وليست من الخارج، ولا من الآخرين؛ فلا تلوذي إلى التعلاَّت، ولا إلى التبرير بأيِّ سبب آخر، مهما بدا قاهرًا؛ ذلك أنه لن يكون أبدًا أسوأ من حال درَّة، ومن حال امرأة فرعون.

لا تحتجَّ أخي "إياكَ أعني واسمعي يا جارة"؛ فكن دحية الكلبي، أو أيَّ صحابيٍّ شئت، ذلك أنَّ ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ عليه الصلاة والسلام، رجالا ونساء، جميعُهم يبتغي ﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾، وكلهم وعَدَهم الله ﷻ، وعظم فضله:﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الدودة الألفية، والذي تفلسف...

التقت ضفدعةٌ دودةً ألفية تسمَّى في تركيا "ذات الأربعين رجْلا" فقالت لها: "عندما تمشين، في أيِّ اتجاه وبأيِّ منطق تحرّكين أرجلك الكثيرة؟!" دخلت الدودةُ جحرها، وبقيت تفكِّر مهمومة، فأطالت التفكير؛ ولما أرادت المشي استحضرت السؤال، فحاولت أن تحرِّك أرجلها بمنطق عقلها، فاختلط عليها الأمر، وتداخلت الأرجل، ولم تقْدر على السير، حتى ماتت!

هذا المثل يساق لتحليل العلاقة بين الفكر والفعل؛ فرغم أنَّ كلَّ فعل ينبغي أن يصدر عن تفكير وروية، لكنَّ الأفعال البديهية، اليومية، الاعتيادية، المألوفة، ينبغي أن لا نشغل العقل بها، إذ يكفي أن نأتيها كما اعتدنا وكفى؛ ثم نوفّر طاقة العقل لغير المألوف، وللجديد، وللصعب، ولما يجب فيه التفكير حقًّا.

ويشبه هذا المثل مثلاً عربيًّا آخر، يقول: "تفلْسف الحمار، فمات جوعًا"، ومورد المثل:

"كان هناك حمار يمشي في الطريق، وقد أنهكه التعب والعطش والجوع، وبعد مدة من السير وجد على اليمين العشب وعلى اليسار الماء، فذهب ناحية اليمين ليأكل العشب، فقال لنفسه بأنه عطشٌ جدًّا جدًّا، ولما أراد الذهاب ناحية اليسار لشرب الماء قال لنفسه بأنه جائعٌ جدًّا جدًّا، وبقي على هذه الحال حتى مات".

أخي، فكّرْ، ثم اعمل؛ واعمل، وأنت تفكِّر؛ لكن لا تكن مثل "الدودة الألفية"، ولا مثل "الذي تفلسف"... فمات!.

صوامع المرابطين

أن أكون مؤمنًا راشدًا، عالمًا عاملاً شيءٌ؛ وأن أكون مؤمنًا ساكنًا، داعيًا عاطلاً شيء آخر.

فالإيمان بالمفهوم الثاني قد يحقق السعادة لصاحبه آخرةً، وأمرهُ إلى الله؛ ولكنه -للأسف- لا يقدِّم ولا يؤخّر في واقع الأمَّة، ولا في مصيرها، بل هو أحد أشدِّ أعراض المرض فتكًا في تاريخنا.. ومثال ذلك "جبل العُبّاد" الذي لجأ إليه الزهاد، بعيد سقوط الدولة الرستمية. وكذا "صوامع المرابطين" التي لجأ إليها النُّسّاك منذ عهد ابن خلدون.

أمَّا الإيمان بالمفهوم الأوَّل، فهو الإيمان الكامل، الذي يحقِّق السعادتين، ويضمن الجنّتين، ليس للفرد فقط، لكن للأمَّة ولعيال الله ولخلقه، بل للكون جميعه.. وأروع مثال لذلك هو العهد النبوي، وكذا الخلافة الراشدة؛ ومن آخر نماذجه "علي عزّت بيجوفيتش" رحمه الله، الذي أقام دولة إسلامية في قلب أوروبا، وهو يعاني من غدر الشرق، وكيد الغرب، على السواء... فما أضرَّه ذلك أن يكون "المؤمن، العالم، العامل، الراشد" بجدارة.

أما آن لنا أن نصطلح مع إيماننا الشموليّ، وأن نصلح مفاهيمنا ورؤانا الكلّية!

أخي أنتظر منك الجواب!

ما طبيعة هذا الكون الذي نعيش فيه؟ وما هي بنيته العامة؟ هل في قوام هذا الكون عنصر دائم؟ كيف ننتمي إلى هذا الكون؟ وأيَّ موقع نحتلُّه منه؟ وأيَّ نوع من السلوك يتلاءم مع هذا الموقع الذي نشغله؟ وما حقيقة الإنسان؟ وما هي مصادر الحقِّ والصواب؟ ومن أين ينشأ الخطأ والانحراف؟ وما هي معايير الخير؟ وكيف نفرقه عن الشر؟ ومن يحدد هذه المعايير والمقاييس؟... إلخ.

هي أسئلة مشتركة بين الدين والفلسفة والشعر، وهي مطروحة بشكل مفتوح ودائم على كلِّ عقل، ولكلِّ إنسان جواب أو أجوبة عليها، بطريقة أو بأخرى؛ سواء أدرك ذلك أم لم يدرك، عرف أم لم يعرف. وإن تصرفاته وأقواله ومواقفه لتفضح أجوبته شاء أم أبى.

أخي، أختي، أيها القارئ، لا تدع عقلك يكسل، ولا تقبل من فكرك أن يذوب في أجوبة محفوظة موروثة، أو منقولة مصوَّرة فوتوغرافيا؛ لكن أعمِل عقلك، وفكِّر، وأجهد ذهنك، واعلم أنَّك مسؤول وقادر، ولديك مصادر تنير لك المنهج، على رأسها كلام الله تعالى، وسنّة نبيه المصطفى ﷺ، والتراث والفكر الإسلامي بخاصة، والإنساني بعامة؛ فأجب عن الأسئلة بوضوح.

أهيب ببعض التجمعات الطلابية، أو الوظيفية، وببعض المجموعات المتصادقة، أن تجلس مثنى وثلاث ورباع، ثم تتفكر.

وإني منتظر منكم الجواب، والله الموفق للصواب.

العمل والفكر

يستهلُّ فيلسوف الإسلام محمد إقبال كتابه "تجديد الفكر الديني" بعبارة دالة موحية ملهمِة، جاء فيها: "يؤكد القرآن على العمل أكثر من تأكيده على الفكر"؛ أمَّا المجدد محمد فتح الله كولن، فيكتب مقالاً مِفصليا بعنوان: "الحركية والفكر"، يستهله بقوله: "يمكن تلخيص خطَّ كفاحنا كورثةٍ للأرض بكلمتَي الحركية والفكر".

والسؤال هو: لماذا العمل أكثر من الفكر؟ ولماذا الحركية قبل الفكر؟

الحقُّ أنني أطلتُ النظر في السؤال، ولا أستطيع أن أختزل الجواب، ولديَّ مقاربات عديدة، لكنني هذه المرَّة رغبت في إشراك القارئ الحبيب معي، فإليه أوجِّه هذا السؤال؛ لكن فقط أنبه إلى أنَّ المسألة لا تعني "العلم أو العمل"، "الحركية أو الفكر"؛ وإنما هي "و" واو العطف، بكل ما يحمل العطف من دلالة عوض "أو" وهو حرف يفيد الشك والتخيير والإباحة، والتحيير أحيانًا؛ بالحث إذن على الأكثرية والأولوية، وعلى الترتيب وتعليل الترتيب، ولا يكتسي الحوار -البتة- طابعًا إقصائيًّا اختزاليًّا؛ ثمَّ إنَّ المقصد هو إصابة الحقِّ، وعشق العلم، وعزم العمل، والغاية هي نيل رضا الله تعالى بالقلب الخاشع، والعلم النافع، والعمل الرافع.

السؤال مطروح، والإجابة منتظرة، والله الموفق للصواب.

إليك أيها الفطن!

تعرّف القواميس اللغوية "الفطنة" بأنها "الفهم"، وتعرّفها بالنقيض على أنها "ضدَّ الغباوة"؛ لكن التدقيق في الدلالة يُظهر أنّ الفطنة تتجاوز الفهم، وهي أكثر من كونها ضدَّ الغباوة؛ فما الفطنة إذن؟

صاحب "النور الخالد"، صاغ فصلاً بعنوان: "عظمة الفطنة في نبوة محمد ﷺ"، في مستهله يقول: "الفطنة هي تجاوز العقل بالعقل، وهي منطق النبوَّة، وهذا المنطق هو النظر إلى الأشياء والحوادث من خلال منظار قد جمع بين الروح والقلب والحسِّ وسائر اللطائف الإنسانية". ثم يضيف "إنَّ الفطنة ليست عقلا ومنطقا جافا فحسب".

وإنها -إذن- الملكةُ الإنسانية حين يغمرها روْحٌ من الوحي السماويّ، فتولد من رحمها "الرؤية الشمولية الكلية التوحيدية"، وتتفتق من باطنها "المعقولية" التي تزن كلَّ شيء وكلَّ أمر بـ"ميزان الحق"، لا بـ"وزن الخلق".

فالفطنة حين التعريف، مثل الزمن، كلُّنا يعرفها، وإنَّ من الناس لمَن يعرفها بنقيضها؛ فالفطِن يدركها ببصيرته، والغبي يعرفها بالتعطُّش إليها؛ لكن يبقى السؤال العميق، للقارئ الصديق، هو:

كيف نربّي أنفسنا -أوَّلاً، والأجيال المنتظَرة ثانيًا، بالفطنة، وفي الفطنة، ومع الفطنة، وعلى الفطنة، وللفطنة؟

لا أرتقب الجواب باللسان، لكنني أرقبه بالجنان والأركان.

باختصار، لا يجيب عن الفطنة إلا الفطن؛ فكلّكم بحول الله ذلك الفطِن.

ظلُّ العمل، وعمل الظلِّ

بات المتأمِّل مقتنعا أنَّ كلَّ علم لا ظلَّ له في الواقع وعلى خطِّ الزمن، ما هو إلاَّ أسلوب من أساليب التهريج والتهييج.. فمثل صاحبه كمثل أحد أبطال "عرائس القراقوز": خواءٌ في الجوهر، ومساحيق على المظهر، وتشدُّق بالكلام بلا طائل؛ ثم إنَّ هذا الصاحب لا يملك حركته، بل هي رهينة اليد التي تتوغَّل في أحشائه؛ سواء أكانت تلك اليد يد شيطان، أم يد إنسان.

ولقد بات المتأمِّل، مرَّة أخرى، على يقين تامٍّ، لا تشوبه شائبة، أنَّ كلَّ عمل يزهو بنفسه، ويبحث عن الأضواء الكاشفة، فيقدِّم طلب المحمدة وشكرَ الناس والأجرة العاجلة، على الحمد وشكر الخالق والأجر من الله؛ مثل هذا العمل، ومثل ذلكم العامل، لا خير فيه، ولا رجاء من بابه؛ فهو مثل "الموبتشو" -لمن يشاهده- وهو مهرِّج، بهلوان، يوظِّف ظاهره بمهارة، قصد إثارة الضجيج والضحك لدى الناس؛ ولا يهمُّ مع ذلك أكان ما خفي منه حقًّا أم باطلاً، صوابًا أم خطأً... المقصد هو الآخَر، لا غير.

فنموذج الرشد، ونموذج الفعالية، يقوم على صورة متكاملة متكاثفة، بين العلم والعمل، إنها صورة "ظلِّ العمل، وعمل الظلِّ".

فلينظر كلٌّ منا في كلية الصورة، ولنحذر التنميط، والتسطيح... وليكن الله تعالى هو مبتغانا ورجاءنا، ولنردد موقنين نداء عباد الله المؤمنين: ﴿حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾(التوبة:٥٩).

الفكرة الخاطئة، والفعل الخاطئ

إذا لحق الخطأ عملاً أو مشروعًا، فإنما يأتيه من باب "الفكرة"، أو من نافذة "الفعل"؛ ولقد نبَّه محمد إقبال إلى أنَّ "الفكرة الخاطئة تشوِّش الفهم، أمَّا الفعل الخاطئ فإنَّه يحطُّ من قدر الإنسان ككلٍّ، وربما يقضي نهائيًّا على كيان الذات الإنسانية".. ثم يقرِّر حُكمًا نعرِضه للمناقشة والنقد، فيه يقول: "مجرَّد الإدراك لا يؤثِّر في الحياة إلاَّ تأثيرًا جزئيًّا، أمَّا الفعل فإنَّه ديناميكيٌّ يتعلَّق بالحقيقة، ويصدر عن موقف عامّ ثابت للإنسان ككلٍّ إزاء الحقيقة".

لقد هممتُ أن أنقض حكم إقبال، لولا التريث المنيف، والقراءة المتأنية المستوعبة، وتتبع الدلالات في عمقها، والنظرُ إلى السياق العامّ والخلفية المعرفية لفلسفة إقبال؛ مِن هنا أنبِّه إلى أنَّ مناقشة قضايا عميقة من مثل ما طرحتُ من قبل، في النسمات السابقة؛ ومن مثل ما أطرح في هذه النسمة؛ يجب أن يكون ملازمًا للمعاناة، مرافقًا لكدح السؤال والبحث؛ ولا يجوز أن يتلبَّس بلبوس الادعاء، والفوقية، والتخبُّط العشوائي؛ لأنَّه في النهاية "قول" و"فعل" سنسأل عنهما يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾(الطارق:٩)...

ولا أعني أحدًا ممن علَّق وتفاعل، وإني شاكر لهم ممتنٌّ؛ ولكني أصوغ القواعد والقوانين، وأخاطب قلوبا محبَّة صادقة، وعقولا نابهة فطنة!

أخيرًا، أعود إلى إقبال، وأقول: نعم، إنه يَعتبر الفعل مرحلةً متطوِّرة من الفكر، وهو صادر عن "موقف ثابت إزاء الحقيقة"، أي عن "رؤية كونية"، و"رؤية للعالم"، و"للمعنى"؛ ومن ثم صدق أنَّ "الفعل الخاطئ يحطُّ من قدر الإنسان ككلٍّ، وربما يقضي نهائيا على كيان الذات الإنسانية".

نعم، الفعل ديناميكيٌّ يتعلَّق بالحقيقة... ولذا كان الخطأ فيه مضاعفًا.

المرجعية، والفهم العقلاني، ثم الانقياد

النظام سمة من سمات الحياة البشرية؛ فمِن عادة الناس أن يتَّبعوا نظامًا معيَّنًا، في مختلف جوانب حياتهم: الروحية، والتشريعية، والمادية، والجمالية، والاقتصادية، والسياسية... الخ. من مثل: الدين، والمذهب، والجمعية، والمؤسسة، والهيئة، والحزب... وغيرها.

لكن، يجب أن ننبِّه إلى أنَّ اتباع أيِّ نظام يفترض "الخضوعَ الكامل، والتفهُّم العقلانيَّ، والتحقُّق من المصدر والمرجعية التي يؤسِّس عليها هذا النظام وجوده"؛ ومن حيث الترتيب الإدراكيُّ تأتي المرجعيةُ أولا، ثم الفهم العقلاني ثانيًا، ثم الخضوع الوجداني والفعلي أخيرًا.

فلنقِس الآن حالنا مع أيِّ نظام من الأنظمة التي ألفنا اتِّباعها: هل أعملنا فيها الشروط الثلاثة الآنفة الذكر؟ أي:

- هل تحققنا من مرجعيته؟
- وهل أدركناه إدراكًا عقلانيًّا حصيفًا؟
- ثم، هل خضعنا له خضوعًا كليًّا، وفيًّا، ملتزمًا، صادقًا؟

أجد هذه الثلاثية عجيبة في تفسيرها للكثير من مواقف الناس، المتبعين للكثير من الأنظمة؛ لكنهم عادة لا يخضعون، ولا يلتزمون، بل يبحثون عن الثغرات لينفذوا منها، وعن الفرص ليتملَّصوا من تبعاتهم وجهتها؛ ثم تفشل الأنظمة، وتفشل على إثرها "الكتل البشرية"، ويحلُّ الشك والوهم والتمرُّد، محلَّ اليقين والحقِّ والانضباط؛ فكلُّ بحث عن العمل خارج هذه الدائرة -بغير اتباع لهذه الأسباب، ومن دون مراعاة لهذه الشروط الثلاثة- هو مجرَّد صيد للذباب، وسباحة في التراب، وجحود بيوم الحساب!

القسم الرابع

مجانين أريد...!

قصص من واقع الخدمة تفوق الخيال،
مقروءة ضمن نموذج الرشد

بين يدي القصص

غداة لقاء لم أشهد له مثيلاً من قبلُ... لقاءٍ يعرف باسم "هِمَّتْ"[1]، يجمع رجال الأعمال في مشروع "الخدمة"[2]، الذي يقود سمفونيته العالِم الربَّاني "الأستاذ"[3] محمد فتح الله كولن، في تركيا الحضارة والتحدِّي... لقاءٍ يتمُّ التنافس فيه على التبرُّع بالمنح للطلبة الجامعيين، من داخل تركيا وخارجها.

غداة هذا اللقاء، بدأتُ أفكِّر مليًّا في عملي الثاني ضمن نموذج الرشد، تحليلاً لفكر الأستاذ، وتسليطًا للضوء على مشروع "الخدمة"؛ وقد يسَّر الله تعالى ميلاد كتابي الأوَّل، بعنوان: "البراديم كولن"[4]، الذي تسلَّمته غضًّا طريًّا في "الأكاديميا"، في حفل بهيج، وفورانٍ من العواطف والمشاعر،

---

[1] أي "الهمَّة"، وفيه يلتقي المحسنون المنفقون للتباري في التبرع بالمنح للطلبة، فبعضهم يقدر على المئات، والبعض الآخر على العشرات، وآخرون على الآحاد... والجميع ينفق ما عنده همَّة وإيمانًا، وحسن ظنٍّ في الله وإحسانًا.

[2] أي كل ما ينسب إلى حركة الأستاذ فتح الله كولن، وأصل المصطلح مأخوذ من عبارة ترد عند بديع الزمان النورسي كثيرًا، وهي: "خدمة الإيمان والقرآن".

[3] كلما ذكر "الأستاذ" في هذا المؤلف يقصد به: الأستاذ محمد فتح الله كولن.

[4] أنجز المؤلف ضمن مشروع "الأكاديميا"، ونشر سنة ٢٠١١ في دار النيل بالقاهرة، وكذا في تركيا، ثم طبعة ثالثة في معهد المناهج بالجزائر... بحمد الله تعالى.

تندّ عن وصف الواصف...

غداة هذا اللقاء، وأنا أصلِّي الفجر، خاشعًا لله خاضعًا[٥] ومُسقطًا لما أسمع من آي الذكر الحكيم، على ما أشاهد -خلال جلسات "همَّت"- من آي الفعل الكريم... انقدح في ذهني عنوانُ المؤلَّف الجديد، لكنَّني طردتُ الاستطراد، وأجَّلت إجالة الخاطر، إلى ما بعد الصلاة.

ثمَّ بعد الصلاة فكَّرتُ، وخمَّنت، وحلَّلت... فوافقتُ، وكان العنوان الملهَم، هو: "مجانينَ أريد!"، بغيةَ الاقتراب أكثر من دائرة الفعل، وقد كان "البراديم كولن" أقربَ إلى دائرة الفكر؛ وإن كان الكتابان، بحمد الله، يتراوحان بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل، ويسكنان في رحاب هذه المساحة الشاسعة الرحبة... مما يعرف بـ"نموذج الرشد"[٦].

مجانين أريد!، حفنة من المجانين!

هذا نموذج من نماذج "البراديم كولن"، لعلَّه الأكثر شهرةً وتردُّدا في البحوث والدراسات[٧]؛ لأنَّه يدعو إلى الخروج عن المألوف، بأسلوب خارج المألوف... ويحثُّ على الثورات، في "زمن الثورات"[٨]؛ لكن ليس بدلالة الإقصاء والهدم والكسر، بل بمنهج القبول والبناء والجبر...

أنصتوا إلى النموذج بروح وثَّابة، تهوى الحكمة، وتتعشَّق المعالي،

---

[٥] وكان ذلك ضمن رحلة "رجل رشيد"، لإطارات معهد المناهج والمشاريع الملحقة به، وقد كانت لنا إقامة كريمة في دار الطلبة: "اليُورتْ"، معروفة باسم "الحسَن البصري"، وهي دار تعج بالأرواح الزكية الطاهرة، وبالملائكة الكرام البررة.

[٦] للتوسع في تعريف نموذج الرشد، ينظر: البراديم كولن، الفصل الأول، ص:١١-٢٦.

[٧] للاطلاع على النماذج الأخرى، ينظر: البراديم كولن، الفصل الثاني، ص:٣٧ وما بعدها.

[٨] أي زمن ما يعرف بالثورات في العالم العربي، ابتداء من تونس، ثم مصر... وغيرهما.

تَسعدوا وتُسعِدوا:

"تشبَّعْ بحبِّ الله إلى حدّ الجنون.. لا يغرينَّك عنه حسنٌ ولا يفتننَّك جمال.. اِرقَ على كلِّ المعادَلات، وتسامَ على كلِّ المقاييس.. ارفع شعار الثورة ضدَّ كلِّ مألوف، واهتِف كما هتف الرومي "هلمَّ إليَّ يا إنسان".. ثم ادفن نفسك في غياهب النسيان.. نادِ كما نادى بديع الزمان "واإنسانيتاه"، ثم امضِ ولا تفكِّر بسعادتك الشخصية... أجَل، اِنس رغَد الحياة، انسَ البيت والولَد، واسلُك درب أهل السموِّ الواصلين؛ لتكون من الناجين.

مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين!

يثورون على كلِّ المعايير المألوفة، يتجاوزون كلَّ المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرُّون وإليها لا يلتفتون. أريد حفنةً ممن نُسبوا إلى خفَّة العقل لشدَّة حرصهم على دينهم، وتعلُّقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدَحهم سيِّد المرسلين ﷺ، إذ لا يفكِّرون بملذَّات أنفسهم، ولا يتطلَّعون إلى منصبٍ أو شهرةٍ أو جاه، ولا يرومون متعةَ الدنيا ومالها، ولا يُفتنون بالأهل والبنين...

يا ربِّ، أتضرَّع إليك... خزائنُ رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كلَّ سائل مطلبه، أمَّا أنا فمطلبي حفنةً من المجانين... يا ربِّ، يا ربِّ"[٩].

أمَا وقد استجاب الله دعاءَ "الأستاذ"، وأنزل من السماء وابلاً من الرحمات والخيرات، فأنبتت الأرضُ على إثرها ملايينَ من البشر، يتمثَّلون

---

[٩] مجلة "حراء"، العدد: ١٤ (يناير-مارس ٢٠٠٩)؛ موقع "محمد فتح الله كولن"، صفحة "الفصول"، الرابط: http://ar.fgulen.com/content/view/706/121

صفات الصحابة الكرام، ويتطلَّعون إلى سمات الملائكة العظام... يلهثون وراء القبول والتوفيق، لا يثنيهم عزم، ولا تنكصهم إرادة؛ هم "مجانين" من الطراز الأسمى، و"ثوَّار" من النوع الأعلى.

أمَا وقد كان ذلك كذلك؛ فإنَّ الحكمة تقتضي نقلَ أمثلة وقصصٍ منهم، بغية رسم معالم "الأسوة والقدوة"[١٠]، ونقل التجربة إلى الأمم الأخرى، وهي تشهد لحظات "الميلاد الأحمديّ السعيد"، وتتوسَّم خيرا في "أجيال الأمل"، وترقُب بشغفٍ عودة "جيل الإرشاد"، أولئك هم "فدائيُّو المحبَّة"، و"وارثو الأرض"، و"رجالُ القلب"[١١].

كلُّ واحد من هؤلاء المجانين مدرسة بعينها، كيف وإن زاروك مجتمعين، فتلك بغيةُ الرجاء، ومنتهى الأمل؛ تعالَ معي -أخي- نفتحْ بعضًا من خزائن أسرارِهم، شريطة أن نسافر بنيَّة الهجرة، وندخُل المحراب بأنوار الوضوء؛ فنكون جميعًا في عبادة وذكر، وجهاد وفكر.

[١٠] إشارة إلى قول الأستاذ في مقال بعنوان "سحر الإسلام": "وكلَّما أسند الكلام الجيد بالتمثيل الجيد والقدوة الحسنة استطاع تهييج القلوب، واجتياز جميع العقبات، والوصول إلى كل قلب يحمل استعدادا للخير وتوجها له".

[١١] ما بين الشولتين في هذه الفقرة إشارة إلى عناوين لمقالات الأستاذ فتح الله كولن.

يا علي، احترق تنطلق![١٢]

استدعى "الخُوجا أفَنْدي"[١٣] عليًّا، وقد توسَّم فيه أمارات المجاهدة، وظنَّ فيه أسباب الهجرة، فقال له: "اذهب إلى "أرضروم"[١٤]، وابنِ فيها مدرسة، وأخلص نيتك لله...".

اسَّارع السيد عليٌّ يسابق الريح نحو "أرضروم"، فأقام بها حينًا من الدهر، يشرح الفكرة، ويشحذ الهمم، ويدعو الناس إلى التبرُّع والسخاء... إلاَّ أنَّه لم يلقَ من أهلها إلاَّ ما لقي نوح عليه السلام من قومه، وقد دعاهم "ليلاً ونهارًا"، "علانيةً وإسرارًا"... فلم يزدهم دعاؤه إلاَّ "فرارًا"!

عاد الرجل إلى "الأستاذ"، يجرُّ أمامه خيبة الأمل، ويسوق وراءه معاني الأسف[١٥]، عاد إليه يشتكي حاله، ويبكي بين يديه إخفاقه.

وما كان عليٌّ ليعتقد السبب في "الأستاذ"، بل كانت شكواه، وكان بكاؤه لله بين يدي "الأستاذ"؛ على أملٍ أن يرشده ويعلِّمه، ويصف له الدواء النافع، والحلَّ الناجع.

---

[١٢] وقد يصدق كذلك أن يقال: يا علي، احترق ثم انطلق!. فلكلا الصيغتين جمالها الأدبي، ودلالتها العميقة.

[١٣] وهو صفة الأستاذ محمد فتح الله كولن.

[١٤] محافظة "أَرضُروم" (Erzurum) هي إحدى محافظات تركيا. عاصمتها مدينة أرضروم ؛ تبلغ مساحتها ٢٤,٧٤١ كم٢ ويبلغ عدد سكانها ٩٣٧,٣٨٩ نسمة. تقع في شمال شرق تركيا. وقد ولد محمد فتح الله كولن في قرية "كوروجوك" العائدة إلى قضاء "باسِينْلَر" التابعة لمحافظة "أَرضُروم".

[١٥] في أصل اللغة يكون الجرُّ لما في الوراء، والسوق لما في الأمام؛ وقد تعمَّدت قلب الصيغة، إشارة إلى أنَّ السيد علي هو حالة غير طبيعية، وقد انقلبت الموازين عنده ومعه في هذه الحالة.

سأله **الأستاذ**: يا عليّ، هل حدَث لك شرَقٌ، وتوقَّفت اللقمة في حلقك، وشارفتَ على الهلاك... وأنت تفكِّر في أمر مدرسة "أرضروم"؟

عليّ: لا يا أستاذي، الحمد لله، الطعام مستساغ عندي، ولا شيء من ذلك وقع.

الأستاذ: وهل تقطَّع جنبُك، وضبُرت جنباتك،[١٦] وأنت تتقلَّب على الفراش، مهمومًا مغمومًا، بسبب المشروع؟

السيد **علي**: لا أستاذي، الحمد لله، نوْمي هنيٌّ، ولا شيء من ذلك وقع.

الأستاذ: يا سيد علي، هل تفجَّرت براكين في أحشائك، وتقطَّعت أوصالُك إربًا إربًا، وأنت تفكر في المشروع، وفي حال الدعوة ومآلها في "أرضروم"؟

السيد **علي**: لا، أفنْدمْ، صحَّتي جيِّدة، وأنا مُعافى في بدَني والحمد لله، ولا شيء من ذلك وقع.

الأستاذ: إذن، لم تحترق بعدُ في سبيل القضية، فأنَّى ترجو أن تبلغ المنى، وتذلِّل المبتغى؟ يا علي، احترق تنطلق؛ وعُد إلى أرضروم، لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا. يا علي، "احفر في الزمن نفَقًا... وأقم جسرًا... وعن السير لا تتوقف...".

* * *

لهيبُ نار الحرقة مسَّ شغاف قلب عليٍّ، فأحاله بنور الله خزَّانا للوقود، يتفجَّر، ثم يُشعل محرِّكات الأسباب: سببًا... سببًا... حتى وإن كانت في

---

[١٦] أقصد به تصلُّب الجلد الذي يصيب ظهر الحصان جرَّاء الاحتكاك بالسرج أو الرَّحل. وفي لسان العرب: "الضَّبْر والتَّضْبِير: شدة تَلْزِيز العظام واكتناز اللحم".

حجم الدنيا ضخامة وثقلاً.

غادر عليٌّ النومَ، وطلَّق الطعام، ونسي متطلَّبات جسده الترابي... فانطلق وهو يكرِّر، بصوت تعلوه بُحَّة من شدَّة البكاء، مَقطعًا من نشيد حفظه منذ أمد:

"واصلون... واصلون...

وبعون الله واصلون...".

* * *

هنالك في "أرضررم"، وهو يسير بين أطرافها، شاهدَ ثكنة عسكرية، تتربَّع على تلالٍ خضراء زاهية، وترسو على أراض شاسعة بهيَّة... ثم قال في نفسه: لعلَّ القدر يسكن هنا!.

ثم تجاوز المستحيل، فطلب لقاءً مع "قائد الثكنة"، ورُفض طلبه... ثم طلب.. ثم رُفض... ثم طلب... ثم رُفض... ثم ألحَّ وألحَّ، فدخل... وقال: "سيدي، جئت "أرضروم" بِنيَّة بناء مدرسة، ولم أجد سبيلاً إلى ذلك، فلمَّا رأيت صرحكم المبارَك، قلتُ في نفسي: لعلَّ هذه الأرض تليق لذلك؛ ما دام الجيش حامي الوطن من الاعتداء والإغارة، والمدرسةُ حامية الوطن من الجهل والجهالة!".

لم يستغرق الحوار طويلاً؛ حتى لان قلب القائد، وليست قلوب البشر، مهما كانوا، من حَجر[١٧]... فقال وقد أحضر أمامه خريطة الثكنة:

"اختر أيَّ قطعة تريد، واشرع عاجلاً في البناء، وإذا احتجتَ إلى

---

[١٧] نستثني من البشر الذين بلغت قلوبهم قسوة الحجر وأكثر، مَن ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم، ومن هم على شاكلتهم، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾(البقرة:٧٤).

المساعدة في شيء، فسآمر الجنود بتقديم يد العون... اذهب، عنايةُ الله تكلأك".

* * *

خرج عليٌّ من الثكنة، كأنَّه في حلم، أو في عالم آخر، يسير... ويسير... وهو يردِّد مقولة الحكيم: "احترق تنطلق... احترق تنطلق... احترق تنطلق".

وها هي مدرسة "العزيزية" في أرضروم تنتصب شاهدًا ودليلاً، وربُّك يخلق ما يشاء ويختار!

صاحبة الدَّيْن

طرقت الباب بهدوءٍ وحياء، كأنَّها متردِّدة متوجِّسة، تنتظر القدَر الكريم يُعينها... ففتحت البابَ ربَّةُ البيت، وإذا أمة لله قدَّامها، تظلِّلها غمامةٌ من الكفاف[١٨]، وتتلألأ في محياها هالةٌ من العفاف.

الطارقة: السلام عليكِ ورحمة الله، أختي الكريمة.

ربة البيت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، مرحبًا.

الطارقة: معذرةً، جئتكِ قاصدةً فلا تردِّيني، ظننتُ فيكِ خيرا فلا تخيِّبي ظنِّي.

ربة البيت: إني فاعلةٌ -بحول الله- ما استطعتُ إليه سبيلاً، وحسبي قول الكريم المنَّان: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾(الضحى:١٠).

الطارقة: علينا -أنا وزوجي- ديونٌ، لم أجد وسيلةً لسدادها، إلاَّ في العمل منظِّفة في بيتٍ، أو صائنة لدرَج عمارةٍ؛ فهلاَّ قبلتِ أن أكون خادمةً عندكِ، ولكِ منِّي الثناءُ والدعاء، ومِن الله الأجر والجزاء؟!

ربة البيت: لكن، هلاَّ صنتِ كرامتكِ، وتركتِ زوجك يتدبَّر الأمر، فلعلَّه يكون الأقدر على ذلك؟

الطارقة: أعان الله زوجي وتقبَّل منه، فقد بذل جهدًا، وشاء الله تعالى أن يخسر في تجارته... ثم خاب ظنُّه، وانكسر خاطرُه، وليس له إلاَّيَ رفدا ومعينًا.

---

[١٨] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾(البقرة:٢٧٣).

ربة البيت: كم هي ديونُك؟ وفيمَ كانت هذه الديون؟

الطارقة: عذرًا، لا تحرجيني، فلستُ أبغي أن يحرمني الله الأجرَ والمثوبة، وليس لي في الدنيا ملاذٌ إلاَّ بابه، ولا مطلبٌ إلاَّ معيته.[١٩]

ربة البيت: طيِّب، لا عليك، سامِحيني... ليس ذلك مقصدي... مرحبًا بك... مِن الساعة أنت أختي ومعينتي، والشادَّةُ على أزري... أعِدُك أنك بإذن الله في صون وحصن وأمان.

* * *

عملت "الطارقةُ، صاحبةُ الدين" ما شاء الله لها أن تعمل، بصبر وإخلاص، ومصابرة وتفان؛ ولم يصدُر منها يومًا أنَّة ولا آهة، ولا تحسُّر ولا تذمُّر... فملأتْ ربوع البيت بركاتٍ سماوية، وأنوارًا ملائكية... إلى أن أتمَّت الأجل، وحصلت على ما تريد من مال يكفيها لسداد دينها.

وجاء يوم الوداع، فقالت لربَّة البيت: "بورك لكِ، وفيك، وفيمن ربَّاكِ وأدَّبك... وجزاك عن الدِّين وعن الملَّة خير الجزاء، فقد كنتِ نعمَ المعين، ولك من المولى أجر مفرِّج الكرَب[٢٠]... فاللهمَّ اكتبها في عبادك المحسنين... يا ربَّ العالمين".

بدموعٍ سخينةٍ، منهمرة رقراقةٍ، تمَّت مراسيمُ الوداع... هُما قلبان على الحسن والإحسان تلاقَيا... فانطلقت الطارقة بعيدًا... بعيدًا... إلى أن قاربت الاختفاء... فلحقت بها ربة البيت مهرولة، وقالت: "معذرة، هلاَّ

---

[١٩] إشارة إلى يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(يوسف:٨٦)، ومَن كانت هذه حاله أوتي أجر "الصبر الجميل".

[٢٠] في رواية عمر ﷺ، في الصحيحين، قال رسول الله ﷺ: «من فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة» (رواه مسلم).

أخبرتني الآن فيمَ دينُك، وقد أبلغَكِ الله مُنيتك؟".

الطارقة: نعم، أمَّا الآن فنعم. صمتَت طويلاً، ثم أطرقت، وقالت: "لقد نذرتُ أنا وزوجي أن نتكفَّل بنفقات طالبٍ للعلم، لا نعرفه ولا يعرفنا، في موكب "الهمَّت"، "خدمة للإيمان والقرآن"؛ راجين العونَ من الملك الديان... فكان ما قصصتُ لك من أمر الخسارة، ولم نشأ أن نُحرم أجر نذرِنا[٢١]؛ ولكنَّ الله هداني إليكِ بفضله، وهداك لقبول طلبي بمنّه... وها نحن اليوم سعداءُ فرحون، مهلّلون شاكرون... أن بلَّغَنا اللهُ مقصدنا، ولم يخيّب أملنا... والحقُّ أقول: لقد كنتُ ولا أزال أردِّد -مطلع كلِّ شمس- الحديثَ القدسي الشريف: "أنا عند ظنِّ عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء"[٢٢]... وها أنا اليوم أشهد نفحاته النورانيةَ عين اليقين، بعدما كنت أعلمها علم اليقين...".

* * *

لم تقدر ربَّة البيت أن تنبس ببنت شفة[٢٣]، كأنَّ الخبر العجيب نزل عليها صاعقة، وهي تقيس -في قرارة نفسِها- همَّتها إلى همَّة الطارقة، صاحبةِ الدين!

ولم يطُل المشهد كثيرًا؛ حتى ودَّعتها صاحبة الدين... وهنالك في أفق الملائكة... استقرَّ ظلُّها، وهو يردِّد مقولة الحكيم:

---

[٢١] قال تعالى مادحًا عباده الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾(الإنسان:٧).

[٢٢] رواه ابن حبان بلفظه، وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يموتنَّ أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظن بالله»(رواه مسلم).

[٢٣] نبس نَبْسًا، ونُبْسَةً: تحرَّكت شفتاه بشيء؛ وأكثرُ ما يستعمل في النفْي، يُقال: ما نَبَس بكلمة، وما نَبَس ببنت شفة. فهو نابِسٌ. ينظر- المعجم الوسيط للفيروز ابادي.

"أمَّا الأعمال المتوجِّهة لرضا الله تعالى وحده، فإنَّ الذرَّة الواحدة منها تعادل الشمس، والقطرة الواحدة منها تعادل البحار، واللحظة الواحدة منها بقيمة الأبد".

عربة العمِّ رمضان[٢٤]

هنالك، وراء مسجد صغيرٍ، عثمانيّ النفحات، بحي "أُسْكُودَار"[٢٥]، في الركن الآسيوي من مدينة الإسلام إسطنبول... هنالك، تصفُّ عربةٌ خشبيةٌ، بجوار مثيلاتها؛ غير أنَّها فيما يخفى على أعين الناس، قد تكون أسعدَ منها؛ لا لشيءٍ، إلاَّ للعناية الربَّانية التي نالتها فساقتها إلى "العمِّ رمضان".

ففي صباح كلِّ يومٍ، بُعيْد صلاة الصبح جماعةً، والدخولِ في كنف الله وعنايته، ورجاءِ الفوز بذمَّته وحفظه؛ ثم بُعيْد قراءة تسابيح الصباح، وتلاوةِ أواخر سورة الحشر بخشوع وخضوع.

في كلِّ صباح، بوجهٍ طلق، وحبور فيَّاض، ينطلق "العمُّ رمضان" من مسجده إلى عربته، يتعهَّدها، وينظِّفها، ويزيِّنها بمختلف ألوان الزهور الزاهية، والأعشاب الخضراء اليانعة... ويضع عليها بضاعته الثمينة، ثم يتوجَّه وجهة شاطئ "البوسفور"[٢٦]، حيث محطَّات المسافرين عبر السفن والعبَّارات.

في كلِّ صباح، يقف "العمُّ رمضان" وقفة الجنديِّ في ساح الوغى، لا

---

[٢٤] اخترت الاسم "رمضان" رمزًا للسخاء والكرم والجود، وإشارة إلى الحديث الشريف: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»(رواه البخاري).

[٢٥] هو حي "أسكودار" (Üsküdar) باللغة التركية.

[٢٦] البوسفور أو مضيق إسطنبول بالتركية İstanbul Boğazı، باليونانية Βόσπορος: هو مضيق يصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة، ويعتبر مع مضيق الدردنيل الحدود الجنوبية بين قارة آسيا وأوروبا. يبلغ طوله ٣٠ كم، ويتراوح عرضه بين ٥٥٠ متر و ٣٠٠٠ متر.

يتعبُ، ولا يجلسُ، ولا يتأفَّفُ، ولا يشتكي... كأنَّ بينه وبين الكسل طلاقٌ بينيٌّ... يقف هنالك، إلى أن يبيع كلَّ ما لديه، أو ينتهي اليومُ وقد بقي معه بعض البضاعة، فيغادر المكان حامدا شاكرًا.

لم يكن لسان "العمّ رمضان" يفتُر لحظةً عن الدعاء، وعن الصلاة على النبيّ المصطفى ﷺ، وعن التهليل والتسبيح والتكبير... متمتمًا، جادًّا، خاضعًا، مستذكِرًا معاني ما يقول، وهو دومًا يردّد هذا الدعاء النافذَ، الذي حفظه من "الأستاذ" في بعض دروسه التي كان يلقيها قبل عقدين من الزمان في مسجد كبير، قريبٍ من هذا المكان، وفيه يقول:

"اللهمَّ زدني ثقة بك،

وبدعائي المتوجّه إليك،

واجعل رعايتي للأسباب، وقيامي بها، شعورًا بأداء الوظيفة...

اللهمَّ إن بعدتُ عنك جحودا منّي، فحالي ينطق بأني لن أستطيع شيئًا دونك،

فالطُف بي، لا بدرجة جحودي، بل بدرجة حاجتي إليك"..

هذا ظاهر القصَّة الموسومة بـ"عربة العمّ رمضان"، فما هو ياتُرى باطنُها؟ وما هي حقيقتُها؟

الحقيقة والباطن تكشفهما صُرَّة الدراهم التي كان "العمُّ رمضان" يودِع فيها مدخوله اليوميَّ من الليرات؛ فأنصِتوا إليها وهي تخبرنا أنَّ العمَّ رمضان يقسّمها ثلاثة أقسام:

قسمٍ ليشتري به بضاعةً جديدة ليوم جديد، وقسمٍ ليسدَّ به رمقه ورمق عائلته الكبرى، كفافًا عفافًا، وقسمٍ ثالثٍ، هو محطُّ عناية "العمّ رمضان"؛ ذلك أنَّه خصَّصه لتمويل منحةٍ كاملةٍ لطالب علمٍ، في موكب "الخدمة"

المبارَك.

و"العمُّ رمضان" لا يستقلُّ فعلَه هذا، ولا يحقر صدقته هذه[٢٧]، رغم سماعه ومشاهدته لبعض التجَّار المحسنين الكبار، وهم ينفقون مئات المرَّات أكثر مما ينفق هو.

ولقد ارتقى "العمُّ رمضان" هذا المرتقى؛ لصفاءِ سريرته، وصدقِ نيته، وهو يعرف أنَّ وجهة برِّه ومعروفه هي الله، وأنَّ الغاية هي رضا الله، وأنَّ دفتر الحساب بيد الله، ويعلم علمَ اليقين أنَّ القلَّة والكثرة في حقِّ الكريم المنَّان، لا تخضعان لمقاييس الأعداد، ولا لمعايير العباد.

المهمُّ أنَّ "العمَّ رمضان" يحبُّ عربته؛ لأنَّها في نظره واعتقاده، هي التي ستقف شاهدةً له عند الملك الديَّان أنَّه كان مُحسنًا، وكان منفقًا، بل كان آيةً في البطولة والإيمان، وعنوانًا للجهاد والإحسان.

فطوبى للعمِّ رمضان، وطوبى لعربة العمِّ رمضان!

---

[٢٧] في رواية لحديث أبي جري الهجيمي عند أحمد، أنَّ أبا جري قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب بشملة له، وقد وقع هدَبها على قدميه، فقلت: أيكم محمد؟ أو رسول الله؟ فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله، إني من أهل البادية، وفيَّ جفاؤهم فأوصني، فقال: "لا تحقرنّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط" الحديث. وفي رواية أبي ذر: "بوجه طلق".

شمسٌ تسطع من مغربها!

في حديث صحيح رواه الشيخان وغيرُهما، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها؛ فإذا طلعت من مغربها آمن الناسُ كلُّهم أجمعون» (رواه مسلم).

ولمعنى "طلوع الشمس من مغربها" توجيهاتٌ عميقة لدى السادة العلماء، منها توجيه نُقل عن "الأستاذ" أنه: دلالة على انتشار الإسلام في غرب العالَم؛ وأنَّ "الشمس" رمزٌ لنوريات الدين الإسلاميّ الحنيف؛ وأنَّ "الطلوعَ" إشارة إلى انتقال الدين ثانيةً عكس مساره التاريخي، أي أنَّه سيعود من المغرب والغرب، لينتشر في المشرق والشرق.

بغضِّ النظر عن جزئيات هذا التوجيه الحكيم، الذي نُقل إلينا مشافهة، إلاَّ أنَّه يبعث الأمل في النفوس، ويبشِّر بغدٍ للإسلام مشرقٍ؛ فالحكمة إذن تقتضي التفاؤل بالحديث الشريف، والعملَ على تحقيقه في دنيا الناس: بجهاد واجتهاد، وإيمان وإحسان.

* * *

هذا شابٌّ من المغرب الأقصى، هاجرَ إلى الغرب مسترزقا؛ وهنالك شاء الله أن يتزوَّج فتاة طيبة عفيفة طاهرة. وليلة الزفاف الميمون أهدى إليها مفاتيح سيارة من الطراز العالي، عربونَ حبٍّ وصفاء، ودليلَ ودٍّ ووفاء!

لم تفكّرْ العروس[٢٨] طويلاً؛ بل إنَّها بعفوية نادت زميلاتها في

[٢٨] الصواب في اللغة العربية أنَّ "العروس" يقال للرجل والمرأة على السواء. يقول ابن منظور

"الخدمة"، وسلَّمت لهنَّ المفاتيح تبرُّعا ومعروفًا؛ لنشر دين الله وتقوية صفِّ الإيمان والقرآن.

بُهِت[٢٩] الزوج، وخفق قلبه بين حيرةٍ وتعجُّب، وقبول واستنكار؛ إلى أن سألها عن السرِّ، فأوضحت له -بعد أمدٍ- روح "الخدمة" ومداها، ونشرت عليه عبير الهجرة وشذاها؛ فبكى الرجل، ووعد الله أنَّه سيسبقها في هذا المضمار... فانطلق وهو لا يلوي على أحد.[٣٠]

عاد إلى بلده في عطلةٍ، وراح يبحث عن طيور "الخدمة" في المغرب، ويسأل عن حاجاتهم؛ فهداه الله إلى شراء أرضٍ سخا بها لبناء مدرسة من النوع المختلف.

لكن، بعد زمن ليس باليسير، بقي الحال على حاله، وبقيت الأرض يتيمة تستمطر مَن ينبري لتشييدها وإعلاء صرحها... فانتظر البطل حتى عالَ صبرُه، وتجمَّل حتى نفُد اصطباره.

* * *

ذات ساعةٍ، وفي سحر يوم شتائيّ النسمات، هاتَف الزوجُ المحسِن شابًّا معلِّما من شباب "الخدمة"، وقال له: "هلاَّ رافقتي إلى أرض المدرسة، الآن؟!".

تلكَّأ الشاب، وحاول ثنيَه عن جنونه، فلم يُفلح، وكان يحذِّره من كلاب هائمة فوق التلَّة، ومن حرَّاس مسلَّحين، قد يخطئون فيهما ويردوهما هلكى، ولا مِن مغيث... لكن؛ أنَّى له إيقاف إعصار البرِّ والخير إذا تبدَّى؟

في لسان العرب: "العَروس: نَعتٌ يَسْتَوي فيه الرجل والمرأة ما داما في إعْراسِهما".

[٢٩] يصح في اللغة "بَهُت وبَهِت" إذا دهش وتحيَّر، وأفصح منهما "بُهِت".

[٣٠] أي لا يلتفت إلى أحد. وفي حديث قتادة: "فانطلق الناس لا يَلوي أَحد على أَحد".

* * *

فوق الأرض، تحت السماء، وحدهما، والله ثالثهما... رفع المحسن كلتا يديه إلى الأعلى... واصفًا حاله، باكيًا، داعيًا، ملحًّا، متذلِّلاً، هائمًا، عاشقًا... قائلاً: "اللهمَّ ارزقني المال الكافي، لأبني هذا الصرح التربوي، فأكون من المرضيين عندك...".

* * *

لم يكن الله ليردَّه خائبًا، وقد وعده، ووعدَنا، بالاستجابة إذا أخلصنا النية؛ وبالقبول إذا صفَّينا القلب من الشوائب...

وفي ذلك العامِ رزقه الله ثلاثة أضعاف قيمة البناء، فوفَّى وعده، وأعلى صرحَ المدرسة، وأخذ العهدَ على الشابِّ التركي المرافق أن لا يذكر ذلك لأحد؛ إلاَّ أنَّ الشابَّ قبِل منه حذْفَ الاسم وإخفاءَه، ورفَض كتْمَ العبرة والسكوتَ عنها... فأبرِم العقد بين الإثنين، وبلغتْ إلينا القصَّةُ من مصدرها، غير مشوَّهة ولا محرَّفة.

لكن، إلى اليوم، لا يزال الزوج المغربي المحسن في حيرة من أمره، وهو يقول: "سابقتُ زوجي[٣١] ولَمَّا أسبقها بعد، فأنا أنفق مما عندي، وهي تنفق ما عندها!".

ولا يزال السباق حامي الوطيس[٣٢]، والفرسان في المضمار، ولا يزال

---

[٣١] الزَّوْجُ الفَرْدُ الذي له قَرِينٌ: زوج المرأَة: بعلها، وزوج الرجل: امرأَته.

[٣٢] "الآن حمي الوطيس": هذا مثل يُضرب للأمر إذا اشتدَّ كما قال الأصمعي، وهو في الأصل يطلق على تنور من حديد، وأوَّل من استعمله مجازا في اشتداد الأمر هو رسول الله ﷺ، وهو -كما قال أهل اللغة- مِن أفصح الكلام، ولا غرابة في صدور ذلك من أفصح العرب ﷺ" قال عليه السلام يوم حنين: "هذا حين حمي الوطيس!".

صديقنا المنفق ينزغ خيله، ويستنهض فارسه، ويردِّد النشيد الرمزي:

"في غيهب النَّوم سقطتَ،
وفي جُبِّ النسيان وقعتَ...
ما صحوتَ..
ومن الْجُبِّ ما خرجتَ.
وفي نَومك غَطَطْتَ..
وكأنّك غيرَ النوم لا تريد،
وعن أحلامه لا تحيد!"
قم يا نَوَّام..!
يا فارسي المقدام...
انهضْ، واعْتلِ صهْوتي..
وأَطْفئْ غلَّتي،
وسابِقْ نشوتي!"...
قُمْ... قُمْ... قُمْ... يا فارسي!

المنديل المبارَك

للمنديل في حياة الناس دلالاتٌ ومضامِين؛ فهو عنوانٌ للنظافة والجمال، وهو دليلُ خدمةٍ وتفان؛ لكن أن يكون رمزًا للبركة والهمَّة، فهذا نادر في دنيا العالَمين.

وهو كذلك في قصَّتنا هذه، فلتُتأمَّل:

كان هنالك في أعماق تركيا العَراقة، بين ثنايا شوارع "إسطنبول" التاريخية النادرة المثال، امرأةٌ تسكن بيتًا مرتَّبًا ومتواضعًا، وتلبس لباسًا محتشمًا ومتواضعًا؛ وكان شعارها المفضَّل، وقد كتبته على ورقة من "الكارتون"، وعلَّقته في مكان من البيت ظاهر، كُتب عليه:

"لقد كان شعارُ قلَّة الكلام شعارًا من شعارات الناضجين، إلى جانب شعار قلَّة الأكل، وقلَّة النوم".

وشاء الله تعالى أن تصنع هذه الأمَة من هذا الشعار قصَّة روحانية الصبغة، ربَّانية الروْح، ملائكية النبرات؛ إنها قصَّة "المنديل المبارَك".

نعَم، هي في ركن ركينٍ من بيتها، بعيدًا عن الصخب والضجيج المنبعث من الشارع المجاور، نصبَتْ طاولة، عليها ماكينة خياطة، وإلى جنبها حُزم من القماش، وعلى الأرفف علبٌ جميلة، فيها تُصفُّ المناديل المباركة بعناية، بعد أن تقَبِّل أنامِل السيدة الفاضلة وبنانَها.

كلامُها ينتظم مناديل مباركةً، بهجةً للناظرين! طعامُها وشرابُها مقتصر على ما يقيم أودها، لتخصِّص باقي الوقت في إبداع مناديلها المباركة. ونومها غفوةً، كثيرًا ما كان فوق رُزم من "المناديل المباركة"!

ثمرة كلِّ ذلك بضاعة تبيعها لبعض التجار الأذكياء، الذين يتسابقون

في شراء كلِّ ما لديها؛ لا لأنَّه أفضل ممَّا سواه فقط، لكن لأنَّهم كذلك يجدون على آثار هذه "المناديل المباركة" شيئا عجيبًا، لا يقدرون له تفسيرًا؛ إنها البرَكة صافيةً، تتنزَّل على كلِّ سِنتٍ يدخل صناديقهم من بيع هذه "المناديل المباركة"!

ما السرُّ في هذه المناديل، يا ترى؟

السرُّ كشفه كاشف خفيٌّ، رجاء الاعتبار والادِّكار؛ لكنَّه أخفى اسمَ صاحبته مخافة إذايتها وإحراجها بالشهرة والاشتهار.

قال صاحبنا: أتعلمون أنَّ رَيع هذه المناديل خصَّصته صاحبته للتكفُّل بطالب للعلم، تحمَّلت نفقاته ومِنحتَه كاملة غير منقوصة؛ وقد أقدمت على برّها هذا همَّة وإحسانًا، و"خدمةً" لِما أمر الله به أن يخدم، وإعلاء لِما أمر الله به أن يرفع[٣٣]:

والحقُّ أنَّ صاحبة "المناديل المباركة" ببرّها هذا، تعلِّم العالَمين درسًا لا يُنسى، عنوانه: متى علت الهمَّة نزلت البركة، وحيثما تتنزَّل البركات توجد عين الله كالئةً حافظة، تملأ الأجواء سعادة وحبورًا، ليس يَعرِف مَداهما إلاَّ الحواريُّون المقرَّبون، الذين قال فيهم ربُّ الجلال، وهذه المرأة إن شاء الله منهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾(الواقعة:١٠-١٤).

فاللهمَّ احشرنا معهم، يا رحمن يا رحيم.

---

[٣٣] مصداقًا لقوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(المجادلة:١١).

عقمٌ دون عقم

ممَّا علق في حافظته منذ الصغر، وهو يتردَّد على المنابر والمواعظ، أنَّ الهجرة من خصوصيات العهد النبويّ، وأنه «لا هجرة بعد الفتح». وبقي على تلك القناعة ما شاء الله له أن يبقى؛ إلى أن جاء اليوم المشهود، فساقه القدر إلى واعظ محمود؛ سمع منه ما هزَّ ترسُّبات فُهومه هزًّا، ولزَّ فكرَه وقلبه في قرَنٍ مع "الخدمة" لزًّا[٣٤].

فبعد سقوط روسيا، وبينما العالَم يتفرَّج ويحلِّل، والعالِم يصف ثم يقف؛ جمع "الأستاذ" شبابا من كلِّ الأطياف، في درس تاريخيٍّ لم تعرف تركيا له مثيلاً منذ أمد، وقال لهم، بنبرةٍ باكية، ومنطقٍ أخَّاذ: "الهجرة منوطة بمهمَّة النبوَّة، لا بذات النبيِّ؛ فما دامت الأسباب باقية، فإنَّ الحكم باقٍ إلى يوم الدين".

* * *

لم يتعثَّر "الأستاذ" عند هذا الحُكم؛ لكنَّه تجاوزه إلى إنزال الحكم إلى أرض الناس، فقال: "هل لي بشباب يهاجرون إلى أوراسيا وروسيا، وينشرون الإيمان والسلم هنالك؛ يبنون المدارس والمعاهد والمنشآت؛ فيكونون غيثا للعطشى، ومحرابًا للحائرين؟!"[٣٥].

---

[٣٤] لزَّ في قرَن: مثل يُضرب لأمرين قُرِنا مع بعضهما البعض، ويقال للبعيرين إذا قرنا في قرن واحد قد لُزا ؛ يقول جرير:

وابن اللبون، إذا ما لُزَّ في قرَنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس

[٣٥] يقول فريد الأنصاري، رحمه الله، في مقال بعنوان "رجال لا كأي رجال": " لولا أني

استجابت القلوب للقلب الصادق، وأذعنت العقول للفكر الحاذق؛ فما هي إلاَّ أيام حتى تجمَّعت آلاف الطلبات، مرفقةً بجوازات السفر؛ كلُّهم طلَّق الركون وحطَّم السكون، ونوى الحركة وقصد البركة؛ فتنادت الجموع:

"هيا بنا يا صاح[٣٦]، إلى هجرة قال فيها ربُّ الأنام: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾(النِّسَاء:١٠٠).

هيا بنا يا صاح، هذه فرصتنا!... سواء حيينا أم متنا، بلغنا المبتغى أم أخفقنا؛ فإنَّ الأجر واقعٌ على من لا يخلُف الوعد، واقعٌ على مَن ديدنه أن يعطي ويجزل في العطاء... هيا بنا... هيا".

* * *

هنالك في "سيبيريا"[٣٧] كانت أنفاسُه تتردَّد، بينما كلُّ شيء بارد حوله

رأيتُهم لقلتُ إنه مجرّد وهمٍ أو هُراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام، جمعوا بين خصلتين عظيمتين من خصالهم الكبيرة: الهجرة والنصرة. فلم يكن منهم مهاجرون وأنصار، بل كانوا مهاجرين أنصارًا، وللصحابة فضلهم الذي لا يبارى!" (انظر: مجلة حراء، العدد: ١٣ / أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

[٣٦] يا صاح، أي يا صاحبي. يقول إيليا أبو ماضي في رائعته بعنوان "يا صاح":

يا صاح كم تفّاحة غضَّة يحملها في الروض غصنٌ رطيب

ناضجة ترتجُّ في جوّها مثل ارتجاج الشمس عند المغيب

[٣٧] "سيبيريا" (Siberia): هي الجزء الشرقي والشمال الشرقي من روسيا . يمتد غربًا من جبال الأورال حتى المحيط الهادي شرقًا، ومن المحيط المتجمّد الشمالي حتى حدود كازخستان ومنغوليا والصين جنوبًا؛ وتمثل ٧٧٪ من مساحة روسيا ١٣,١ مليون كيلومتر مربع.
ولقد تأسست أوَّل جالية إسلامية في سيبيريا في النصف الثاني من القرن الهجري الأوَّل؛

إلى حدِّ الهلاك[٣٨]، ازداد قلبه وقلب الواصلين أمثاله حرقة واحتراقًا، فأحالوا الدنيا ربيعًا من المحبَّة والدفء والسلم، وصبغوا -بأيديهم- رجالاً ونساء، سفوحًا للفهم والعلم والحلم.

* * *

بعد ثلاثةٍ من السنين مرَّت كالبرق، جاءه الأمر بمغادرة المكان، والعودة إلى ربوع البلاد؛ فقد أدَّى الأمانة، وبلَّغ الرسالة، وخلَّف بعدَه مَن يواصل المسير، ويحمل الناس إلى أزكى مصير...

استجاب للأمر وما كان ليعصي؛ غير أنَّه سأل مَن فوقه علَّه يلين ويلغي القرار... سأله: "وما السبب في عودتي، يا ترى؟!... أنا لا أجادل، لكن فقط ليطمئنَّ قلبي".

قال "الخوجا": "لقد أثبتت البحوث الطبية أنَّ مَن كان أصله من البلاد الحارَّة، وسافر إلى الأصقاع الباردة، ومكث فيها أكثر من ثلاثة أعوام؛ فإنَّه قد يتعرَّض للعقم، وقد تزول خصوبته الرجولية".

أي بعد حوالي ٧٥ عاما من الهجرة فقط. قدموا من بخارى وسمرقند وقازان بآسيا الوسطى وعملوا على نشر الإسلام بين قبائل الإسكيمو. وأوَّل دولة إسلامية خالصة قامت بها كانت عام ٩٧٨هـ - ١٥٧٠م، في عهد الإمبراطور "كوشيم خان". ودام حكمها لعشر سنوات؛ حتى احتل الروس القياصرة عاصمتها في ٩٨٨هـ، ورفضوا إقامة أي كيان سياسي لها، فظلت حتى اليوم كإقليم تابع لجمهوريات روسيا الإتحادية. والعجيب أنَّ مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قد طبِّق كما في العهد النبوي، حين هجر الإتحاد السوفيتي ملايينُ البشر، فاحتضن المسلمون في سيبيريا أفواجا من المسلمين المهجَّرين في بيوتهم، واقتسموا معهم لقمة العيش، وخففوا عنهم قسوة الغربة؛ حتى اندمجوا في المجتمع الإسلامي هناك.

[٣٨] قيل لنا: إنهم يخرجون من البيت لقضاء الحوائج في سيارتين، حتى إذا ما تعطلت الواحدة استقلوا الثانية، وإلاَّ فقد يتحوَّلون في بضع ساعات إلى جليد، ولا من مغيث، ودرجة الحرارة هنالك حوالي ٥٠ درجة تحت الصفر.

ثم واصل بيانه، وقال: "ونحن لا نريد أن نلحق الضرر بأحدٍ، ولبُّ ديننا وخدمتنا القاعدةُ الخالدة: لا ضرر ولا ضرار، والضرر يزال".

تقبَّلها المهاجر على مضض، واستجاب للنداء وما رفض؛ غير أنَّه ترك مقولةً لو كتبناها بماء الذهب لما وفيناها حقَّها ومستحقَّها، لكن حسبها شرفا أن تستقرَّ في قلوب العالَمين، مِن خلال هذه القصَّة، لعلَّها تبعث في الآفاق مهاجرين.

قال المهاجر، لا حرمنا الله أجره:

"هما عُقمان: عقم الأجساد والأبدان، وعقم القلوب والأديان... فلقد كنت في سيبيريا معرَّضًا لعقم الخصوبة والرجولة، أمَّا اليومَ، وأنا في بلدي، فأنا مهدَّد بعقم الأمانة والرسالة... وهذا ما أسميه: عقما دون عقم"[٣٩].

[٣٩] عقم دون عقم: الصيغة مستوحاة من بابٍ في صحيح البخاري، هو باب "كفر دون كفر". وللاستعارة فحواها ومدلولها؛ ولا أقصد الكفر طبعا، وإنما أقصد أنَّ الشرَّ لا يتمحَّض، وأنَّ الخير لا يتمحَّض، والعاقل من ملَك الميزان، وقاسَ الكليات.

فقط، عشرة آلاف دولار...

مِن عادة الناس -وأنا منهم- أنَّهم يقيمون المفاضلة بين وظيف ووظيف، وبين منصب ومنصب، بقدر ما يدرُّ من أجرة، وما يهبُ من رضًا نفسيٍّ، وما ييسِّر من استقرار عائليٍّ... وقد يخطئون ويشتطُّون، فيقولون: "نحن نريد أن نضمن حياتنا!". وإنَّ منهم لَمَن يتجاوز الخطأ في القول إلى التحقيق في الاعتقاد، ويجاوز الزلَّة في اللسان إلى اليقين في الجنان.

وليس "محمودٌ" من هذا المذهب، كيف ذلك؟

* * *

هو شاب في مقتبل العمر، أقبلت عليه الدنيا بخمائلها، فأكسبته الرضا والقبول، وألبسته ثوبا من الهالة والوصول؛ حتى اصطفَّت الشركات والوزارات والهيئات في طابور طويلٍ؛ تخطُب وُدَّه، وتغريه بالأكثر والأدوم والأعجل؛ إلى أن مُنح، وهو المهندس الخرِّيت[٤٠]، أجرةً عشرة آلاف دولار شهريًّا؛ هذا، عدا المنح والعلاوات والفرص...

كيف لا وهو المعدن الثمين، والجوهرة النادرة المثال، علما وخُلقا، وآثارًا وإبداعًا؟!.

"إنّه نسيجُ وحدِه"[٤١] كما قالت العرب.

---

[٤٠] في مصادر اللغة: "الخريت: الدليل الحاذق بالدلالة، كأنه ينظر في خرت الإبرة. وهو: الماهر الذي يهتدي لأخرات المفاوز، وهي طرقها الخفية ومضايقها".

[٤١] كان الصحابة الكرام، عليهم شآبيب الرحمة، يصفون الصحابي الجليل عمير بن سعيد، بقولهم: "إنه نسيج وحده"، وكان عمر ﷺ يقول: "وددت لو أن لي رجالاً مثل عمير أستعين بهم على أعمال المسلمين". فلينُظر وجه الشبه مع بطل قصتنا هذه!.

* * *

شاء الله، ولا رادَّ لِما يشاء، أن يسوقه إلى ربوع "الخدمة": شابا يافعا، ويتدرَّج في النفع والعطاء يومًا بعد يوم؛ إلى أن جاء اليوم المشهود، ويُختبر في أحبِّ شيء، وبأشدِّ الصور قسوةً... إنَّها لحظة الاختيار، بين المصلحة والواجب، بين الأجرِ والأجرة، بين العاجل والآجل؛ وصدق من قال: "إذا أردتَ أن تحيِّره فخيِّره".

حضر درسًا قرآنيَّ الأنفاس، نبويَّ الزفرات، صحابيَّ الوثبات؛ ألقاه "أستاذٌ" تزوَّج العفاف منذ نحب، وحمل الهمَّ منذ نشب، وفي الدرس قال بلسان حاله قبل لسان مقاله: "ألا إنَّ الهجرة قد وجبت، فمن منكم يشتري الجنَّة، فيغادر الراحة إلى الأبد، ويزمُّ حقائبه، ويقصد أوراسيا... هنالك طيبةٌ بروحها السنيِّ، وهنالك المدينة المنوَّرة بعطرها الشذيِّ... هنالك في أوراسيا تسكن أرواح الصحابة الكرام، ممن هاجر وهجر، وممن قال فيهم ربُّ الأنام: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(الحشر:٨).

* * *

وقعت الواقعة، ونزلت الصاعقة، وبدأ الحوار الداخليُّ بين شهوة الفتى وضميره:

"أيترُك عشرة آلاف دولار أجرةً شهرية، والراحةَ والسعادةَ في مغاني إسطنبول الفوَّاحة، وبين مرابعها الصوَّاحة؟!... أم يذهبُ إلى هنالك، حيث القفر اليباب، والمخاطر المحدقة، والبعدُ عن الأهل والولد، وعن الحيِّ والبلد... ولا ينال من الأجرة -هنالك- إلاَّ ما يسدُّ رمقه، ويقيم

أوده... وقد يُحرم هذه الأجرة يومًا، أو يُطلب منه التبرع ببعضها إذا اقتضى الحال؟!

ما هذا المنطق؟! وما هذه المفارقات؟!"

* * *

لم يطق القلب والضمير، ولا الإيمان واليقين، صبرًا، ولم يتقبَّلا الصمت عن التهمة الموجَّهة إليهما، وهما بالحجَّة أولى، وبالبيان أدرى، فقالا:

"نعم، سنخسِر عشرة آلاف دولار؛ ولكنَّنا سنربَح[٤٢] جنَّة عرضها السموات والأرض، أُعدَّت للمتَّقين...

نعم، سنخسِر السكون والهدوء، وسنربَح رضا الملك القهَّار، الذي يهب السكون والهدوء للقلوب اليقظة الضارعة؛ حتى وإن ألقيت في نار سقر، ومرِّغت في قرارة جهنَّم...

وما السكون إذا لم يكن ربانيًّا إيمانيًّا؟!. أمَّا ذلك الذي تصنعه المادَّة وتُغليه الأموال، فحُقَّ لنا أن نسمِّيه "الركونَ" لا "السكون"، "الخذلانَ" لا "السعادة".

* * *

قرَّر محمودٌ، ومحمودٌ محمود... وما تردَّد هنيهةً، بل فصل في المعركة بضربة قاضية، لا بالنقاط فقط؛ فطلَّق الذي هو أدنى، وتعلَّق بالذي هو خير... ثم سافر بعيدًا... بعيدًا... إلى بلاد "الفيكنغ" قديمًا... وها هي

---

[٤٢] في دلالة الربح والخسارة، ينظر الحديث العظيم الذي يروي حادثة الصحابي الجليل أبي الدحداح ﷺ، وقوله الرسول ﷺ له: "ربح البيع أبا الدحداح، ربح البيع". وللحادثة كذلك علاقة متينة بنسق قصَّتنا هذه.

شمسه تشعُّ نورًا ودفئًا على السالكين، ثم ها هي بركاته تنير الدرب للواصلين.

إنَّه "مصعب بن عمير ﷺ" هذا العصر؛ إنَّه من طينة "سفير الإسلام"، الذي اصطفاه الرسول الكريم ﷺ "لرجاحة عقله، وكريم خلقه"... ووقف على جثته يوم أحد، وتلا قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾(الأحزاب:٢٣) ثم ألقى -في أسًى- نظرةً على بُردته التي كفن بها، وقال: "لقد رأيتك بمكَّة، وما بها أرقُّ حلَّة ولا أحسن لـمَّة منك. ثم ها أنتذا شعثُ الرأس في بردة".

فألفُ ألفُ مبروكٍ لعصرنا أن وجد فيه محمود، والسلام على محمود يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيًّا.

ذِي قِربتي

مقالات، وخواطر، وقصص من واقع الخدمة

مرَّة أخرى، أستحيي، وأنا العييُّ، في مخاطبتكم، وحسبي أن أقول، وقد جاءكم أهلُ "الخدمة" بدلائهم، بل وأنهُرهم ووديانهم وبحورهم، وجئتكم أنا بقربةٍ، لعلَّها جفَّت منذ أمد... جئتكم باحثًا عن الحقيقةِ، عاشقًا مصادرَها وموارِدَها... لأنشِد مع المنشد، مخاطبًا أحبّتي... أهمس في أذن كلِّ واحد منهم صادحًا مغرِّدًا:

ذي قربتي يا أخي في الحبِّ أرسِلُهـا إلى الحبيب، فهل يُرضيـه متَّسمـي؟

أرجو أن تصلك تحيتي، يا حبيب... وآمل أن يصلك معها سـلامي، يا طبيب... مِن ابنك، ومحبِّك، والحامدِ اللهَ أن هداه إلى اكتشاف رحابك وسفوح ربيعك، والمردِّد مع أرباب المعنى مقولتهم البديعة: "أجل! "السـلطنة تليق بالسلاطين، والتسوُّل يليق بالمتسوِّلين".

ISBN 978-975-315-529-8
9 789753 155298
www.daralnile.com
Bu da Benim Testim